كلية الآداب بقنا
قسم التاريخ

تاريخ صدر الإسلام وبني أمية

الأستاذ الدكتور

إبراهيم على القلا

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية

الإسلاميةبصان الحجر – جامعة الزقازيق

الأستاذ الدكتور

نجلاء سامي النبراوي

أستاذ التاريخ والحضارة

جامعة جنوب الوادي

تاريخ صدر الاسلام وبني امية

الفرقة الثانية – قسم اللغة العربية

أستاذ القرر /د حجاجي جابر عباس

مدرس بقسم التاريخ –كلية الاداب –جامعة جنوب الوادي

العام الجامعي ٢٠٢٢/٢٠٢٣م

البعثة النبوية وحياة الرسول ﷺ فى مكة

١- محمد قبل البعثة:

*** الرسول منذ ولد إلى أن بُعث:**

آن لنا أن نتكلم عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه، وأن ندخل فى نطاق التاريخ الإسلامى، فلنبدأ ذلك بالحديث عن نسبه الشريف.

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر، وفهر هذا هو المسمى قريش وهو الجد العاشر لرسول الله ﷺ، ويمتد نسب الرسولﷺ إلى عدنان الذى هو الجد العشرون للرسول، وعدنان من نسل إسماعيل عليه السلام، وكانت بطون قريش اثنى عشر بطنا، هى بنو عبد مناف جد الرسول الثالث ومن أولاد عبد مناف بالإضافة إلى هاشم، نوفل والمطلب وعبد شمس، وأشهر أولاد عبد شمس أمية جد الأسرة الأموية، والبطن الثانى بنو تميم أجداد أبى بكر، ثم بنو عدى أجداد عمر، وبنو أسد أجداد خديجة، وبنو زهرة أجداد آمنة، وبنو مخزوم أجداد خالد بن الوليد، وبنو سهم أجداد عمرو بن العاص، وبنو عبد الدار وبنو عامر وبنو الحارث وبنو جمح وبنو محارب.

وهاشم الجد الثانى للرسولﷺ كان سفير قريش لدى الملوك، وقد عقد مع الروم معاهدة تجارية لتذهب تجارة قريش إلى الشام فى أمان ومنعة، وكثيراً ما كان يقود تجارة قريش إلى الشام، ومات هاشم فى إحدى رحلاته التجارية، وكان هاشم قد تزوج فى يثرب وولد له ولد هناك أسماه شيبة، فلما مات هاشم أحضر أخوه المطلب هذا الولد وقد أردفه خلفه فظن بعض الناس أنه عبدٌ للمطلب فاشتهر باسم عبد المطلب وهو فى الحقيقة شيبة بن هاشم.

*** عبد الله بن عبد المطلب:**

روى أن رجلا جاء إلى الرسول ﷺ فقال له:.... يا ابن الذبيحين، فلم ينكر الرسول عليه ذلك، والذبيح الأول هو إسماعيل ابن إبراهيم عليهما السلام، والذبيح الثانى هو أبو الرسول عبد الله بن عبد المطلب.

وقد قص القرآن الكريم قصة الذبيح الأول فى قوله تعالى: (فبشرناه بغلام حليم، فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى، قال: يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين، فلما أسلما وتله للجبين، وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين، إن هذا لهو البلاء المبين، وفديناه بذبح عظيم، وتركنا عليه فى الآخرين، سلام على إبراهيم).

أما قصة الذبيح الثانى فترويها لنا كتب التاريخ وبخاصة كتاب الأصنام لابن الكلبى وتاريخ الطبرى، وهى ترينا بعضاً من عادات العرب التى سبق الحديث عنها، فالعرب كانوا يتقربون إلى الآلهة بتقديم القرابين التى تكون أحياناً من دماء البشر، كما انتشرت عندهم عادة الضرب بالقداح واتباع ما توصى به هذه القداح، وخلاصة هذه القصة أن عبد المطلب كان عليه سقاية الحاج، وكان عليه أن يحضر الماء لذلك من آبار بعيدة ويضعه فى أحواض ليشرب منها الحجيج وكان هذا العمل صعباً يحتاج إلى أيد كثيرة وإلى جهد كبير، ولذلك فكر عبد المطلب فى إعادة حفر بئر زمزم، ولكنه وجد كثيراً من العنت من قريش، ولولا صبره ودأبه ما نفذ هذا العزم، ومن أجل هذا نزر لئن ولد له عشرة بنين ثم شبوا وأصبحوا يمنعونه، لينحرن واحداً منهم عند الكعبة تقرباً لآلهة قريش، فلما حقق الله أمنيته وأصبح له عشرة أولاد أراد أن يفى بنذره، فجمع أولاده عند هبل وهو أعظم الأصنام التى تعبدها قريش، وطلب إلى صاحب القداح أن يضرب عليهم، فخرجت القرعة على عبد الله وهو أصغر أولاد عبد المطلب وأحبهم إليه. فأخذه عبد المطلب بيده وأخذ الشفرة وذهب به ليذبحه عند أساف ونائلة وهما وثنا قريش اللذان تقدم عندهما القرابين، فكفته قريش وكفه بنوه وقالوا: لا تذبحه أبداً حتى تعذر فيه، وأشاروا عليه أن ينطلق إلى عرافة شهيرة ليستشيرها، فذهب إليها، فأشارت عليه أن يعيد الضرب بين عبد الله وبين عشرة من الإبل، فإن خرجت القرعة على الأبل فلتكن هذه دية لعبد الله وإن خرجت على عبد الله زيد عليها عشرة أخرى وهكذا حتى ترضى الآلهة بالدية، فاستجاب عبد المطلب لرأى العرافة وظلت القرعة تخرج على عبد الله حتى بلغت الإبل مائة فخرجت على الإبل فنحرها عبد المطلب وترك لحمها حلالا للناس والحيوان والطير. [1]

نجا عبد الله بذلك من الذبح، ولكن هذه الحادثة أذاعت اسمه وأكسبته شهرة عظيمة، وأصبح موضع عناية الناس وحديثهم وحبهم، وزوجه والده بعد ذلك من آمنه بنت وهب، وعاش معها فترة

---

[1] اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى، المجلد الثانى، دار صادر، بيروت، د.ت، ص٩.

قصيرة بعد الزواج، ثم تركها وسافر متاجراً إلى الشام. ومات فى الطريق دون أن يعود إلى زوجته، ولكن بعد أن أودع بضعها نطفة كان مقدراً لها ان تكون أعظم شخصية فى تاريخ البشرية. فكأنما نجا عبد الله من الذبح لغرض واحد هو الألتقاء بآمنة وتكوين هذا الجنين، وبعد أن أدى عبد الله هذا الغرض أذن بالرحيل.

***آمنة بنت وهب:**

إذا كان عبد الله قد أدى مهمته فى الحياة بزواجه بآمنة وتكوين هذا الجنين، فإن مهمة آمنة لم تنته بذلك، فالحمل والحضانة والإشراف على الطفل استدعى أن تمتد الحياة بآمنة بضع سنين، والباحث النفسى يدرك سرور آمنة بزواجها من عبد الله ذى الشباب الغض والشهرة الذائعة، ويدرك أن موت عبد الله بعد هذا الألتقاء الوجيز كان جديراً أن يحطم قلب آمنة، ولكن التاريخ يثبت لنا هدوء آمنة فى غمرة الحزن ورضاها مع الأسى، وقد وجدت آمنة سلواها فى الجنين ثم فى الطفل ولكنها سرعان ما ماتت عندما كان طفلها فى السادسة من عمره، وكانت وفاتها فى موضع يقال له "الأبواء" بين مكة والمدينة. [١]

لقد شاء الله فيما يبدو أن يتولى هو تربية محمد وأن ينزعه من أسرته ليصبح فى رعاية الله تمهيداً للأسرة الكبيرة التى سيكون محمد زعيمها، والتى لا تهتم بجنس ولا لغة، وإنما أكرم الناس فيها هو أكثرهم تقوى لله، وقد عبر القرآن عن هذا المعنى بالآية الكريمة: (ألم يجدك يتيماً فآوى) وعبر عنه الرسول بقوله: "أدبنى ربى فأحسن تأديبى". [٢]

* مولد محمد وحياته قبل البعثة:

كان محمد ثمره هذا الألتقاء القصير، وقد ولد فى التاسع أو الثانى عشر من شهر ربيع الأول (٢٠أبريل سنة ٥٧١م) وكان مولده فى مكان غير بعيد من الكعبة، وقد أقيمت مكتبة فى المكان الذى ولد فيه عليه السلام، ويؤمها كثير من الحجاج ليعيشوا ردحاً من الزمن فى المكان الذى شهد مولد المصطفى، ولم ير محمد أباه ولذلك كفله جده عبد المطلب، وأرضعته حليمة السعدية، ولما شب عندها

---

[١] ابن هشام: السيرة، ج١، ص ١٧٠؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج١، دار صادر، بيروت، ١٩٥٧، ص ١١٦.

[٢] ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج١، ص ١١٦.

أخذ يرعى الغنم، ولما مات جده وهو فى الثامنة كفله عمه أبو طالب، وتربى فى بيته وساعده فى أعماله التجارية، وسافر معه إلى الشام متاجراً قبل أن يبلغ الحلم. (١)

أبو طالب أخا شقيقاً لعبد الله، ولذلك كان أرحم أعمام النبى ﷺ به وأولاهم برعايته.

وعندما كانت سن محمد أربع عشرة سنة وقعت حرب الفجار الرابعة، وكانت بين قريش وكنانة من جهة وهوازن من جهة أخرى، وقد حضر الرسول هذه الحرب، ويروى عنه قوله: كنت أنبل على أعمامى يوم "الفجار" وأنا ابن أربع عشرة سنة. أى أناولهم النبل: وسميت حرب "الفجار" لوقوعها فى الشهر الحرم، وحروب الفجار خمسة اشتركت فيها القبائل التى سبق ذكرها: كنانة وهوازن وقريش. (٢)

ومن أهم الأعمال التى قام بها محمد قبل البعثة تجارته فى مال خديجة بنت خويلد، وقد سافر فى هذه التجارة إلى الشام وكان معه غلامها ميسرة، وقد ربحت هذه التجارة ربحاً عظيماً وكانت سبب ارتباط بين محمد وخديجة، وقد توج هذا ارتباط بزواجه منها وهو فى الخمسة والعشرين وهى امرأة فى الأربعين من عمرها، تزوجت قبله مرتين. (٣)

عودة للحديث عن الرسول قبل البعثة:

وقد عُرف سيدنا محمد ﷺ فى جميع مراحل حياته بالخلق الطيب، والبُعد عن الشبه والخمر ومجالس اللهو والميسر وغير ذلك مما كان يميل له شباب العرب فى ذلك الوقت، وكان لحسن خلقه يعرف بالأمين.

ولما بلغ الخامسة والثلاثين جددت قريش بناء الكعبة، وقد كان الرسول يعمل مع قريش فى نقل الحجارة والبناء، ولما أتمت قريش العمل وأرادت وضع الحجر الأسود اختلفت البطون فيمن يكون له شرف حمله ووضعه وكادت تنشب الحرب بينهم لذلك، ثم اتفقوا على أن يحكموا أول داخل عليهم من باب شيبة، فكان محمدﷺ أول من دخل، فقالوا: هذا هو الأمين رضيناه حكماً وأخبروه الخبر: فبسط رداءه ووضع الحجر عليه، وقال لتأخذ كل قبيلة بطرف من الثوب، فرفعوه حتى انتهوا إلى موضعه فأخذه الرسول ووضعه مكانه وكان فى عمله هذا من الحكمة ما أرضى الجميع.

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج١، ص ١٢٥؛ ابن كثير: السيرة النبوية، ج٢، ص ٣٦٠.

(٢) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى، ج١، ص ٦٥-٦٦.

(٣) ابن هشام: السيرة، ج١، ص ١٢٠؛ البلاذرى: فتوح البلدان، ص٩٧.

واتفق المؤرخون والباحثون على أن محمداً ﷺلم يعبد صنماً قط وبغضت إليه الأوثان ودين قومه، وإنما كان يخلو لنفسه ويفكر فى الكون وصانعه، وكان يجاور فى حراء من كل سنة شهراً. واستمر كذلك حتى عبد الله على دين إبراهيم الخليل الذى كان يدين به بعض العرب الذين لم يقبلوا عبادة الأوثان مثل قس بن ساعدة وأكتم بن سيفى وأمية بن أبى الصلت. وكما تنزه محمد عن عبادة الأصنام فإنه تنزه كذلك عن مذمومات الجاهلية التى كان يغرق فيها شباب العرب فى ذلك العهد.

ولم يكتف محمد قبل الإسلام بالبعد عن الأصنام، بل كان ينهى عن عبادتها ما استطاع لذلك سبيلا، يروى زيد بن حارثة أنه ذهب مع الرسولﷺ مرة الطواف بالبيت، وكان لقريش صنمان يتمسح بهما العرب، فطاف محمد ولم يتجه للصنمين، أما زيد فقد تمسح بهما كما كان يفعل سواه من الناس، فقال له محمد: لا تمسنهما يا زيد. فدهش زيد من ذلك وقرر أن يمس الصنمين مرة أخرى ليتأكد له موقف محمد من ذلك، ومسح زيد الصنم بيده، فنهره محمد قائلا: ألم تنته؟ قال زيد: الآن قد انتهيت. (١)

وكان بُعد محمدﷺ عن الأصنام وعن مذمومات الجاهلية إعداد له ليتلقى رسالة الله، وهى الفترة التى سنتحدث عنها فيما يلى:

بعثة الرسول:

هيأ مال خديجة للرسول فرصة ليتفرغ للعبادة، فقد تزوج محمد خديجة فاغتنى بمالها , وكان محمد كما قلنا يخلو لنفسه ويفكر فى الكون، ومنحه الغنى فرصة للفراغ والمزيد من التفكير، ومنحه تقدم سنة مزيداً من العمق، ومنحته أخلاقه الحسنة مزيداً من الصفاء، وشملته عناية الله فرأى أن يخلو لله، وشجعته زوجته الصالحة على رغبته فكانت تعد له الطعام، فيأخذه ويذهب إلى غار حراء، حيث يخلو ليفكر فى الكون وخالقه، والموت ومصير الناس بعده وهكذا، وصفت نفس الرسول فأصبحت رؤاه تتحقق ولا تكاد تتخلف. (٢)

---

(١) هاشم الملاح: الوسيط فى السيرة النبوية والخلافة الراشدة، مطبعة جامعة الموصل، ١٩٩١م، ص ٩٧-٩٨.

(٢) ابن كثير: الفصول فى سيرة الرسول، تحقيق وتعليق محمد العبد الخطراوى وآخرين، ط٤، دار ابن كثير، بيروت، ١٩٨٥م، ص ٩٥؛ ابن هشام: السيرة، ج١، ص ١٤٧-١٤٨.

بدء الوحى:

وظل محمد يخلو ويفكر حتى نزل عليه جبريل يوم الأثنين السابع عشر من شهر رمضان، وضمه إليه ضمة شديدة ثم أطلقه وقال له: اقرأ. فأجاب الرسول: ما أنا بقارئ. فعاد جبريل فضمه بشدة ثم أطلقه وقال له: اقرأ فأجاب الرسول وقد أرهقه الضم والخوف: ما أنا بقارئ. فضمه جبريل مرة ثالثة ثم أطلقه وقال له: (

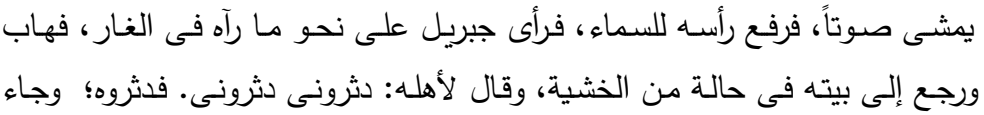

"سورة العلق").

وكانت هذه أول آيات تنزل من القرآن الكريم، ومن الملاحظ أن هذه الآيات لم تخبر محمداً بدعوة، ولم تكلفه برسالة، ولم تكن إلا إعلاماً بشئ غير عادى لم يدرك محمد كنهة عند وقوعه، ومن أجل هذا أسرع محمد إلى البيت وهو يرتجف فقص على خديجة ما رآه، وقال لها: لقد خشيت على نفسى، فهدأت خديجة من روعه، وقالت له: والله لا يخزيك الله أبداً، ولم تعرف خديجة كزوجها كنه هذه الحالة، ولذلك أشارت عليه أن يذهبا إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان شيخاً جليلاً واسع الأطلاع عميق الخبرة: فاستجاب الرسول لرأيها وذهبا إليه حيث قص محمد قصته فقال ورقة: هذا هو الناموس الذى ينزل على الأنبياء، ويا ليتنى أكون معك حين يخرجك قومك. فسأله محمد: أو مخرجى هم؟ فأجاب ورقة: لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عودى، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً. ثم لم يلبث ورقة أن توفى.[1]

وانقطع جبريل عن الرسول مدة بعد ذلك، وكان الرسول يترقبه فى الغار وخارج الغار، فسمع مرة وهو يمشى صوتاً، فرفع رأسه للسماء، فرأى جبريل على نحو ما رآه فى الغار، فهاب المنظر وارتعب، ورجع إلى بيته فى حالة من الخشية، وقال لأهله: دثرونى دثرونى. فدثروه؛ وجاءه جبريل وهو فى هذه الحالة فألقى إليه نداء ربه: (

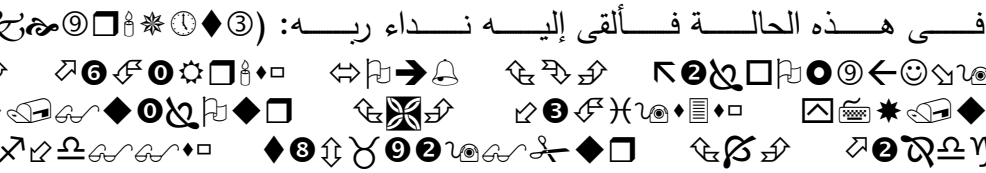

[1] ابن هشام: السيرة، ج١، ص ١٤٨؛ الطبرى: تاريخ الأمم، ج١، ص ٥٣.

فكانت هذه الآيات هى الآيات الأولى التى كلفت الرسول بالدعوة واتضح بها ما كان غامضاً، ونهض محمد عليه السلام ليحمل هذا العبء الكبير.

وبدأت بذلك رسالة محمد، تلك الرسالة التى وضعت حداً لعصر الجاهلية الذى سبق أن تكلمنا عنه وافتتحت عصراً جديداً للعرب هو عصر النور أو عصر الإسلام، ومن الواضح مما ذكرناه من قبل عن العرب قبل الإسلام أن كلمة الجاهلية لم يقصد بها الجهل، فقد كان فى الجزيرة العربية حضارة، وكان لكثير من ممالكها ثقافة ومجد، ولكن المقصود بالجاهلية هو التخبط فى المسائل الدينية، فجاء الإسلام ليضع حداً لهذه الضلالة ويدعوهم لدين واحد وإله واحد.

ويروى أن الرسول ﷺ كان يتصبب عرقاً عندما تركه جبريل بعد أن ألقى إليه أمر ربه، فقالت السيدة خديجة له: استرح يا محمد قليلاً، ولكن الرسول قال لها: لم يعد هناك وقت للراحة يا خديجة، ونهض ليؤدى واجبه تجاه الدعوة على ما سنرى. [1]

مراحل الدعوة :

قلنا آنفاً أن آيات سورة المدثر هى التى أمرت محمداً أن ينذر الناس، وأن يدعوهم لدين الله، وقد بدأت بهذه الآيات مراحل الدعوة للدين الجديد وهذه المراحل ثلاث هى:

-المرحلة الفردية.

-دعوة بنى عبد المطلب.

-الدعوة العامة. وسنتحدث عن كل منها فيما يلى:

المرحلة الفردية:

هى المرحلة الأولى من مراحل الدعوة، وفيها دعا الرسول سراً أهل بيته، كما دعا خاصة أصدقائه وكان يدعوهم لمبادئ الإسلام الأولى التى ذكرتها هذه الآية وهى الإيمان بالله ونبذ عبادة الأوثان، فآمن به فى هذه المرحلة زوجته وابن عمه على، وزيد مولاه، ثم دعا الرسول أبابكر وكانت له به صلة منذ مدة فآمن به، وعن طريق أبىبكر أسلم السابقون الأولون: عثمان بن عفان، والزبير بن

---

[1] أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، ج١، ص١٤٦.

العوام، وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، وأبوعبيدة بن الجراح، ودخل مع هؤلاء مجموعة من الموالى والفقراء. وقد استمرت هذه الدعوة السرية ثلاث سنوات. [1]

وإسلام أبو بكر يحتاج إلى المزيد من التفصيل، فقد كان صديقاً للرسول قبل البعثة، وكان يتردد على بيته، ويحس فيه بعمق الصدق وطيب الفطنة، فلما اتجه محمد إلى الخلوة فى غار حراء زاد أبو بكر تعلقا بالرسول وإيماناً بصفائه، فلما جاء الوحى للرسول بالآيات الأولى من سورة اقرأ ومن سورة المدثر التقى الصديقان، وسأل أبو بكر: لقد افتقدتك طويلا يا محمد فكيف حالك؟ فسأله الرسول بالتالى: أتصدقنى لو حدثتك بحالى؟ فقال أبو بكر: ومن سواك أصدق إذا لم أصدقك؟ فأخبره الرسول بخبر الوحى وقرأ له آيات سورة اقرأ وآيات المدثر، وأضاف الرسول أن هذا مطلع شعاع النور الذى أرجو أن يهتدى به الناس من الضلال وعبادة الأصنام ومن أكل الربا ومن الفسوق والعصيان.

وسرعان ما قبل أبو بكر ما قاله الرسول، وسأله: ماذا أفعل لأصدقك؟ فأجابه محمد: تنطق بالشهادتين فتقول أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فنطق أبو بكر بالشهادتين عدة مرات.

ويقول الرسولﷺ: ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة (تردد) إلا أبا بكر.

وحمل أبو بكر عقب ذلك عبء الدعوة إلى الإسلام فدخله السابقون الأولون كما ذكرنا آنفاً.

ومما يذكر عن إسلام طلحة أن بنى تميم قومه وقوم أبى بكر سخطوا على إسلامهما، وعبر نوفل بن خويلد الذى كان يدعى "أسد قريش" عن هذا السخط بأن تقدم وربطهما فى حبل واحد، وأخذ يشهر لهما، ولذلك سميا القرينين، وظلت هذه التسمية شرفاً يحرص عليه طلحة.

وممن بكر بالإسلام من أقارب طلحة عمه عمرو بن عثمان وقد كان ضمن المهاجرين إلى الحبشة، أما عمه الآخر عمير بن عثمان فقد قتل فى بدر.

واتجه السابقون الأولون إلى أصدقائهم يدعونهم إلى دين الله وقد استجاب لهؤلاء عدد من خيرة قريش مثل: سعيد بن زيد بن عمرو وزوجته فاطمة بنت الخطاب، وأم الفضل زوجة العباس، وأبى

---

[1] ابن هشام: السيرة، ج١، ص ١٥٥ ؛ ابن كثير : السيرة النبوية، ج٣، ص ٣٩.

سلمة بن عبد الله المخزومى، والأرقم بن أبى الأرقم، الذى كانت داره على جبل الصفا منعزلة عن مكة، فاتخذها الرسول مقراً للدعوة السرية للدين الجديد، فكان يلتقى بها مع أتباع الدين يعلمهم ويرشدهم. [1]

ومن الذين استجابوا لدعوة السابقين خالد بن سعيد بن العاص، وكان أبوه من أغنى القرشيين، ولإسلام خالد قصة جديرة بالذكر يرويها خالد بقوله: سمعت عن دعوة محمد وكنت متردداً فى قبولها، ثم رأيت فيما يرى النائم أننى على شوك أن أقع فى هاوية فأدركنى محمد وخلصنى من الوقوع فيها، فلما أصبح الصبح اتجهت إليه لأتعرف على تفاصيل الدين الجديد، وسألت محمد السؤال التالى: إلام تدعو يا محمدﷺ؟

فقال ﷺ: "أدعو إلى الله وحده لا شريك له، وأن تخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع.

وأدعو إلى الإحسان إلى والديك، وألا تقتل ولدك خشية الفقر، وألا تقرب الفاحشة ما ظهر منها وما بطن، وألا تقتل نفساً حرم الله قتلها إلا بالحق، وألا تقرب مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن، وأن توفى الكيل والميزان بالقسط، وأن تعدل فى قولك ولو حكمت على ذوى قرباك، وأن تفى بما عاهدت". قال خالد: فرأيت أن ما يدعو إليه الحق، فأسلمت واتبعت دينه.

دعوة بنى عبد المطلب:

هذه هى المرحلة الثانية من مراحل الدعوة، وقد بدأها الرسول عندما نزل عليه قوله تعالى "وأنذر عشيرتك الأقربين" فدعا بنى عبد المطلب ليجتمعوا به، فلما حضروا قال لهم: إنى ما أعلم شاباً جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، فلقد جئتكم بخير الدنيا والآخرة. وبلغهم دعوته، فصدق به بعضهم وكذب به آخرون، وكان عمه أبو لهب هو وزوجته من أشد الناس قسوة عليه، فقد هتف به أبو لهب قائلاً: تباً لك، ألهذا دعوتنا؟ [2] فنزل قوله تعالى: (

---

[1] ابن هشام : السيرة ، ج ١ ، ص ١٥٥ ، ابن سيد الناس : عيون الاثر فى فنون المغازى والشمائل والسير ، ج١، ص ١٢٦– ١٢٧ ،مؤسسة عز الدين ،بيروت ١٩٨٦م

[2] ابن سعد : الطبقات الكبرى ج١ ،ص٢٠٠ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٧م ، الطبرى : تاريخ الطبرى ج١ ،ص ٥٤٢ ، ط٣ دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩١م

.(⇦♉⇗ ⊙⑨✿○□✌ ♊♉♓✌ ⋖✍⬀⌨◰❍ ✍◰♎♉⑨⓿⇞♉ ❼♉× ⇦✎⇗

"سورة المسد"

وكانت زوجة أبى لهب (أم جميل) أخت أبى سفيان بن حرب فجذبت زوجها ليكون مع قومها من عبد شمس ضد بنى هاشم امتداداً للعصبية بين الجماعتين.

وقد كانت هذه المرحلة بدء الجهر بالدعوة للدين الجديد، [1] ولذلك مهدت للمرحلة الثالثة من مراحل الدعوة وهى التى سنتكلم عنها فيما يلى:

الدعوة العامـة:

نزل قوله تعالى (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) فانطلق الرسول يدعو للإسلام جهراً كل طوائف الناس، يدعو السادة والعبيد يدعو الأقربين والغرباء، يدعو أهل مكة ثم يتجاوزها إلى البلاد الأخرى، وكذلك يدعو الحجاج الذين يفدون إلى مكة من مختلف البلدان وقد أسلم فى هذه المرحلة الوليد بن الوليد بن المغيرة، وسلمة بن هشام أخو أبى جهل وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وجماعة غيرهم أراد الله لهم الهداية. [2]

---

[1] عبد الفتاح فتحى: المسلمون فى عصر الرسالة، دار الثقافة العربية، القاهرة، ٢٠٠١م، ص ١٢٢.

[2] ابن كثير : السيرة النبوية، ج٣، ص ٣٣-٤٥ ، ابو الفداء :المختصر فى اخبار البشر، ج١ ،ص ١٤٩ ، تقديم /حسين مؤنس ، تحقيق /محمد زينهم محمد عزب ، دارالمعارف القاهرة ، ١٩٩٨م .

مقاومة قريش وأسبابها ومراحلها:

بدأت الدعوة للإسلام سراً كما قلنا، وربما عرفت قريش أخبارها آنذاك، ولكن قريشاً لم تعلن العداء على محمدﷺ إبان هذه المرحلة السرية، إذ لم تتصور قريش أن الدعوة ستقوى وتشتد ويعتنقها أفراد كثيرون، كذلك لم تهتم قريش بدعوة محمد لبنى عبد المطلب، فقد رأت هذه حالة داخلية فى نطاق الأسرة، فلم تتدخل بها، وكأنما اكتفت بمقاومة أبى لهب وأمثاله لها، ولكن ما إن بدأ الرسولﷺ يجهر بالدعوة حتى أعلنت قريش حنقها على هذا الدين، وسلكت كل السبل للقضاء عليه، وقبل أن نتحدث عن هذه السبل أو ما نسميه مراحل المقاومة يجدر بنا أن نبين الأسباب التى جعلت قريشاً تقاوم دين الإسلام هذه المقاومة القاسية. (١)

أسباب المقاومة:

نستطيع من دراستنا لحياة العرب وأخلاقهم قبل الإسلام أن نستنبط أسباب مقاومتهم للإسلام وللمسلمين، وتلك الأسباب هى:

١-كان الرق منتشراً فى الجزيرة العربية انتشاره فى كل بلاد العالم، وكان العبد رقيق العقل والقلب بالإضافة إلى الرق الجسمانى، بمعنى أنه لم يكن له أن يتدين بغير دين سيده، ولا يحب أو يكره إلا تبعاً لحب سيده وكرهه، وكان جسمه خاضعاً لأوامر سيده، فلما جاء الإسلام لم يعترف برق العقل أو القلب، وقرر أن العقل والقلب لا يتطرق لهما الرق، فالرقيق حر فى فهمه وتدينه وحبه وكراهيته، وان رق الجسم غير مطلق، أى أن للرقيق حقوقاً لدى سيده فى الطعام والكساء والزواج، وليس لسيده أن يطلب منه الحرام أو ما يشق عليه من العمل. (٢)

ودخل بعض العبيد الإسلام كما قلنا، ورحب بهم محمد، واعتبر السادة هذا التصرف تمرداً من العبيد، كما اعتبروا محمداً مثيراً للفتن، وأنه لم يكتف بذويه يدعوهم لعقيدته بل راح يدفع الإسلام إلى القصور عن طريق العبيد على الرغم من إرادة أصحاب القصور.

٢-كان الصراع فى الجزيرة العربية يدور لأتفه الأسباب، فإذا جاء دين جديد يهاجم معتقدات القوم، فما أجدرهم أن يهبوا فى وجهه ليرضوا ما بأنفسهم من شوق للغارة والحروب.

---

(١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ، ج٢، ص٤٠.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج١، ص٢٠٠؛ البلاذرى: فتوح البلدان، ص١٢٠؛ الطبرى: تاريخ الأمم، ج١، ص ٥٤٢.

٣-السيادة القبلية والتنافس عليها: لم تستطع قريش أن تفرق بين النبوة وبين السيادة، أو بين النبوة وبين الملك، وحسبوا أن التسليم بدين محمد معناه التسليم بالزعامة له ولآله من بنى عبد المطلب، وكانت هناك منافسة شديدة بين قبائل العرب على الرياسة والسلطان، فلم يكن من الممكن أن تسلم قريش زمامها لمحمد ولبنى عبد المطلب وأن تفقد بطونها المختلفة مكانتها وسيادتها. [١]

٤-المساواة بين السادة والعبيد: كان العرب يهتمون بالطبقات اهتماماً شديداً، فلكل إنسان طبقته التى يجب ألا يتعدها، وإذا بدعوة محمد تجعل المساواة بين الناس أساساً هاماً من أسسها؛ وتسوى بين السيد وعبده، بل تجعل العبد أفضل من سيده لو كان أكثر منه تقى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ومن أجل هذا لم يقبل السادة أن يدخلوا فى هذا الدين الذى يهدم تقاليدهم، وأسس الحياة عندهم، ويسوى بينهم وبين العبيد الأذلاء. [٢]

٥-الفزع من البعث: يقرر الدين الإسلامى أن هناك بعثاً بعد الموت وأن هناك حساباً للناس، يكافأ المحسن فيه على إحسانه، ويعاقب المذنب على سيئاته وآثامه، قال تعالى (القارعة ما القارعة، وما أدراك ما القارعة يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش، فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية؛ وأما من خفت موازينه فأمه هاوية، وما أدراك ما هيه، نار حامية).

وقال (فإذا جاءت الصاخة، يوم يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، لكل أمرئ منهم يومئذ شأن يغنيه).

ولم تستطع قريش أن تقبل هذا الدين الذى يعيد الإنسان للحياة بعد الموت، ويعيده ولا سلطان له ولا نفوذ بيده، ثم يحاسب هذا الإنسان بعدالة على ما ارتكبه، ما أبشع الصورة التى تصورها زعماء قريش للإسلام، تلك الصورة التى دفعتهم إلى رفض هذا الدين الجديد وعدم اتباعه والدخول فيه، إنها صورة العدالة التى لا يرضاها الظالم؛ وصورة الحساب الذى يفر منه المذنبون.

٦-تقليد الآباء: كان تقليد الآباء واتباع سلوكهم فى العبادات والمعاملات شيئاً راسخاً عند العرب، ولذلك كرهوا أن يخرجوا من دين آبائهم وأن يتبعوا ديناً جديداً، وصاحو فى غباء وجمود (حسبنا ما

---

[١] أحمد شلبى: التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، ج١، ط٥، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٠م، ص١١٨؛ هاشم يحيى الملاح: الوسيط فى السيرة النبوية والخلافة الراشدة، مطبعة الموصل، ١٩٩١م، ص ١٢٦.

[٢] أحمد شلبى: التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، ج١، ص ١١٨.

وجدنا عليه آباءنا) فهزئ بهم سبحانه وتعالى بقوله (أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون). (١)

٧-بيع الأصنام: كان هذا السبب مادياً، فقد كان بين العرب من يحترف نحت الأصنام على شكل اللات والعزى ومناة وهبل، وكان هؤلاء يبيعون هذه الأصنام للحجاج الذين كانوا كثيراً ما يشترونها للتبرك والذكرى.

فلما جاء الإسلام حرم عبادة الأصنام ونحتها وبيعها، ووجد هؤلاء التجار فى الإسلام حائلا بينهم وبين أرباحهم وعاملا يقضى على تجارة الأصنام بالكساد والبوار، ولذلك سرعان ما قاوموا الإسلام وثاروا عليه.

ومما يتصل بهذا السبب المالى أيضاً إحساس سدنة الكعبة بأنهم سيفقدون ما كانوا يتمتعون به من ثروة ونفوذ بسبب خدمتهم للأصنام ورعايتهم لزائريها، كما ظن أهل مكة على العموم أن الكساد سوف يصيبهم جميعاً بسبب إعراض الحجيج عن مكة إذا بطلت عبادة الأصنام بها.

مراحل المقاومة:

كانت مراحل المقاومة ثلاثاً، إذ اتجهت أولا إلى العبيد والضعفاء، وثانياً إلى سواهم من المؤمنين، وثالثاً إلى الرسول نفسه، وسنتكلم عن كل من هذه المراحل على حدة فيما يلى:

١-العدوان على العبيد والضعفاء:

لم توجد قريش اهتماماً لمقاومة الإسلام فى أول عهده كما قلنا، وظنوا أن دعوة محمد ليست إلا حركة تفتر وتختفى بعد قليل من تلقاء نفسها.

ولكن سرعان ما بدا لهم أن الدعوة تدخل عليهم بيوتهم وأن عبيدهم الذين كانوا يعدون ضمن متاعهم يدخلون هذه الدعوة الجديدة، بعد أن وضح لهم الإسلام أن الرق لا يمتد للعقل ولا القلب، وإنما هو مقصور على الجسم وبشروط محددة فى ذلك أيضاً. لذلك اتجهت الخطوة الأولى من خطوات المقاومة إلى العبيد والضعفاء، لأن محمداً عن كان حراً يقول ما يريد فهؤلاء فى نظرهم ليسوا أحراراً فى أبدانهم ولا فى عقولهم، وعلى هذا تعرض ياسر وابنه عمار وزوجته سمية كما تعرض بلال وخباب بن الأرت وغيرهم إلى ألوان قاسية من العذاب ليس فيها خلق ولا رحمة (٢) ، وقد شمل هذا العذاب الضرب

---

(١) عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسى للدولة العربية، ج١، ط٢، الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٠م، ص١٠٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج٢، ص ٤٥-٤٦.

والحرمان من الطعام والشراب، وامتد العذاب بهؤلاء العبيد حتى كانت توثق ظهورهم بالرمضاء وتوضع فوقهم الحجارة المحماة الثقيلة، وقد مات ياسر وهو يعذب، ولما صرخت أمرأته شاكية طعنها أبو جهل بحربة فقتلها. وكان من نتائج تعذيب هؤلاء أن اشترى أغنياء المسلمين كثيرين من هؤلاء العبيد وأعتقوهم، وقد أعتق أبو بكر بلالاً وأمه حمامة، وأعتق عامر بن فهيرة وأعتق خمسا من النساء، ويقال إن فيه نزلت الآيات الكريمة "وسيجتنبها الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى، وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى".

٢-العدوان على كل المسلمين:

وتجئ بعد ذلك المرحلة الثانية حيث امتد الاعتداء إلى أتباع الدين الجديد جميعاً من غير العبيد والضعفاء، إذ رأت قريش أن الدعوة زاد انتشارها وانضم لها بعض أشراف، وبدا خطرهم يظهر، فعم الاعتداء كل المسلمين وأصبح كل مسلم هدفا للهجوم والإيذاء من المشركين مهما كانت مكانته فى قريش، ومهما كان ثراؤه، ومهما كان جاهه وقوته، وعلى هذا تعرض للأذى سادة أمجاد مثل أبى بكر وعثمان والزبير وأبى عبيدة، وربما كان من الممكن أن يدافع هؤلاء عن أنفسهم، ولكن الإذن باستعمال القوة-ولو للدفاع- لم يكن قد جاء بعد، كما سيأتى تفصيله عند الحديث عن الإسلام والقتال، ولذلك احتمل المسلمون الأول ألوانا من العسف والقسوة والطغيان أنزلتها بهم قوى الشر بمكة. [١]

وقد أوذى أبو بكر إيذاء شديداً على الرغم من سنه ومكانته فى قريش ولقد هم بالهجرة إلى الحبشة من شدة ما عانى، ولكن أحد سادة قريش قابله وقد أزمع الهجرة فخجل أن يهاجر رجل مثل أبى بكر من مكة، فأعاده معه فى جواره ولكن أبا بكر سرعان ما رد هذا الجوار حتى لا ينعم بالأمن فى وقت يعانى فيه باقى المسلمين ألواناً من العنت والعذاب، وقد صبر أبو بكر وصابر حتى هاجر مع الرسول إلى المدينة وممن نزل به، الأذى فى هذه المرحلة (عثمان بن عفان)، فقد حبسه عمه الحكم بن العاص فى حجرة مظلمة وقيده بسلاسل من حديد وهدده بأنه سيبقى هكذا إلى أن يعود إلى آلهة قومه، ويترك إله محمد، ولكن عثمان أكد أنه لن يعود إلى الكفر بعد أن ذاق حلاوة الإيمان، أما ما يعانى من قسوة فلا مناص من احتماله فى سبيل الله.

وتعرض الزبير بن العوام إلى سخط عمه نوفل بن خويلد، وأقسم نوفل أن ينزل بالزبير من العذاب ألواناً حتى يعود إلى دين آبائه وأجداده وتنفيذاً لهذا القسم وضعه نوفل فى حجرة مظلمة مكتوف

---

[١] النويرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب، ج١٦، المؤسسة المصرية العامة للتأليف ، القاهرة، د.ت، ص٢٢٩.

الأيدى وأطلق دخاناً كثيفاً بالحجرة حتى ضاقت أنفاسه وهو صابر لقضاء الله، ولم ينقذه من الموت إلا أمه صفية التى هددت بأنها ستدخل نفس الدين إذا استمر نوفل فى إنزال العذاب بابنها.

وإذا كانت صفية قد دافعت عن أبنها، فإن شاباً مسلماً آخر هو سعد ابن أبى وقاص كانت أمه (حمنة بنت أبى سفيان) مصدر تعذيبه والتنكيل به، وسنرى ذلك عند الحديث عن (الرسول والشباب).

ويمكن القول إن الرسول نفسه لم يمسه إيذاء يذكر فى هذه المرحلة لمكانة بنى هاشم ومكانة أبى طالب الذى آخذ على نفسه حماية ابن أخيه ومن نتائج الإيذاء الذى وقع على المسلمين أن هاجر هؤلاء إلى الحبشة كما سنوضحه فيما يلى، ثم نعود–بعد الكلام عن الهجرة إلى الحبشة–إلى استكمال مراحل المقاومة بشرح المرحلة الثالثة حيث تعرض الرسول نفسه للإيذاء والاعتداء.

هجرة المسلمين إلى الحبشة:

لما نزل الأذى بالمسلمين، وأصابهم البلاء من قريش، وأصبحت حالة المسلمين تدعو للأسى بسبب ما لاقوه من قريش من إيذاء وهجوم، بدأ الرسول يفكر فى بلدة أخرى يرسل لها المسلمين المستضعفين ليبعدوا عن قريش وعن هجمات قريش، أما المسلمون الأشداء فقد بقوا بمكة يحيطون بالرسول ويدفعون بهيبتهم العدوان عن أنفسهم، ومن هؤلاء على بن أبى طالبﷺ وطلحة بن عبيد الله وكثيرون سواهما. [١]

أى البلاد يختار الرسول لراغبى الهجرة من المسلمين؟ هل يرسلهم إلى اليمن؟ لا، إن اليمن خاضعة للفرس، لا يعتنقون الأديان السماوية ولا يحترمونها بدليل أن كسرى ملك الفرس أرسل إلى بأذان عامله على اليمن يقول له: ابعث إلى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين جلدين من عندك فليأتيانى به.

هل يرسلهم إلى مواطن أهل الكتاب من اليهود والنصارى بالجزيرة العربية؟ فقد كان أهل الكتاب فى نزاع ومنافسة، فهم لا يقبلون منافساً جديداً يقول بالله الذى يقولون به على غير ما يعتقدون.

هل يرسلهم إلى الشام أو الحيرة؟ لا، فإن الشام والحيرة مكانان لقريش فيهما نفوذ كبير بسبب الصلات التجارية التى تربطهم بسكانها، هذا بجانب نفوذ الروم والفرس الذى لا يسمح بتأييد الدعوة الجديدة.

---

[١] البلاذرى: فتوح البلدان، ص١٩٨؛ الطبرى : تاريخ الأمم، ج١، ص ٥٤٧.

إلى أين يرسلهم؟ هل يرسلهم إلى الحبشة التى كان الرسول يعرف أن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد؟ نعم، لقد استقر الرأى على ذلك، فوجه الرسول أتباعه عبر البحر الأحمر إلى أرض الأحباش.

وكانت هجرة المسلمين إلى الحبشة على مرحلتين تعرفان بهجرة الحبشة الأولى، وهجرة الحبشة الثانية، وكانت الهجرة الأولى فى السنة الخامسة للدعوة وقوامها أحد عشر رجلا وأربع نساء فيهم عثمان بن عفان وزوجته رقية ابنة الرسول والزبير بن العوام وأبو حذيفة وامرأته، وكان عثمان بن مظعون رئيس هؤلاء المهاجرين. (١)

أما الهجرة الثانية فقد حدثت بعد ذلك بأشهر قلائل واشترك فيها ثمانون رجلا وامرأ واحدة هى أم حبيبة بنت أبى سفيان مع زوجها عبيد الله بن جحش، وكان جعفر بن عبد المطلب زعيم المهاجرين فى هذه المرة، وبعد فترة قصيرة اتصل بمن كان فى أرض الحبشة من المهاجرين خبر إسلام عمر ومجاهرته بالعبادة، فتشجع بعضهم للعودة ليشارك عمر شجاعته وثباته ونضاله، كما بلغهم كذلك نوع من الهدنة بين قريش وبين المسلمين لحرص قريش على ألا تقوم حرب أهلية بين الفريقين، وحب الوطن طبيعة فى الإنسان، والغريب يتلمس المعاذير ليعود للوطن، وباسم حب الوطن، الذى- فيما نظن- نسج الأسباب وهيأ الحجج، عاد بعض هؤلاء المهاجرين إلى مكة، ولكنهم ما إن وصلوها حتى ظهر لهم أنهم كانوا متفائلين، وأن حدة العداء بين المسلمين والمشركين لم تهدأ، ولذلك-كما يقول ابن هشام-لم يدخل أحد منهم مكة إلا بجوار أو مستخفياً، أما باقى مهاجرى الحبشة الذين لم يخضعوا للتفاؤل، أو الذين آثروا البقاء فى مغتربهم حتى تعلو كلمة الله فقد بقوا هناك حتى السنة السابعة للهجرة. (٢)

وقد أحست قريش عقب هجرة المسلمين إلى الحبشة أن أختيار المسلمين للحبشة سببه استعداد النجاشى لإكرامهم، وأمنهم على نفوسهم ودينهم فى مغتربهم، فقررت أن تكيد للمغتربين لتحرمهم هذا الملجأ، فأختارت لذلك عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة المخزومى وأرسلتهما إلى النجاشى، وكان لعمرو بن العاص جاه فى الحبشة وفى بلاط النجاشى، وأرسلت مع البعثة مجموعة كبير من الهدايا للنجاشى وبطارقته، وأذاعت أن المسلمين يقولون فى عيسى وفى أمه قولا عظيما فعقد النجاشى مجلساً استمع فيه لرأى جعفر ابن أبى طالب فى هذه التهم، وقد نجح جعفر فى عرض الفكر الإسلامى

---

(١) ابن كثير : السيرة النبوية، ج٣، ص ٨٤-٨٥.

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم، ج١، ص ٥٤٧.

مما جعل النجاشى يقول: إن هذا والذى جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة، ويقال إنه آمن بالإسلام فثار عليه قومه لذلك، وفى العام السابع للهجرة أرسل الرسول من حمل هؤلاء المهاجرين فى سفينتين وأحضرهم إلى المدينة، وكان ذلك عقب استسلام خيبر، ويروى أن الرسول قال عندما رأى جعفر بن أبى طالب، ما أدرى بأيهما أنا أسر، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر. [١]

ونعود بعد ذلك للحديث عن الجوار الذى أشرنا إليه فيما سبق، فقد قلنا إنه لم يدخل مكة من العائدين من الحبشة إلا من دخل فى جوار ومن دخل مستخفيا، وكان من عادة العرب أن من دخل فى جوار شخص أصبح ذلك الشخص مسئولا عنه وعن حمايته، ويكون الاعتداء على المستجير اعتداء على المجير وهتكاً لحرمته، وقد دخل عثمان بن مظعون-عقب عودته من الحبشة ومعرفته أن المسلمين لا يزالون يسامون العذاب-فى جوار الوليد بن المغيرة، ولكن عثمان رأى ما فيه المسلمون من البلاء وهو يغدو ويروح فى أمان، فخجل من ذلك وقال: والله إن غدوى ورواحى آمناً بجوار رجل من أهل الشرك، وأصحابى وأهل دينى يلقون من البلاء والأذى فى الله مالا يصيبنى لنقص كبير فى نفسى، فمشى إلى الوليد بن المغيرة وقال له: يا أبا عبد شمس وفت ذمتك، وقد رددت إليك جوارك. قال: يا أبن أخى، لعله آذاك أحد من قومى؟ قال: لا، ولكنى أرضى بجوار الله ولا أريد أن أستجير بغيره: قال المغيرة: فانطلق بنا إلى الكعبة فاردد على جوارى علانية كما اجرتك علانية: فانطلقا حتى أتيا الكعبة، قال الوليد: هذا عثمان جاء يرد على جوارى. قال عثمان: صدق، قد وجدته وفياً كريم الجوار، ولكنى أحببت ألا أستجير بغير الله، فقد رددت عليه جواره. [٢]

ورأى عثمان عقب ذلك لبيد بن ربيعة الشاعر فى مجلس من قريش ينشدهم فجلس معهم عثمان وآنشد لبيد: ألا كل شئ ما خلا الله باطل. قال عثمان: صدقت. وتابع لبيد إنشاده قائلا: وكل نعيم لا محالة زائل. قال عثمان: كذبت، نعيم الجنة لا يزول.

ولما سمع لبيد من يكذبه صاح: يا معشر قريش. والله ما كان يؤذى جليسكم، فمتى حدث هذا فيكم، قال رجل من القوم؛ إن هذا سفيه من سفهاء معه قد فارقوا ديننا فلا تجدن فى نفسك من قوله.

---

[١] النويرى: نهاية الأرب، ج١٦، ص ٢٣٢.

[٢] ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج٢، ص٥١٢؛ الحلبى: السيرة الحلبية فى سيرة الأمين والمأمون، ج٢، بيروت، ١٩٨٠م، ص٣.

فرد عليه عثمان بكلام يدافع عن نفسه، فاشتبكا فى عراك، ولطم القرشى وجه عثمان لطمة أثرت فى عينه.

قال الوليد: يا عثمان، قد كنت فى غنى عما أصابك فقد كنت فى ذمة منيعة. قال عثمان: والله إن عينى الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها فى الله، وأنى والله لفى جوار من هو أعز منك وأقدر.

ومما يروى أيضاً عن أحاديث الجوار أن أبا بكر لما أصابه الضُر ورأى الأذى يصيبه ويصيب الرسولﷺ ولا يطيق له دفعاً أستأذن الرسول فى الهجرة فأذن له، فخرج أبو بكر وسار يوماً أو يومين فلقيه ابن الدغنة وهو أخو بنى الحارث بن عبد مناة بن كنانة وهو يومئذ سيد الأحابيش. فسأله: إلى أين يا أبا بكر؟ فاجاب: أخرجنى قومى وآذون وضيقوا على. قال ابن الدغنة: ولم؟ وإنك والله لتزين العشيرة وتعين على النوائب وتفعل المعروف وتكسب المعدم؟ ارجع وأنت فى جوارى. فرجع معه حتى إذا دخل مكة قام ابن الدغنة فقال: يا معشر قريش، إنى قد أجرت ابن أبى قحافة فلا يعرض له أحد إلا بخير. ومنذ ذلك الحين كفت قريش عن أذى أبى بكر.

وكان لأبى بكر مسجد عند بابا داره فكان يصلى فيه ويقرأ القرآن، وكان رجلاً رقيقاً إذا صلى خشع وإذا قرا القرآن بكى واستبكى، وكان ذلك يجذب حوله الصبيان والنساء فى إعجاب ظاهر، فخاف رجال قريش عاقبة ذلك ومشوا إلى ابن الدغنة وشكوا له أبا بكر وطلبوا أن يصلى وأن يقرأ القرآن داخل داره، فكلمه ابن الدغنة فى ذلك: فأجابه أبو بكر: أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله. قال: فاردد على جوارى. ففعل أبو بكر وتعرض بعد ذلك إلى عنت قريش من جديد.

٣-العدوان على الرسول:

نتكلم الآن عن المرحلة الثالثة من مراحل مقاومة قريش للإسلام، وفى هذه المرحلة تعرض الرسول ﷺ نفسه للهجوم والإيذاء، وقد بدأ ذلك عقب هجرة المسلمين إلى الحبشة، فقد أزعجت هذه الهجرة قريشاً وتوقعت أن يبشر المسلمون فى كل النواحى داعين إلى دينهم، وأن تمهد هذه الهجرة لهجرة محمد نفسه، وبذلك تتغلب عبادة الله على عبادة أصنامهم، ولهذا اتجهت قريش إلى رأس هذه الحركة، إلى محمد بن عبد الله للضغط عليه أو لإغرائه حتى يكف عن هذه الدعوة الجديدة.

واتبعوا فى إغراء الرسول ﷺ العروض المالية السخية، ولكن محمداً سخر منهم ومن أموالهم، فتجاوزوا المال إلى الملك، فعرضوا عليه أن يكون عليهم ملكاً، ولكن محمداً صاح بهم صيحة وضعت

حداً لهذه العروض الرخيصة حين قال قولته المشهورة: "والله لو وضعوا الشمس فى يمنى والقمر فى شمالي ما تركت ذلك حتى يظهره الله أو أهلك دونه". (١)

ولما لم يفد الإغراء اتجهوا للهجوم والإيذاء وكانوا راغبين فى إنزال الأذى مصرين على المقاومة، ولكنهم فى الوقت نفسه كانوا يخافون نتائج هذا الإيذاء ويتوقعون الشر من إقدامهم عليه، فأبو طالب يحتل أرفع مكانة بين العرب، وحوله بنو هاشم فيما عدا أبا لهب، ولذا تنوعت المقاومة فاتجه ثقلها إلى المقاومة السلبية وضرب الحصار كما سنوضح ذلك عندما نتكلم عن "مقاطعة بنى هاشم" واتجه بعضها إلى إنزال الأذى بالرسول مباشرة، فأم جميل زوجة أبى لهب كانت تلقى الأقذار والأشواك أمام داره فى غسق الليل لتؤذى الرسولﷺ عند خروجه مبكراً، وكان أبوجهل يلقى فوقه القاذورات وهو فى أثناء صلاته. (٢)

ولكن حماية أبى طالب ردت عن الرسول كثيراً من الأذى، ووقفت زوجته خديجة وكأنها بلسم يشفى ما يصيبه من آلام، لقد كانت تحسن استقباله إذا عاد إلى البيت كئيباً، وكانت تواسيه وتشجعه حتى يعود له نشاطه ويسترد عزمه وقوته.

وكان المجاهرون بالظلم لرسول الله، ولمن آمن به كثيرين أهمهم عمه أبو لهب، وابن عمه أبو سفيان بن الحارث وهما من بنى هاشم، وعتبة وشيبة أبنا ربيعة، وعقبة بن أبى معيط وأبو سفيان بن حرب وابنه حنظلة، والحكم بن أبى العاص بن أمية وهم من بنى عبد شمس، ومن بنى عبد الدار النضر بن الحارث ومن بنى أسد بن عبد العزى زمعة بن السود وأبو البخترى العاص بن هشام، ومن بنى مخزوم أبو جهل بن هشام، وأخوه العاص وعمه الوليد بن المغيرة، ومن بنى سهم العاص بن وائل وابنه عمرو بن العاص، ومن بنى جمح أمية بن خلف وأخوه أُبىَّ، وكان هؤلاء يواصلون الأذى للرسول وللمسلمين، ويروى ابن عباس أن النبى ﷺ كان يصلى فجاءه أبو جهل واعتدى عليه، وحاول نهيه عن الصلاة ولكن الرسول زجره وهدده، فقال أبو جهل: يهددنى محمد وقد علم أن ما بها رجل أكثر نادياً منى؟ فأنزل الله فيه الآيات الكريمة: "أرأيت الذى ينهى عبداً إذا صلى، أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى، أرأيت إن كذب وتولى، ألم يعلم بأن الله يرى، كلا لئن لم ينته لنسفعن بالناصية، ناصية

---

(١) ابن هشام: السيرة، ج١، ص ١٨٢-١٨٣.

(٢) ابن الأثير : الكامل، ج٢، ص٤٥.

كاذبة خاطئة، فليدع ناديه، سندع الزبانية، كلا، لا تطعه واسجد واقترب" قال ابن عباس والله لو دعا ناديه لأخذته الملائكة.

إسلام حمزة وعمر بن الخطاب ونتائج ذلك:

وبينما كانت الدعوة بين إسرار الرسول وكفاح قريش، إذ دخلها فى السنة الخامسة للدعوة بطلان عظيمان هما حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب وقد كانا معروفين بالقوة والصلابة فعز بهما الإسلام واشتد الأمل فى انتصاره، ولكن هنا نقرر أنه كان لإسلام عمر وحمزة رد فعل قوى عند قريش، فقد أدركت أن مسألة محمد ستؤدى إلى انتصار دينه ما دام هذا الدين قد بدأ يجذب له الأقوياء الأشداء من أمثال حمزة وعمر، وأدركت كذلك أن العدوان على المسلمين قد يؤدى إلى حرب داخلية، فإن عمر وحمزة لا يصبران على الضيم، وبخاصة أن إسلام حمزة ارتبط بعدوان أبى جهل على الرسول، فغضب حمزة لذلك وأعلن إسلامه، وقصد أبا جهل وشجه وهدده بالانتقام من أى عدوان. [١]

ومن أجل هذا اتجهت قريش وجهة جديدة طابعها المفاوضة لرغبتها فى أن يتم القضاء على محمد دون إثارة بنى عبد المطلب، فأخذوا يترددون على أبى طالب يطلبون إليه أن يسكت ابن أخيه الذى يسب دينهم ويحقر آلهتهم، ولكن هذه الخطوة لم تأتى بطائل، وحينئذ خطت قريش خطوة أخرى فيها شدة وتهديد فقد ذهبت وفودهم إلى أبى طالب وصاحت فيه:

يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وأنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإن والله لن نصبر على شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا، فأما أن تكفه عنا وإما أن ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين. [٢]

ولم يفد التهديد بشئ فخطوا خطوة ثالثة هى أنهم ساوموا أبا طالب وأرادوا أن يعطوه عمارة بن الوليد بن المغيرة ويأخذوا محمداً ليقتلوه، وقالوا فى ذلك لأبى طالب: إن عمارة أنهد فتى فى قريش، وأجمل شباب العرب، فخذه، فلك عقله ونصره واتخذه ولداً لك وأعطنا محمد. وسخر منهم أبو طالب، وقال: بئس ما تساومونني؛ أتعطونى ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم أبنى تقتلونه؟

---

[١] ابن هشام: السيرة، ج١، ص٢١٢.

[٢] ابن الأثير: الكامل، ج٢، ص٥٧-٥٨.

مقاطعة بنى هاشم:

وانتقل العداء خطوة جديدة، فقد أدركت قريش أن قوة محمد مصدرها أهله الذين يحمونه ويدافعون عنه، سواء منهم من اتبع دينه أو من بقى على دين آبائه وأجداده؛ ولهذا عزمت قريش على مخاصمة بنى هاشم جميعاً، ورغبة عن الحرب وما تجره من ويلات اتجهوا فى مقاومتهم لبنى هاشم اتجاهاً سلبياً ولكنه عنيف، فاجتمعت قريش وكتبت صحيفة قررت فيها مقاطعة بنى هاشم فلا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم. ولا يبيعون لهم ولا يشترون منهم، ولا يكلمونهم، ولا يزورون مرضاهم ولا يشيعون موتاهم، وأكرهوهم أن يلزموا الشعب وهو طريق بين جبلين.. وقد كانت هذه المقاطعة قاسية جداً على بنى هاشم، مسهم بسببها الضر بل الجوع والحرمان، وقد استمرت حوالى ثلاث سنوات، ولم تنقض إلى بعد أن أشفق بعض القرشيين على بنى هاشم بسبب ما نالهم من أذى وعذاب فمزقوا هذه الوثيقة وعادوا إلى الاتصال بهم. (١)

وكان أبو طالب شديد الرعاية للرسول ﷺ طيلة مدة بنى هاشم فى الشعب، فكان يأمر الرسول أن ينام فى فراشه الخاص أول الليل حتى يراه الناس وقد أوى إلى هذا الفراش، فإذا نام الناس أمر أبوطالب أحد بنيه أو اخوته أو بنى عمه فأخذ مكان الرسول، وأمر رسول الله أن ينتقل إلى فرشهم فيرقد فيها، وذلك ليضلل أعداء الرسول الذين قد يتجهون إلى العدوان على الرسول صلوات الله عليه. (٢)

ومما يذكر عن نهاية الصحيفة أن الله بعث عليها الأرضة فلحست كل ما كان فيها من عهد لهم وميثاق، ولحست اسم الله عز وجل، ولم تترك فيها إلا كلمات الظلم والشرك والقطيعة، وهناك رواية مضادة ترى أن الأرضة أتت على كل شئ، ولم تدع إلا اسم الله جل وعلا، وقد أوحى الله لمحمد بذلك، فنقل ذلك إلى عمه أبى طالب، فتحدى أبو طالب جماعة المشركين، وأحضروا الصحيفة فظهر صدق محمد، ومع هذا اعتبروا ذلك سحراً وزاد بغيهم وعدوانهم.

ولكن كان بين المشركين نفر عارضوا المقاطعة ومشوا فى نقض الصحيفة، ومن هؤلاء هشام بن عمرو بن الحارث وهو كاتب الصحيفة، وأبو البخترى العاص بن هشام والمطعم بن عدى، وزهير بن أبى أمية وأمه عاتكة بنت عبد المطلب عمة رسول الله، وزمعة بن الأسود.

---

(١) ابن هشام: السيرة، ج٢، ص ٣؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج١، ص٢٠٩.

(٢) اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى، المجلد الثانى، دار صادر ، بيروت، د.ت، ص ٣١.

وكان أبو جهل من أحرص الناس على النيل من المسلمين وحرمانهم ويروى ابن هشام أن أبا جهل لقى حكيم بن حزام بن خويلد ومعه غلام يحمل قمحاً إلى خديجة بنت خويلد زوجة الرسول وعمة حكيم فتعلق به أبو جهل وقال: أتذهب بالطعام إلى بنى هاشم، والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة، فجاءه أبو البخترى وقال له: مالك وله؟ إنه طعام كان لعمته عنده رغبت إليه فيه، فكيف تمنعه؟ فأبى أبو جهل، وقام نزاع كان من أسباب إغفال الصحيفة ونهاية المقاطعة.

وأبوجهل الذى كان شديداً فى غيبة محمد، كان يهاب محمداً ويحس بالرهبة أمامه يروى ابن هشام أن رجلا من إراش باع إبلاً له إلى أبى جهل بثمن مؤجل، فلما طالبه الإراشى بالثمن مطله أبو جهل وذهب الإراشى إلى حشد من الناس حول الكعبة وقال لهم: يا معشر قريش، ما من رجل يؤدينى ديناً على أبى الحكم بن هشام، فإنى رجل غريب وقد غلبنى على حقى؟ فرأى أحد الجالسين أن يهزأ برسول الله ﷺ، وكان الرسول ﷺ يجلس فى ناحية بعيدة عن القوم، فقال للأراشى: أرايت هذا الجالس هناك؟ إنه هو الذى يستطيع أن يأخذ لك حقك من أبى جهل. (١)

وصدق الأراشى كلام القرشى، وذهب إلى الرسول وقص عليه الخبر، قال الرسول للرجل: انطلق معى إليه، وذهبا معاً تجاه منزل أبى جهل.

وأراد القرشيون أن يعرفوا ما سيتم عليه الأمر، فألحقوا بالرسول والأراشى رجلا منهم لينقل لهم خبر ما سيتم من أحداث وعاد الرجل ليقول لقريش كلاماً عجباً، فقد دق الرسول باب أبى جهل ورد أبو جهل سائلاً من الذى يدق الباب؟ فقال الرسول: أنا محمد إخرج إلى فخرج أبو جهل وقد امتقع لونه، وما فى وجهه قطرة من دم، فقال له الرسول: أعط هذا الرجل حقه. قال أبو جهل: نعم فى التو والساعة ودخل وعاد ومعه ثمن الإبل وأعطاه للأراشى. (٢)

وسرعان ما جاء أبو جهل إلى الكعبة، فقال له المشركون: ويحك ماذا حدث لك قال: ويحكم أنتم، والله ما هو إلا أن ضرب بأبى وسمعت صوته حتى ملئت رعباً، ولما خرجت إليه وجدت كأن فوق رأسه قوة هائلة أرعبتنى، وأحسست أننى لو أبيت لهلكت. فعجب القوم من شأن أبى جهل وشأن محمد.

---

(١) السهيلى: الروض الآنف فى تفسير السيرة النبوية، المجلد الثانى، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ص ١٦١.

(٢) الحلبى: السيرة الحلبية، ج٢، ص ٢٦.

عام الحزن والخروج إلى الطائف:

وتفيد المصادر أنه عقب ذلك خرج الرسول ﷺ إلى الطائف فى السنة العاشرة من البعثة لكى يعرض الدعوة الإسلامية على قبيلة ثقيف ويلتمس هناك النصرة والمنعة، لحمايته من بطش مشركى قريش، وقد رحل إليهم وحده وقيل بصحبته زيد بن حارثة مولاه، واجتمع النبى ﷺ ببعض سادات ثقيف، وقد دعاهم إلى عبادة الله الواحد والدخول فى الإسلام، ومساعدته على من خالفه من مشركى قريش، ولكنهم أعرضوا عنه، وأغروا به سفاءهم وعبيدهم يسبونه ويرمونه بالحجارة حتى أدمت قدماه، فالتجأ إلى بستان لعتبة ؟ وشيبة ابنى ربيعة (من قريش)، فجلس فيه إلى أن انصرفوا عنه، ثم عاد إلى بلده مكة حزيناً لإعراض أهل الطائف عن الدعوة، ولم يستطع دخول مكة إلا بعد أن استجار بالمطعم بن عدى أحد سادات قريش، الذى أجاره وحماه من إيذاء مشركى قريش. [١]

ولعل رفض قبيلة ثقيف بالطائف الاستجابة للدعوة الإسلامية يرجع إلى سببين:

أولا: العلاقات التجارية والدينية الوثيقة التى تربط بين قبيلتى قريش وثقيف والمصالح المتبادلة.

ثانيا: أن الطائف كانت مركزاً لعبادة الآلهة اللات، وكان سدنة تلك الآلهة من ثقيف، ولذا خشوا أن تتأثر مكانة اللات بالدعوة الإسلامية.

الإسراء والمعراج:

أشارت المصادر إلى أنه فى السنة العاشرة للبعثة أسرى برسول الله فى رحلة روحانية من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى ببيت المقدس بعد المعاناة التى تعرض لها فى الفترة الأخيرة، وذلك ليشرح الله صدره ويعلى ذكره فى العالمين ويريه بعض آياته الكبرى فقد جاء جبريل عليه السلام بيت أم هانئ بنت عمه أبى طالب أثناء الليل ومعه البراق –وهى البداية التى كان تحمل عليها الأنبياء قبله، حتى انتهى به إلى بيت المقدس، فصلى بالأنبياء فى المسجد الأقصى، ثم صعد به إلى السماء وتحدث إلى بعض الأنبياء، ورأى الجنة والنار، وفرضت الصلوات الخمس، ورأى الكثير من آيات الله عز وجل ثم عاد به جبريل فى نفس الليلة إلى مكة، وفى الصباح أخبر أم هانئ بما حدث له فى تلك الليلة المباركة فأشفقت عليه من تكذيب قومه وإيذائهم له، غير أنه صمم على إخبارهم ، ووصف لهم

---

[١] ابن هشام: السيرة، ج١، ص ٤٢١–٤٢٢؛ الطبرى: تاريخ الأمم، ج٢، ص ٣٤٥–٣٤٨؛ عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، ص ٥٧–٥٨.

الطريق الذى سلكه إلى بيت المقدس، والعبر التى رآها خارج مكة لقوم منهم [١] ولكنهم رغم ذلك كذبوه، بينما صدق أبو بكر ﷺ، ولذا لقب بالصديق لعدم تردده فى تصديق حادثة الإسراء والمعراج.

الرسول يعرض نفسه على القبائل :

أخذ الرسول ينتهز فرصة اجتماع القبائل العربية فى المواسم سواء للتجارة أو الحج، وكان يجتمع بهم ويعرض عليهم الدخول فى الدعوة الإسلامية الجديدة والانتقال إلى أرضهم، فيذكر الطبرى أنه ذهب إلى قبائل كندة وبنى عامر وبنى حنيفة غير أن تلك القبائل لم تستجب لدعوته لحرصها على علاقاتها الوطيدة مع قبلية قريش، وارتباطها معها فى المصالح التجارية، علاوة على قيام ابى لهب – عم رسول الله – بشن دعاية كبرى ضده بين القبائل، ويحذرها من اتباعه، والدخول فى الدعوة الإسلامية الجديدة.

اتصال رسول الله بقوم من يثرب ودخولهم فى الإسلام :

فى تلك الأثناء وصل إلى مكة نفر من الأوس من أجل السعى لعقد تحالف مع قبيلة قريش ضد الخزرج فى يثرب، غير أن القرشيين رفضوا ذلك، فانتهز النبى فرصة وجودهم فى مكة واتصل بهم وعرض عليهم الدخول فى الإسلام فأسلم أحدهم ويدعى إياس بن معاذ الأوسى، وفى نفس السنة (الحادية عشرة للبعثة) شاءت إرادة الله عز وجل إظهار دينه وإعزاز نبيه وأن يساهم أهل يثرب بدور فعال فى نصرة الإسلام عندما وفد على مكة جماعة من الخزرج لزيارة البيت الحرام والتقرب إلى الآلهة، فاجتمع بهم الرسول ﷺ ودعاهم إلى الوحدانية والإسلام وقرأ عليهم آيات من القرآن الكريم، فصدقوا بالدعوة وأسلموا على يديه، وقالوا له:

"إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى الله أن يجمعهم بك، وسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ..." [٢]

ويضيف الطبرى أنه عندما عاد وفد الخزرج إلى قومه بيثرب ذكروا لهم رسول الله ودعوهم إلى الإسلام حتى انتشر فيهم، فلم تبق دار من دور الأنصار (الأوس والخزرج) إلا وفيها ذكر من رسول الله.

---

[١] ابن كثير: السيرة النبوية، ج٢، ص ٤٣ وما يليها..

[٢] الطبرى: تاريخ الأمم، ج٢، ص ٢٩٠، ٣٤٨–٣٥١؛ ابن كثير: السيرة النبوية، ص٧٣، عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، ص ٥٨.

بيعة العقبة الأولى:

استمر الرسول ﷺ فى الدعوة إلى الدين الإسلامى فدعى قبيلة كندة فرفضوا، وردته بنى حنيفه، ودعى بنو سليم وعبس وفزارة وغثان ومرة وكلب، وبنو الحارث، وبنو عزرة فلم يستجب منهم أحداً، ثم أتى بنى عامر بن صعصعة ودعاهم إلى الإسلام فقال له رجل منهم " أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟ فقال الرسول ﷺ الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء، وكان لهذا الجهاد المستمر من قبل الرسولﷺ فى سبيل إظهار هذا الدين أن يجد من بعد هذا الضيق فرجاً فظهر شعاع من الأمل والنجاة، فوجد من يستمع إليه ويستجيب لدعوته وكان النبىﷺ يستغل أية فرصة للقاء وفود العرب إلى مكة، وفى هذه المرة التقى برهط من قبيلة الخزرج وذلك عند العقبة وكان عددهم ستة رجال فدعاهم إلى الإسلام وأسمعهم بعض آيات القرآن الكريم فأجابوه وصدقوه وقبلو ما عرض عليهم، وقالوا للنبىﷺ سنقدم على قومنا بيثرب ونعرض عليهم هذا الدين فإن أيدوك فلا يكون أعز منك ورجعوا إلى يثرب وذكروا لأهلهم وذويهم وقومهم ما ذكره رسول الله ﷺ لهم، حتى انتشرت دعوته فى كافت بيوت يثرب واشتاقوا لمقابلته وكانت هذه المقابلة فى العام الحادى العشر من البعثة النبوية. (١)

وفى نفس العام قدم وفد من قبيلة الأوس يطلب محالفة قريش ضد قبيلة الخزرج، فأتاهم الرسول ﷺ ودعاهم إلى الإسلام فقال أحدهم وهو إياس بن معاذ: هذا والله خير مما جئنا له، ثم عاد وفد الأوس إلى يثرب دون أن يعقدوا حلفاً مع قريش، وكان الأوس والخزرج يسمعون من يهود المدينة أن نبياً سوف يبعث ويتوعدونهم به إذا حاربوهم، ولذلك لما رأى الأوس النبى ﷺ ولاحظوا أمارات الصدق عليه وقال بعضهم لبعض والله هذا الذى توعكم به اليهود فلا يسبقنكم إليه وانصرفوا إلي بلدهم.

فلما كان العام المقبل وفد إلى مكة اثنا عشر، منهم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، فبايعوا الرسول عند العقبة ، وتعرف تلك البيعة ببيعة العقبة الأولى "بيعة النساء"، واجتمعوا وعاهدهم النبى على ألا يشركوا لعبادة الله شيئاً ولا يسرقوا ولايزنوا ولا يقتلون الأولاد ولا يأتون ببهتان ولا يعصون

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص ٥٢-٥٣؛ ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج٢، ص ٦٦.

النبىﷺ، وبعث معهم الرسولﷺ مصعب بن عمير بن هاشم بن مناف بن عبد الدار وأسعد بن زرارة ليقرئهم القرآن ويدعوهم إلى عبادة الله، وأصبح الإسلام بين الرجال والنساء وفى كل دار بيثرب. [١]

فنزل مصعب بإحدى دور المدينة وصار يدعو أهلها من العرب إلى الإسلام، ويصلى بالمسلمين ويتلو عليهم القرآن. ولم يمض عام حتى أصبحت كل أسرة من عرب المدينة تضم فريقاً ممن دخل فى الإسلام على يد مصعب بن عمير[٢].

بيعة العقبة الثانية:

وفى العام التالى الموافق الثالث عشر من البعثة خرج من يثرب ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان من الأوس والخزرج، من المسلمين الذين أسلموا حديثاً قاصدين مكة، فقدم إليهم النبى ومعه عمه العباس وكان على دين قومه، ولكنه صحب ابن أخيه ليتوثق له، وكان معه أبو بكر الصديق وعلى بن أبى طالبرضي الله عنهما وتحدث العباس إلى الأنصار وذكر لهم أن محمداً فى عز من قومه ومنعة فى بلده ولكنه فضل الإنحياز إلى أهل يثرب، وطلب منهم أن يتاعهدوا على حمايته ورد عليهم أحد رجال الخزرج وهو البراء بن معرور أنهم صادقون فى عزمهم وقام النبىﷺ ورغبهم فى الإسلام وتلا بعض آيات القرآن الكريم فقبلوا دعوته وبايعوه وتعاهدو له بالدفاع عنه ورحبوا بهجرته إلى مدينتهم، ثم قام أبو الهيثم مالك بن التيهانى أحد رجال الأوس فقال لا يارسول الله وإنا بيننا وبين الناس حبالاً – يقصد اليهود – وإنا لقاطعوها فهل عسيت إن أظهرك الله عز وجل أن ترجع إلى قومك وتدعنا. [٣]

فتبسم الرسولﷺ وقال: "بل الدم الدم الهدم الهدم" أنتم منى وأنا منك وسالم من سالمتم وأحارب من حاربتم، وطلب منهم أن يختارو من بينهم إثنا عشر نقيباً ليكونوا رؤساء على الناس وأختارو تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس بايع هؤلاء النقباء الرسولﷺ على السلم والحرب والزودة عنه وعن الدين الإسلامى بالمال والروح ومحاربة كل من يعارض الإسلام وقفلوا راجعين إلى يثرب ودخل سادات يثرب إلى الإسلام وعدد كبير من أهلها، وكتم المسلمون أخبار هذه البيعة حتى لا تعلم بها قريش، لأن

---

[١] ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص ٥٤؛ الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، ج١، ص ٥٥٨.

[٢] ابن الأثير: جـ٣، ص٣٦-٣٧.

[٣] ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص ٦٥؛ البلاذرى: فتوح البلدان، ص٢٥٢؛ الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، ج١، ص ٥٦٢.

النبىﷺ لم يكن قد أمره الله عز وجل بإستعمال السلاح للدفاع عن نفسه وإنما كان يأمرنا بالصبر والصفح عن الجاهل. [١]

وعندما تسرب خبر هذه البيعة إلى قريش جن جنونهم وقابلوا وفد يثرب بمكة ولكن هذا الوفد لم يكن ممن حضروا بيعة العقبة من المسلمين، فأقسموا لقريش أنه لا علم لهم بذلك، ثم تأكدت قريش من إبرام المعاهدة بين الرسولﷺ وأهل يثرب ورجعوا مرة ثانية يبحثون عن وفد يثرب بمكة فوجدوه قد رحل عنها فانطلقوا فى آثار أهل يثرب خارج مكة فلحقوا بهم وتمكنوا من القبض علي سعد بن عبادة سيد الخزرج وقيدوه وآذوه حتى أطلق سراحة منهم جبير بن مطعم بن عدى لعلاقة طيبة بينه وبين سعد الذى رجع بسرعة عائداً إلى يثرب، ودبر ضرورة سرعة انتشار الإسلام بها ونصرة الرسولﷺ.

هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى يثرب:

لما علمت قريش بنبأ تحالف الرسولﷺ مع عرب يثرب فى بيعة العقبة الثانية، اضطربت إضطراباً شديداً، واشتد أذاها على المسلمين على المسلمين، فأذن الرسول لأتباعه بمكة فى الهجرة إلى المدينة، وقال "إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها" ، فتجهزوا إليها فى ستر وخفاء وصاروا يتعاونون بالمال، وكان كل مهاجر من قريش وحلفائهم يستودع دوره وماله رجلاً من قومه فمنهم من حفظ الوديعة ومنهم من تصرف فيها وفق رغبته، وخرج المسلمون جماعة بعد جماعة، حتى لم يبق بالمدينة إلا رسول اللهﷺ وأبو بكر الصديق وعلى بن ابى طالب رضى الله عنهما ومن اعتقله المشركون كرهاً.

ولما بلغ قريش تأهب الرسول الهجرة إلى يثرب اجتمع رجالها بدار الندوة يتشاورون فيما يصنعون فى أمره فاتفق رأيهم على قتله، فاعلنه الله بذلك وخرج من داره ليلاً بعد أن أمر على بن أبى طالبرضي الله عنه أن ينام على فراشه وقابل أبا بكر الصديق وأخبره أن الله قد أذن له فى الخروج من مكه، فطلب منه أن يصحبه فى هجرته، فأجابه إلى ما طلبه ومضى به إلى غار بجبل ثور. [٢]

كانت قريش تترقب حركات الرسولﷺ وانتدبت من تتبع أثره حتى وصل بعضهم إلى الغار، فأوجس أبو بكر خيفة وأخذ الرسولﷺ يهدأ من روعه وإلى ذلك يشير القرآن الكريم: ﴿ ﴾

---

[١] الطبرى: تاريخ الأمم، ج٢، ص ٢٦٢؛ ابن كثير: السيرة النبوية، ج٢، ص ٩٥ وما يليها.

[٢] الطبرى: تاريخ الأمم، ج٢، ص ٣٦٩.

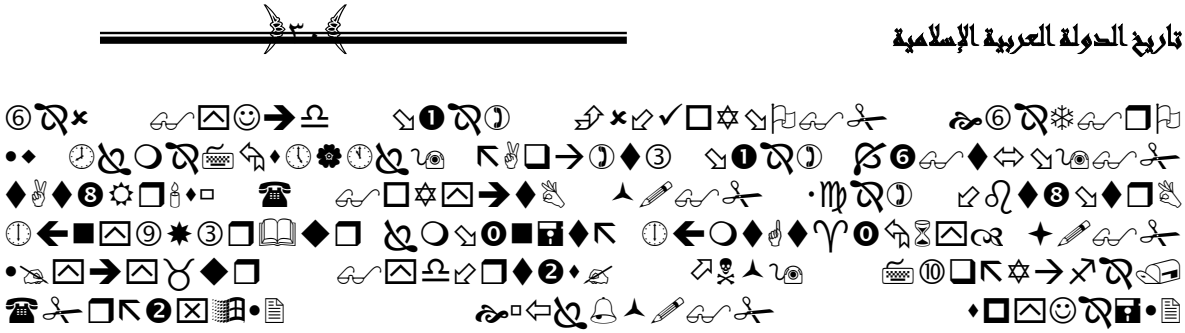

سورة التوبة آية ٤٠."

فلما مضت ثلاث ليالى على الرسولﷺ وأبى بكر وهما بالغار وكانت أسماء بنت أبى بكر تأتى إليهما كل مساء بالطعام والشراب وعبد الله بن أبى بكر يأتى إليهما كل مساء بالأخبار وماتريد قريش أن تفعل.

وفى اليوم الرابع ارتحل النبى وأبو بكر بعد أن أستأجر دليلاً يسمى عبد الله بن أريقط وصاحبهما أيضاً عامر بن فهيرة مولى أبى بكر الصديق إلى يثرب وصاروا فى طريق يثرب حتى بلغ ضاحية من ضواحيها تسمى قباء – على بعد ميلين من المدينة – فنزل الرسول ﷺ على بنى عمرو بن عوف وأقام عندهم أربعة أيام وأسس بقباء مسجداً، ثم خرج يوم الجمعة راكباً ناقته فلما أتى بنى سالم صلى الجمعة بمن معه من المسلمين وهم إذ ذاك مائة وهى أول جمعة أقامها الرسولﷺ فى الإسلام وألقى عليهم خطبة "بدأها بحمد الله والثناء عليه بما هو أهله ثم قال أما بعد أيها الناس فقدمو لأنفسكم تعلمن والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع، ثم ليقولن له ربه ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه ..." .

ركب الرسولﷺ على راحلته بعد صلاة الجمعة متوجهاً إلى يثرب وكان كلما مر على دار من دور الأنصار يدعونه إلى المقام عندهم قائلين: يارسول الله هلم إلى القوة والمنعة، فيقول خلو سبيلها (يعنى ناقته) فإنها مأمورة، ولم تزل ناقته سائرة به حتى أتت دار بنى مالك بن النجار وبركة فى مربد لغلامين يتيمين من بنى النجار، ثم نزل الرسولﷺ عنها وحمل أبو أيوب خالد بن زيد الأنصارى رحله وأضافه فى داره، وأشترى الرسول المربد بعشرة دنانير وأمر أن يبنى فى مكانه مسجد للمسلمين، ويبنى إلى جانبه مساكنه التى انتقل إليها بعد أن استغرق بنائها سبعة أشهر قضاها فى ضيافة أبى أيوب

الأنصارى، ومنذ هاجر النبىﷺ إلى يثرب أطلق عليها اسم المدينة وهو العام الذى هاجر فيه هو أول التاريخ الهجرى. [١]

٣- قيام الدولة العربية الإسلامية فى المدينة:

لم يضيع النبى وقتاً منذ أن وطأت قدماه أرض يثرب التى سميت منذ ذلك الحين مدينة النبى، وعرفت فيما بعد باسم المدينة أو المدينة المنورة، وأخذ ينظم الحياة العامة فى مجتمع المدينة وبرسم السياسة التى سوف يقدمها فى نشر الإسلام داخل المدينة وخارجها.

وكما تحدثنا عن الدور المكى فى نقاط محددة، يمكننا أن نتحدث عن الدور المدنى فى نقاط محددة أيضاً. وأولى هذه النقاط الجديرة بالبحث والدراسة هى الأسلوب الذى رسمه النبى لتنظيم الحياة العامة فى المدينة.

١-تنظيم الحياة العامة فى مجتمع المدينة:

كان أول ما فعله النبى فى المدينة هو بناء مسجد اتخذ منه مكاناً للعبادة وإدارة دفة الأمور. فكان هذا المسجد بمثابة دار للحكومة الإسلامية، فيه تعقد الاجتماعات العامة، وتعقد مجالس الحرب، واتخذ أيضاً ميداناً للتدريب العسكرى على القتال، كما كان يتخذ أيضاً دار للقضاء ولاستقبال الوفود ولمعالجة جرحى المسلمين وتعليم القرآن، فهو مكان للصلاة والحكم والقضاء وشئون الجهاد. [٢]

ولم يقم النبى فى المدينة حكومة بالمعنى المعروف اليوم، فلم يعين موظفين أو وزراء بالمعنى المألوف، إنما كان يكلف بعض الصحابة بمهام معينة يؤدونها، وبعد أدائها يعودون إلى ما كانوا عليه من تلقاء أنفسهم، وكان مستشاروه أيضاً ليسوا بموظفين، بل من خاصة الصحابة وأتقاهم مثل أبى بكر وعمر وغيرهما. وكان الرسول يرسل الوفود إلى الملوك والأمراء لدعوتهم إلى الإسلام، وبجيش الجيوش ويعقد اللواء للقواد من المسلمين فى الغزوات التى لم يباشرها بنفسه، وكان يرسل أيضاً الحكام والولاة وعمال الصدقات إلى أنحاء شبه الجزيرة المختلفة ليفقهوا الناس فى الدين وليحكموا بينهم بالعدل ويسوسوهم بسياسة الإسلام.

---

[١] أحمد إبراهيم الشريف: الدولة الإسلامية الأولى، ص ٤٠؛ عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٦٥.

[٢] السمهودى: وفاء الرفا، ج١، ص٣٢٢.

كل هذا يدل على أن الرسول مارس نشاطاً سياسياً واسعاً وضع فيه أساس أول حكومة إسلامية فى المدينة، وأظهر به أمة من العدم. [١]

وكانت الخطوة الحاسمة فى تكوين الأمة الإسلامية هو ما بدأ به الرسول من المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، فصار لكل مهاجر أخ من الأنصار، يشركه فى بعض ماله وداره، بل ويرث كل منهما الآخر، وذلك بقصد بث الطمائنينة فى قلوب المهاجرين، وإبعاد الإحساس بالغربة عن نفوسهم، ولما عز الإسلام وانتصر المسلمون على أعداء الله فى غزوة بدر، نزل قوله تعالى: "والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم، فأولئك منكم، وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله، إن الله بكل شئ عليم". فنسخت هذه الآية نظام التوريث بالمؤاخاة، ورجع كل مسلم يرثه ذوو قرباه فقط.

كما وضع النبى أسس التكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع الإسلامى فى المدينة وخاصة عندما فرضت الزكاة، فتيسرت سبل العيش على الفقراء من المسلمين، وعين النبى فى كل أرجاء شبه الجزيرة من يجمع الصدقات من الأغنياء ويردها على الفقراء، علاوة على أنه أذن للمعدمين ومن ليس له بيت يأويه أن يبيتوا فى مسجد الرسول بالمدينة وكان يدعوهم لتناول الطعام معه أو مع أصحابه، وعرف هؤلاء الفقراء بأهل الصفة، لأنهم كانوا يقيمون بصفة المسجد، وهى المكان المسقوف فيه.

ونتيجة لذلك وجدت الأمة الإسلامية أول ما وجدت فى المدينة تلك الأمة التى قامت على أساس من الدين، وليس على أساس من العصبية القبلية والنسب، ذلك أنها ضمت المهاجرين والأنصار، وكانوا مختلفين نسبا وأصلا، فالمهاجرون من عرب الشمال من ولد عدنان، والأنصار من عرب الجنوب من ولد قحطان، كما أنها ضمت المشركين الذين لم يدخلوا الإسلام بعد فى المدينة، وكذلك اليهود الذين كانت لهم نفس الحقوق والواجبات، وبصفة عامة شملت الأمة الإسلامية كل من تبعها وحارب معها أو عاهدها من سكان المدينة سواء كانوا قرشيين أم انصاراً، مسلمين أم مشركين، منافقين أم يهود.

وكان هدف هذا الاتحاد الذى أوجده النبى بين تلك العناصر والطوائف هو توفير الأمان للناس فى المدينة وتوفير الحماية لهم ضد أى عدوان خارجى عليهم، وكان هذا الأمر يقتضى تنظيماً معيناً يحدد الحقوق والواجبات لكل عشيرة أو طائفة أو جماعة من سكان المدينة، فكتب الرسول كتابا بين فيه

---

[١] عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام، ص٧٤.

ذلك. وقد ورد نص هذا الكتاب أو الصحيفة عند ابن اسحاق، وعنه نقله ابن هشام، ويتضمن النواحى الآتية:

أولاً: إرساء مبدأ الوحدة الإسلامية:

فالمسلمون أمة واحدة "فهم أمة واحدة من دون الناس، كما نصت الصحيفة، وقد أتسع مدلول لفظ الأمة فى هذه المرحلة المبكرة ليشمل العرب، مسلمين ووثنيين، ويشمل اليهود المقيمين فى يثرب أيضاً.

ثانياً: تنظيم العلاقة بين المسلمين فى المدينة:

١-فلا يتحالف بعضهم ضد البعض الآخر، يفهم هذا من قول النبى فى الصحيفة، "لا يخالف مؤمن مولى مؤمن دونه". وبذلك قضى النبى على المحالفات القبلية التى كانت تحدث بين القبائل ضد بعضها البعض قبل الإسلام، لأن هذا يتنافى مع مبدأ الوحدة الإسلامية.

٢-التضامن والتعاون بين أفراد الجماعة الإسلامية لأن "المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس، وهذا التعاون مطلوب أيام السلم وأيام الحرب. "فكل جماعة تفدى أسيرها "ولا ينصر أحد كافرا على مؤمن.

٣-تنظيم مسائل السلم والصلح مع الأعداء فلا يحل لبعض المسلمين أن يسالموا أعداءهم دون البعض الآخر "فسلم المؤمنين واحدة" حتى لا يضرب العدو المسلمين ببعض فى المدينة.

٤-التعاون ضد من يعتدى على المدينة فسكانها "بينهم النصر على من دهم يثرب".

٥-يتكافل المسلمون جميعا ضد من ظلم أو اعتدى أو أفسد ولو كان ابن أحدهم "وهم عليه كافة ولا يحل لهم إلا القيام عليه" حتى يؤخذ الحق منه، وبذلك ينقل الإسلام مشروعية العقاب وحق التأديب من القبيلة إلى الجماعة أو الأمة وذلك لتوفير الأمن والأمان فى المدينة.

٦-عدم نصرة وعدم إيواء من يرتكب جريمة، فلا جوار لظالم أو معتدى أو مجرم "فلا يحل لمؤمن أن ينصر محدثا (مرتكبا لجريمة) ولا يؤويه، وأن من نصره أو آواه فعليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة.

٧-من ارتكب جريمة قتل، فعليه القصاص إلا إذا رضى ولى القتيل بالدية، والمسلمون جميعا على القاتل حتى يقتص منه لأنه "من اعتبط (قتل بلا ذنب) مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولى المقتول وأن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه".

٨-ولضمان تحقيق ذلك أسندت الصحيفة السلطة القضائية للنبى، لأنه "ما كان من بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله، وبذلك نزع الرسول سلطة القضاء من رؤساء القبائل وركزها فى شخصه أو فيمن ينيبه عنه فى أنحاء الجزيرة المختلفة، حتى يضمن تنفيذ شرع الله وحكمه فى أية قضية من القضايا. [١]

ثالثاً: تحديد العلاقة مع قريش:

١-منع مشركى المدينة من إجارة مشركى مكة، وعدم منع المسلمين عنهم، فلا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ولا يحول دونه على مؤمن".

٢-منع المسلمين فى المدينة من إجارة قريش أو حلفائها "فلا تجار قريش ولا من نصرها.

٣-لقريش وحلفائها حق الصلح إذا طلبوه إلا من حارب منهم دين الإسلام. "فإذا دعوا إلى صلح يصالحونه، فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين..."

رابعا: تنظيم العلاقة مع اليهود فى المدينة:

١-إقرار الحرية الدينية ليهود المدينة "فلليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يهلك إلا نفسه وأهل بيته".

٢-يتمتع اليهود بالمساواة التامة مع المسلمين فى الحقوق والواجبات "وانه من تبعنا عن يهود" فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم".

٣-يقوم اليهود بتمويل أنفسهم عند قتال من يعتدى على المدينة بل ويتكافل ويتضامن الطرفان (اليهود والمسلمون) فى الأنفاق حتى النصر ضد من يحارب أهل المدينة حسب نص الصحيفة "وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة".

٤-التعايش السلمى بين الطرفين، تعايشا يقوم على الإخلاص والنصح وعدم الغش والخداع والتآمر، لأن يهود المدينة أمة مع المؤمنين "فيهود بنى عوف أمة مع المؤمنين" وعدد الرسول اليهود الموالين للقبائل العربية الأخرى من غير بنى عوف وقال عنهم أنهم أمة مع المؤمنين، حتى يضمن وحدة

---

[١] ابن هشام: السيرة، ج١، ص ٥٠١-٥٠٤.

الجهة الداخلية، وأن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الآثم، والنصر للمظلوم، حتى تأتى تلك الوحدة السياسية على أسس واضحة قويمة يمكن على أساسها محاسبة من يخون ويغدر. [١]

هذه هى النظم التى وضعها الرسول لتنظيم الحياة فى المدينة والتى نتج عنها قيام مجتمع قوى يعرف كل فرد فيه حقوقه وواجباته، وقيام أمة ودولة فتية استطاعت أن تناجز قريشا وبقية العرب رغم كثرة عددهم وقلة عددها وعدتها وأن تتغلب عليهم ونلاحظ فى هذا الصدد أن معظم النظم أو المبادئ التى وردت فى الصحيفة جاء بها القرآن الذى أقر المساواة بين الناس جميعا وقضى على الفوارق الجنسية والاجتماعية التى مزقت العرب قبل الإسلام فقد ورد فى سورة الحجرات "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم" إن الله عليم خبير".

وقوله عليه الصلاة والسلام: "كلكم لآدم، وآدم من تراب، وأنه "لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى"، وهكذا أصبح الدين والانتساب إليه، وليس الجنس أو العنصر أو النسب أو العصبية، هو المرجع الوحيد فى تحديد العلاقات بين الحكومة والشعب، وبين الناس بعضهم بعضا.

أما ما يقوله بعض المستشرقين من أمثال فلهوازن من أن مبدأ الوحدة والمؤاخاة والمساواة لم يطبق فى عهد الرسول ﷺ وأنه "بقى المهاجرون على حدتهم، وبقى الأنصار على حدتهم وبقيت قبائل اليهود فى المدينة على حدتها، وبقى التابع تابعا والمولى مولى والنزيل نزيلا، وإن كانوا قد اعتنقوا الإسلام، وأن "اليهود لميكن لهم نفس الحقوق ولا تقع عليهم نفس الواجبات، وأنه على ذلك بقى ما يشبه التمايز العربى القديم بين أصحاب الحق الكامل وبين غيرهم من تابع ونزيل". [٢]

واضح أن كل هذا الكلام الذى تابعهم فيه أو فى بعض معناه بعض المؤرخين المسلمين المحدثين ليس له من هدف إلا نفى فكرة الوحدة وفكرة الأمة وفكرة المساواة التى نادى بها رسول الله ﷺ وطبقها فعلا عقب هجرته إلى المدينة، فليس هناك أوضح من القول من أن "اليهود أمة مع المؤمنين، وليس هناك أوضح من المساواة فى شكلها الإنسانى غير المسبوق والذى عرف بالمؤاخاة حيث كان المهاجر والأنصارى يرث كل منهما الآخر.

ويدعى هذا الفريق من الكتاب أيضاً بأن هذا التمايز وعدم الإندماج بين سكان يثرب الذى أشاروا إليه، هو الذى أجبر فريقا من المشركين من أهل يثرب على الدخول فى الإسلام، وخاصة بعد

---

[١] ابن هشام: السيرة، ج١، ص ٥٠١-٥٠٤.

[٢] أحمد شلبى: التاريخ الإسلامى، ج١، الطبعة الخامسة، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٠، ص ١٧٨.

ان اتبع الإسلام سياسة الإرهاب بعد انتصاره فى بدر كما يقول فلهوزن "فلم يسمح للمشركين بأن يبقوا داخل الأمة على شركهم كما كان الحال حتى ذلك الحين، وكان لابد لهم تحت ضغط الظروف من أن يعتنقوا الإسلام. (١)

والحقيقة أنه لم يكن هناك إرهاب بعد النصر فى بدر، بل كان هناك استعداد للدخول فى معركة ثانية مع قريش، والاستعداد لا يبيح للحاكم أيا كانت سياسته واتجاهه أن يرهب فريقا من رعيته هو فى أشد الحاجة إليهم، كما أن مشركى يثرب لم يتحولوا إلى الإسلام عقب النصر فى بدر كما أدعى فلهوزن، فقد بقى معظمهم على الشرك حتى بعد غزوة الخندق، أى حتى العام الخامس للهجرة.

أما ما كان يقوم به كل فريق من المسلمين أنصارا ومهاجرين، أو من اليهود من دفع الديات أو فداء الأسرى إذا ما اعتدى واحد منهم على آخر أو اعتدى على أحدهم من خارج يثرب الأمر الذى اتخذه فلهوزن دليلا على عدم وجود الوحدة والمساواة واتخذ منه بعض المؤرخين المحدثين دليلا على اعتراف الصحيفة بالوجود القبلى داخل دولة المدينة، نقول أن هذا الأمر لم يكن إلا لأن دولة المدينة فى عهد الرسولﷺ لم يكن لها فى البداية أو فى تلك الفترة بالذات وهى الشهر الأول من أول عام للهجرة بيت مال يمكن أن تدفع منه الرايات أو الفداء من الأسر ولما تم تنظيم الدولة فى عهد الخلافة الراشدة وصار لها بيت مال أصبح هذا العب، يقع على كاهل الدولة وليس على الجماعات أو الأفراد، وكما أشرنا فهدف فلهوزن وأمثاله واضح فى إنكار ما أقامه الرسول ﷺ من أساس مكين لأمة إسلامية موحدة قوية، فتكريس الانفصال والفرقة هدف أساسى من أهداف هؤلاء. (٢)

يضاف إلى ذلك أن مناقشة هذا الأمر لا تتم على ضوء "الصحيفة التى وردت فى مصدر تاريخى واحد هو ابن إسحاق وعنه نقل ابن هشام، بل يجب أن تتم هذه المناقشة بجانب ذلك–فى ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية التى اشتملت على عدد كبير من الآيات والأحاديث النبوية التى تدل على مبدأ الوحدة والمساواة والأخوة وعدم التمييز بين الناس على أساس المال أو الطبقة أى المنزلة الاجتماعية، بل على أساس التقوى والعمل الصالح وهو الأساس الذى طبقه الرسول منذ نادى بكلمة التوحيد وطبقه معه المسلمون سواء فى مكة أو المدينة مما أوجد أمة إسلامية قوية موحدة.

---

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى، ج١، ص ٨٩.

(٢) أحمد إبراهيم الشريف: الدولة الإسلامية الأولى، ص ٦٩؛ عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٧٨.

وبعد أن اطمأن الرسول ﷺ إلى قيام الأمة الإسلامية فى المدينة وإلى جمع شمل العرب والمسلمين واليهود بها فى وحدة واحدة وجه أنظاره إلى نشر الإسلام خارجها، خاصة بعد أن فرض الله عليه الجهاد. ولم يشرع الله الجهاد للعدوان أو الاعتداء على الناس أو لنشر الإسلام بحد السيف كما يقول بعض المستشرقين وإلا لكان ما قاله ميور وغيره من المستشرقين من أن السيف والقرآن أكثر أعداء الحضارة والحرية صحيحا، فالسيف فى نظرهم هو وسيلة الدعوى، والقرآن عندهم وكما قال شاتو بريان لا يحث على مقت الاستعباد والطغيان ولا يحث على حب الحرية، والجهاد فى رأيهم لم يكن إلا للقضاء على اليهود والمسيحيين بوصفهما أعداء الإسلام كما قال ماسينيون. (١)

فالجهاد لم يكن ضد مسيحيين أو يهود، وكما سبق أن رأينا فقد عاقد الرسول اليهود وعاهدهم على أنهم أمة مع المؤمنين لهم مالهم وعليهم ما عليهم، كما عاهد النصارى فى نجران وغيرها وكفل لهم حريتهم الدينية كاملة، وأرسل ملوك النصارى فى بلاد الروم ومصر والحبشة، ولم يطلب منهم إلا الإيمان بالله وحده، كما أن القرآن لم يدع إلى طغيان أو استبعاد، بل هو فى جوهره دعوة إلى الحرية الخالصة، دعوة إلى تحرير الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد حتى يتساوى الناس جميعا أمام إله واحد خالق تخضع له البلاد ملوكا وحكاما ومحكومين، فلا يخر الإنسان ساجدا إلا لله وحده، والسيف لم يكن للإكراه على الدخول فى الإسلام لأن هذا يتنافى مع مبادئ الإسلام نفسه فقد ورد فى القرآن أنه "لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى"، "إنك لا تهدى من أحببت"، "أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين"؟ (٢)

كما أن سير الأحداث التاريخية ينقض هذه الدعوى من أساسها، فالرسول استمر يدعو الناس فى مكة بالموعظة الحسنة وبالحجة وبالإقناع طيلة ثلاثة عشر عاما، لم يرفع فيها سيفاً، ولم يجرد سلاحاً سوى كتاب الله، فآمن بعضهم وكانوا قلة، وبقيت الأغلبية فى مكة على دينها القديم، وكان النبىﷺ يعرض نفسه على الناس والقبائل فى مواسم الحج، فآمن بعضهم ورفضه آخرون، وذهب إلى الطائف وعاد منها بعد أن ناله كثير من الأذى.

ولما انتشر الإسلام وأصبحت الجزيرة كلها إسلامية اتصل النبىﷺ بالدول المجاورة، وأرسل لها السفارات والكتب يدعوها إلى الإسلام، ولم يرسل لها جيوشاً أو أساطيل تهددها وتفرض عليها ما تأباه.

---

(١) أحمد شلبى: التاريخ الإسلامى، ج١، ص١٨٠.

(٢) عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٨٥.

وكذلك فعل الخلفاء الراشدون من بعده، فلم يحاربوا شعوب الشام والعراق ومصر، وإنما حاربوا محتليها من الفرس والرومان، وأخرجوهم من تلك البلاد، وتركوا بعد ذلك لشعوبها حرية الاختيار بين الإسلام أو البقاء على دياناتها القديمة، وعقدوا معها معاهدات تنظم ذلك [١]، ولو كان هناك إكراه على الدين لما كانت هناك اقليات دينية غير إسلامية ظلت موجودة فى العالم العربى والإسلامى حتى اليوم، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن الجهاد لم يشرع لأن الرسول أراد أن يوفر الطعام اللازم لإطعام المهاجرين الذين كانوا قد وفدوا على المدينة من مكة كما قال بذلك ول ديورانت، أو لأن المهاجرين شكلوا عبئاً على إخوانهم الأنصار الذين تطوعوا لإعالتهم كما قال بذلك الدكتور مصطفى أبو ضيف أحمد، بل أن الجهاد شرع لتحقيق أهداف أخرى سامية غير هذه الإدعاءات، من هذه الأهداف:

١-الدفاع عن النفس، وفى ذلك يقول تعالى فى سورة البقرة: "وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين".

٢-رد الظلم واسترجاع الحق بمحاربة الذين اضطروهم للهجرة وأجبروهم على الخروج من بلدهم مكة ظلما وعدوانا، وفى ذلك يقول تعالى فى سورة الحج "إذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق، إلا أن يقولوا ربنا الله".

٣-تأمين الدعوة الإسلامية والدفاع عنها ضد من يقف فى سبيلها أو يحاول أن يفتن المسلمين عن دينهم، يفهم هذا من قوله تعالى فى سورة البقرة، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين لله". [٢]

٤-تأديب الخائنين والناقضين للعهد، مثلما حدث من يهود المدينة حينما خانوا الرسول، ونقضوا عهدهم معه وانضموا إلى مشركى مكة لقتال الرسول، يفهم هذا من قوله تعالى فى سورة الأنفال: "وإما تخافن من قوم خيانة فأنبذ إليهم على سواء، إن الله لا يحب الخائنين" ومثلما حدث من قريش حينما نقضت صلح الحديبية وساعدت بنى بكر ضد خزاعة حليفة الرسول، فنزل قوله تعالى فى سورة التوبة "وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة". [٣]

وهكذا ترى أن الجهاد فى الإسلام لم يشرع إلا لتحقيق أهداف دفاعية فى المقام الأول ولم ينفرد الإسلام بطلب الجهاد أو القتال من أتباعه فقد شرعت الحرب فى غير الإسلام من الأديان، وإن كانت

---

[١] حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى، ج١، ص ٨٨.

[٢] أحمد إبراهيم الشريف : الدولة الإسلامية الأولى، ص٤٩٨.

[٣] حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى، ج١، ص ٨٩.

أهدافها فى هذه الأديان غيرها فى دين الإسلام، ففى التوراة المتداولة بين اليهود ما يفيد بأن الحرب كانت أمراً مقرراً، إذ أنها تنص أن "الله فرض عليهم أن لا يتركوا من الأمم السبعة الذين كانوا سكانا فى فلسطين والأردن أحد أصلا إلا قتلوه" وفيها أن الرب يأمرهم بحرب المدن ودعوة أهلها إلى الصلح أولا، فإن أجابوا إلى ذلك فآهلها عبيد للفاتحين وإن لم يستجيبوا، فالرب يأمرهم بأن يحاصروها "ويضربوا جميع ذكورها بحد السيف" أما باقى السكان والبهائم فهم غنيمة لهم، كما أمرهم الرب بألا يبقوا على نسمة فى مدن الحيثيين والكنعانيين.

وكذلك فإن الإنجيل المتداول بين النصارى، يأمر المسيح فيه أتباعه بالحرب كما سبق القول، فقد قال لهم أنه ما جاء ليلقى سلاما وإنما جاء ليلقى سيفا. فأهداف القتال كما ترى عند أصحاب هاتين الديانتين غيرهما عند المسلمين، وهى فى الإسلام بغرض الدفاع، وفى غير الإسلام بغرض السيادة والتسلط والاستعباد، ورغم ذلك لم يسلم الإسلام من الطعن والتشكيك فى أهداف ما شرع من جهاد. [١]

وقد أعطى هذا الجهاد للمسلمين–بجانب ما ذكرنا من أهداف صفة سياسية لم يتمتعوا بها من قبل، ذلك أنه اعتبرهم أمة، وعلى هذه الأمة أن تذود عن الإسلام والمسلمين وتحدد علاقاتها بالآخرين، وبذلك اكتملت الصفات التى لابد أن تتوافر لقيام أى دولة. فهناك جماعة أو أمة المسلمين وغيرهم فى المدينة، على رأسها حكومة من النبىﷺ وكبار الصحابة تعيش على أرض محددة أو وطن خاص بها هو المدينة ولها قانون يحكم وهو كتاب الله وسنة نبيه، ولها نظامها الداخلى الذى نظمته الصحيفة ولها أيضاً سياستها الخارجية التى أشارت إليها آيات الجهاد فى القرآن. وقد حددت هذه الآيات موقف النبىﷺ من قريش وغيرها من القبائل والأمم، ورسمت سياسة النبىﷺ فى التعامل معها بقصد نشر الإسلام والقضاء على الوثنية. وبذلك نصل إلى النقطة الثانية فى حديثنا عن الدور المدنى، وهو موقف النبىﷺ من قريش بمكة.[٢]

٢–موقف النبى من قريش وقبائل بلاد الحجاز:

من هذا المنطق بدأ الرسول ﷺ يعد العدة لنشر الإسلام بين القبائل العربية وصد أى اعتداء يقع على المسلمين، واسترجاع حقوقهم فى مكة. وكان هؤلاء قد تركوا أموالهم وأراضيهم ودورهم، فتصرف فيها مشركو مكة دون وجه حق، ولتحقيق ذلك وجه الرسول ﷺ جهوده لاستمالة القبائل المقيمة

---

[١] عبد العزيز سالم : تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٨٦.

[٢] رشيد عبد الله الجميلى: تاريخ العرب، مطبعة الرصافى، الطبعة الثانية، بغداد، ١٩٧٦م، ص٢٨٩.

على الطريق ؛

تمر فى ذلك الطريق، وكان الرسول يعرف مدى حرص القرشيين على تجارتهم وعلى توفير الأمان والطمأنينة للطرق التى تمر بها، فهى مصدر ثروتهم ورزقهم الوحيد. لذلك كان نجاح الرسولﷺ فى هذا المضمار كبيرا. وانتقل الرسول بعد ذلك إلى نشاط إيجابى أكثر حقق له أهدافه فى النهاية، فتلاقى مع قريش فى عدة مواقع أشهرها موقعة بدر وأحد، والخندق وصالحها فيما يعرف بصلح الحديبية ولما نقضته قريش زحف الرسول ﷺ إليها فى عشرة آلاف من المسلمين وانتهى الأمر بفتح مكة وإسلام أهلها عام ٨هـ. وعلينا أن ندرس تلك الأحداث فى شئ من التفصيل

الفصـل الثانـي

الصراع بين مكة والمدينة

- غزوة بدر سنة ٢هـ.
- غزوة أحد سنة ٣هـ.
- غزوة الأحزاب (الخندق) ٥هـ .
- صلح الحديبية سنة ٦هـ.
- غزوة مؤته ٨هـ.
- فتح مكة ٨هـ.
- غزوة حنين والطائف ٨هـ.
- غزوة تابوك سنة ٩هـ
- عام الوفود ٩هـ
- حجة الوداع سنة ١٠هـ.

غزوات الرسول ﷺ

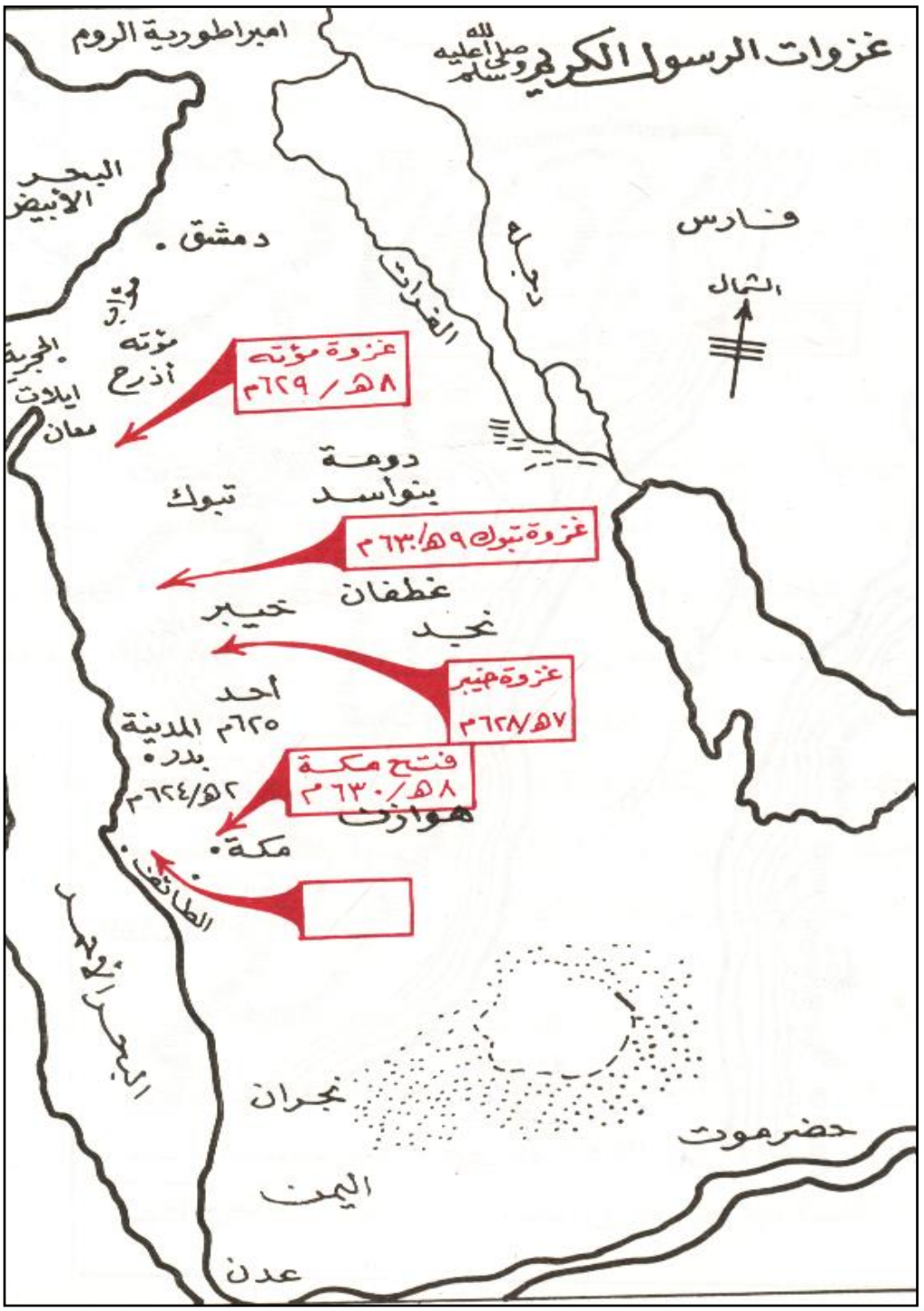

الفصل الثالث

الصراع بين مكة والمدينة

غزوة بدر: (١٧ رمضان ٢هـ/١٤ مارس ٦٢٤م):

سبق تلك الغزوة بشهرين سرية أرسلها الرسول ﷺ فى شهر رجب من السنة الثانية للهجرة، تضم ثمانية من المهاجرين، وعلى رأسها عبد الله بن جحش وأمره أن يتبع تعليماته فى كتاب أمره ألا يفضه إلا بعد مسيرة يومين وكانت هذه التعليمات تقضى أن تنزل تلك السرية فى مكان يسمى نخلة بين مكة والطائف، وأن ترصد أخبار قريش. (١)

نفذت السرية ما طلب منها لكنها تجاوزت، إذ هاجمت قافلة صغيرة لقريش كانت تضم ثلاثة رجال من قريش ورابعا يمنيا، فقتلت اليمنى وأسرت رجلين وفر الرابع، وعادت بالأسرى والعير إلى المدينة. لكن الرسول ﷺ امتنع عن أخذ الغنيمة والأسرى لأن ابن جحش خالف أوامره وقاتل فى الشهر الحرام. وانتهز اليهود تلك الفرصة وشنعوا على المسلمين كما انتهزتها أيضا قريش، وأعلنت على القبائل أن محمداً استحل الدم الحرام فى الشهر الحرام، فأسقط فى يدى ابن جحش وأصحابه. لكن الله أنزل قرآناً يجيز ما فعله ابن جحش، فقال تعالى فى سورة البقرة " ④□○⇔★♦❑🖬➔♦☼🖮🖂 ✌🖃🖃 ✂🖃♦☜🕭🔔 🕭✈✂♦❷🖂⬧🖃✂ 🏴❷⬀🕭⊙☆🖃✂ ♦Ⅱ⬑ ✂🖃♦☜🕭🔔 ☎ ➔🔔⬀✍ ☎ 🕭○⑩🕭▫ ✌🖃♦☜🕭🔔 ➘❸❷🕭⌧🖃 ✂🖃♦☜🕭🔔 ☎ 🕭○⑩🕭▫ 🖮❷⬧🖃➔🖹◆❒ ⑨❁🕒◆❒ ★🖉✂ ✍🖃⓿🕭⌧🖂 Ⅱ♦⬑ 🖫⑨❁🕒◆❒ 🕭✈✂♦❷🖂⬧🖃✂ 🕭⑨⬀↗⇔○🖂☺⬧🖃✂◆❒ 🕒🕭○🕭 ←●✂♦❷⬃⌘🕭◑◆❒ ←○⬃✡🕭 🕒🕭🕮🕭✂⬃🕭❒🕮 ←❸♦🖃⬧🖃⑨✡🕭⬑ 🖃❒🖃🖃⬧🖃 ✂ ★" البقرة "آية ٢١٧" تلى ذلك فى شهر رمضان أن ندب الرسول ﷺ نفراً من المسلمين للوقوف على أخبار قافلة لقريش يقودها أبو سفيان بن حرب بن أمية، وكانت قادمة من الشام إلى مكة، وكان هذا هو السبب المباشر لغزوة بدر الكبرى. (٢)

ذلك أن أبا سفيان أرسل إلى قريش يخبرها بتعرض المسلمين لتجارتها وفى نفس الوقت اتخذ أبو سفيان لقافلته طريقاً آخر على ساحل البحر حتى نجا بها، وأرسل إلى قريش يخبرها بذلك ويطلب منها العودة إلى مكة وكانت قريش قد تملكها الغضب من المسلمين واشتد بها الخوف على تجارتها

---

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى، ج١، ص ١٠٥.

(٢) انظر تاريخ خليفة بن خياط، ص٦٣؛ ابن هشام: السيرة، ج١، ص ٦٠٤-٦٠٤؛ الطبرى: تاريخ الأمم، ج٢، ص ٤١٣-٤١٤؛ عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ١٠٣-١٠٤.

وخافت أن تلاقى مصير القافلة السابقة، لذلك أرادت أن تظهر لمحمد مدى قوتها، فزحفت فى جيش يبلغ عدده ما بين التسعمائة والألف، بينما كان الرسولﷺ ومن معه من المهاجرين والأنصار فى عدد قليل لا يزيد عن ثلاثمائة وخمس رجال.

عقد الرسولﷺ مجلس الحرب لأخذ الرأى والمشورة، لأنه أراد أن يستوثق من الأنصار وكان قد عاهدهم على الدفاع عنه داخل بلدهم يثرب وفى هذا المجلس أيد الأنصار خطته فى حرب قريش والتصدى لعدوانها وقالوا له فيما قالوا: "لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد". عندئذ تقدم الرسول وجيشه ونزل عند ماء من بدر، فأشار عليه أحد الصحابة "الحباب بن المنذر" فنفذ الرسول مشورته، وأمطرت السماء فى تلك الليلة مطراً غزيراً ناحية معسكر قريش، فأعاقت خيلهم عن سرعة الحركة، ورذاذا خفيفاً ناحية معسكر المسلمين، فساعدت إبلهم على سرعة التحرك، وأصاب المسلمين النعاس ليلة المعركة فأصبحوا فى أتم نشاط وعافية، بينما باتت قريش قلقة ساهرة: وكان النظام يسود جيش المسلمين الذى كانت قيادته العليا لشخص واحد هو النبى ﷺ، بينما لم تتوافر هذه الميزة الهامة لجيش قريش، فلم تكن له قيادة عليا موحدة بعد أن ظهر الخلاف بين زعماء قريش في مكة بعد أن نجحت قافلتها وأموالها، بينما كان أبو جهل يصر على الزحف حتى بدر كى يسمع العرب بذلك فيزدادون لقريش هيبة ووقارا، وقد حاول عتبة بن ربيعة أحد سادة قريش ان يثنى أبا جهل عن موقعه ويعود بقريش إلى مكة كما أشار بذلك أبو سفيان، وخاصة بعد أن سمع عتبة ما قاله عمير بن وهب الجمحى عن المسلمين الذين كان قد اقترب منهم ليتعرف على استعدادهم وعددهم، من أنهم "البلايا تحمل المنايا، نواضح (إبل) يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم إلخ". وكان عتبه وغيره من زعماء قريش يخشون إلى جانب تصميم المسلمين على القتال والدفاع عن دينهم وأنفسهم، غدر بنى بكر (من كنانة) وأن يهاجمهم هؤلاء من خلفهم إذا ما اشتبكوا مع المسلمين انتقاماً لدماء وثارات كانت بينهم وبين بنى بكر قبل بدر، ولكن أبا جهل رفض ذلك كله وأثار عتبة واتهمه بأنه ما يقول ذلك إلا لأنه يخاف على ابنه أبى حذيفة الذى كان بالتأكيد ضمن جيش المسلمين. [1]

---

[1] أحمد إبراهيم الشريف: الدولة الإسلامية الأولى، ص ١١٠، ١١١؛ عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ١٠٧.

ونتج عن هذا الخلاف فى الرأى الذى ساد زعماء قريش أن عادت بعض القبائل إلى مكة دون أن تشترك فى قتال المسلمين. مثال ذلك بنو زهرة وبنو عدى بن كعب. هذا فى الوقت الذى كان المسلمون يشتعلون حماساً وفدائية وشوقاً إلى لقاء العدد حتى إنهم قالوا للنبى ﷺ: "والله لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا، إنا لصبر فى الحرب، صدق فى اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك".

وقد صدق المسلمون فى ذلك كل الصدق، فكانوا يندفعون إلى القتال طلباً للشهادة والجنة، فقد رمى عمير بن الحمام، أخو بنى سلمة ببضع تمرات كان يأكلها وأخذ سيفه وقاتل حتى قتل بعد أن سمع من النبى ﷺ أنه ليس بين الجنة وبين النار إلا الشهادة. كما نزع عوف بن الحارث بن عفراء درعا كان يلبسها عندما سمع من النبى ﷺ أن الله يضحك من عبده سروراً به عندما يغمس يده فى العدد حاصراً، وقاتل حتى قتل. (١)

وقد بلغت حماسة المسلمين وإخلاصهم لله ولرسوله أن كان بعضهم يتعرض لأقرب الناس إليه فلا يتردد فى قتله. من ذلك أن عمر بن الخطاب قتل بيده خاله العاص بن هشام بن المغير، وقتل على بن أبى طالب رضي الله عنه وحمزة بن عبد المطلب كثيراً من بنى عمومتها من بنى عبد شمس وبنى أمية، وغيرهم من أقرب الناس إليهم، فقتل على بن أبى طالب رضي الله عنه على سبيل المثال نوفل بن خويلد، أخو خديجة وخال فاطمة الزهراء رضى الله عنهما، ولما صاح به نوفل أن يكف عنه لأنه أخو خديجة وخال فاطمة قال له على: لا قرابة بين مشرك ومسلم وقتل أبو عبيدة بن الجراح أباه فى غزوة بدر، وقال له وهو يطعنه: خذها فى سبيل الله، بعد أن رأى أبو عبيدة حرص والده على قتله، ونادى أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ابن عبد شمس أباه للخروج لمبارزته، ولما قتل أبوه خلال المعركة ووجده النبى كئيباً حزينا قد تغير لونه، فسأله عما إذا كان هذا الحزن بسبب مقتل أبيه، نفى أبو حذيفة ذلك وقال للنبى ﷺ إنه كان يرجو أن يهدى الله أباه للإسلام، وأنه لم يحزن إلا لموته على الكفر. (٢)

كما طلب عبد الله بن عبد الله بن أبى سلول من النبى أن يسمح له بأن يقتل أباه بعد أن عرض بالنبى ﷺ وأظهر نفاقه فى غزوة بنى المصطلق ولكن النبى ﷺ رفض وقال له. "بر أباك وأحسن صحبته".

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٢، ص١٩.

(٢) ابن هشام: السيرة، ج٣، ص ٢٠١-٢٠٢.

تضحية وفداء وإيثار وفدائية وحب وإخلاص تام لله ورسوله، دعمه مدد السماء من تأييد الله لهم بالملائكة، يبين ذلك قوله تعالى: " ". الأنفال آية ١٣.

وكانت إرادة الله أن يتم اللقاء، فقلل عدد الكفار فى أعين المسلمين، وقلل عدد المسلمين فى أعين الكفار وقد تحققت هذه الإرادة واشتبك الفريقان فى معركة طاحنة انتصر فيها المسلمون رغم قلة عددهم وأسروا سبعين من رجالات قريش وقتلوا سبعين آخرين، من بينهم بعض رءوس الكفر مثل أبوجهل وأمية بن خلف وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة أخو هند زوجة أبى سفيان، أما أبو لهب فقد مات غما وكمدا بعد أن سمع بنتيجة المعركة وغنم المسلمون كثيراً من الإبل والخيل والسلاح، ولم يستشهد منهم سوى أربعة عشر فقط. (١)

وكان لهذا الانتصار فى هذه المعركة نتائج هامة: دينية وسياسية ومعنوية ومادية وحربية أما النتائج الدينية والسياسية، فتتمثل فى دخول كثير من المشركين فى الإسلام.

---

(١) ابن كثير: السيرة النبوية، ج٢، ص٢١٠.

ومن النتائج السياسية الهامة إصابة اليهود بضربة قاصمة، فقد ضعفت شوكتهم وقل شأن أنصارهم من المنافقين، وعلت كلمة المسلمين حتى أصبحت لديهم القدرة على معاملة هذا الخطر الداخلى إذا ماكشر عن أنيابه وأظهر عدوانه وحقده، وبالنسبة لقريش فقد أصبحت تخاف كساد تجارتها أكثر من ذى قبل بعد أن انتصر المسلمون وأصبحوا قوة لها بأسها وخطرها، ولذلك اضطرت قوافلها بعد بدر أن تسلك طريق مكة- العراق البعيد عن يثرب وتهجر طريق مكة-الشام الذى أصبح المسلمون يهددونه تهديداً قوياً. ورغم لجوئهم إلى الطريق الجديد إلا أن المسلمين لاحقوهم فيما يعرف بغزوة القردة فى جمادى الآخرة عام ٣هـ/ديسمبر ٦٢٤م حيث هوجمت قافلة لقريش، غنم المسلمون منها مغانم طائلة، وبذلك عز الإسلام وزادت قوته كثيراً عن ذى قبل. [١]

وتتمثل النتائج المعنوية والعسكرية فى أن المسلمين ازدادت ثقتهم بأنهم على الحق، وأن خصمهم على الباطل، وزادهم هذا يقينا وثباتاً على دينهم، واندفاعاً واستجابة لأوامر رسول الله ﷺ فى التصدى لقريش ومن لف لفيفها من المشركين. فنرى الرسول لم يمكث فى المدينة بعد غزوة بدر أكثر من سبع ليال حتى غزا بنفسه بنى سليم فيما يعرف بغزوة قرارة الكور فى شوال ٢هـ/٦٢٤م، وكان بنو سليم وغطفان قد تجمعوا يريدون المدينة. ثم لاحق النبى ﷺأبا سفيان بن حرب فيما يعرف بغزوة السويق فى ذى الحجة من نفس العام نظراً لاعتداء أبى سفيان على بعض المسلمين وقيامه بقتلهم ظلما، ثم غزا النبى ﷺ نجدا يريد غطفان فيما يعرف بغزوة ذى أمر فى شهر ربيع الأول عام ٥٣هـ / سبتمبر سنة ٦٢٤م وكانت غطفان قد تجمعت للإغارة على أطراف المدينة. ثم خرج إلى قريش وبنى سليم فى شهر ربيع الآخر وجمادى الأولى من نفس العام فيما يعرف بغزوة الفرع بين بحران بالحجاز.

أما النتائج المادية فتتمثل فى حصول المسلمين على كثير من الأموال والسلاح والخيل والأسرى، وهى الغنائم التى عادوا بها واختلفوا فى توزيعها، فنزلت آيات القرآن توضح عليهم وتشرع لهم.

وبذلك نصل إلى النتائج التشريعية، وقد نزلت فى الغنائم هذه الآية فى سورة الأنفال:

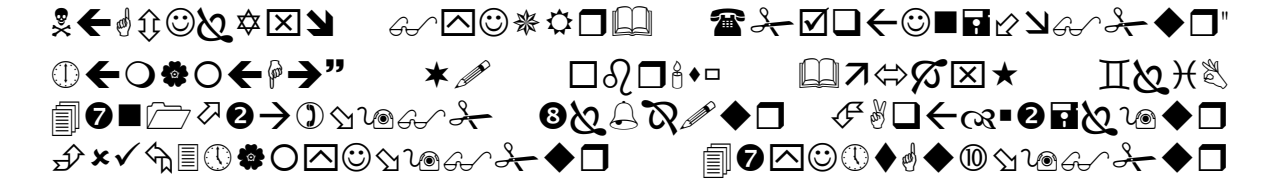

[١] الطبرى: تاريخ الأمم، ج٢، ص٤٤٧-٤٤٩.

". الأنفال آية ٤١.

أما الأسرى، فقد قتل بعضهم من شديدى العداوة للرسول مثل النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط، وقبل الرسول الفدية من البعض الآخر، ومن الرسول على البعض الآخر وأطلق سراحه دون فداء بسبب فقرهم، وكلف البعض ممن يجيد الكتابة بتعليمها لأولاد المسلمين نظير إطلاق سراحهم. وقد عاتب الله نبيه بقوله فى سورة الأنفال: "

" الانفال آية ٦٨ فأدرك النبىﷺ أنه كان لابد من قتل جميع الأسرى، وكان عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ قد أشارا بذلك فقال النبى ﷺ"والله لو نزل بنا عذاب ما نجا منه إلا عمر وسعد بن معاذ "وأوضح أن الهدف من قتل جميع الأسرى هو إرهاب المشركين حتى لا يفكروا فى العدوان على المسلمين مرة أخرى. [(١)]

ولما عز الإسلام وقويت شوكة المسلمين، نزلت آية أخرى فى شأن الأسرى تقضى بالمن عليهم وإطلاق سراحهم أو أخذ الفدية منهم دون قتلهم، فقال تعالى فى سورة محمد: "

محمد آية ٤وغير تلك النتائج، هناك الدروس المستفادة من مواقف الرسول قبل المعركة وأثناءها مثل عقده مجلساً

---

(١) ابن الأثير : الكامل، ج٢، ص٨٤.

للتشاور مع أصحابه ورجاله ثم قبوله رأى الحباب بن المنذر وهذا يدل على ديمقراطية حقيقية، وعلى حب الاستفادة من جميع الآراء مهما كان أصحابها من أبسط الناس. وهناك أيضاً قيامه صلى الله وعليه وسلم بضرب المثل لجنوده فى الشجاعة و الإقدام فلم يتوان لحظة عن مباشرة القتال بنفسه حتى كان أشجع الشجعان، وكان المسلمون يحتمون به إذا ما اشتد عليهم القتال وأصابهم اليأس، فما يكون أحد أقرب إلى المشركين منه. (١)

وبعد انتهاء المعركة لم يكن هناك من هو أرق قلبا وأشد رحمة بالأسرى منه. فقد مال إلى الرأى الذى أشار بعدم قتلهم وقبول الفداء منهم والمن على فقرائهم. وكان يوصى أصحابه بهم بعد أن وزعهم عليهم حتى إن بعض الصحابة كانوا يخصون الأسرى بالخبز ويأكلون هم التمر. ولما أشار عليه عمر بن الخطاب بأن يسمح له بأن يقوم وينتزع ثنيتى سهيل بن عمرو السفليتين حتى لا يقوم خطيبا بعد ذلك ويحرض الناس على النبىﷺ والمسلمين رفض النبىﷺ ذلك وقال لعمر: "لا أمثل به فيمثل الله بى وإن كنت نبيا" وأنه ربما يقوم مقاما يحمده له المسلمون.

وكانت النتيجة بالنسبة لقريش فادحة، ذلك أنها عادت تجر أذيال الخيبة والعار، وبلغ من حقدها على النبىﷺ أنها رصدت جميع أموال تلك القافلة لحربه والقضاء على دعوته، وتهيأت بذلك للجولة الثانية التى وقعت عند جبل أحد.

دور الاستخبارات فى غزوة بدر:

عندما علم الرسولﷺ القائد بقافلة أبى سفيان قائد جيش المكيين التى تحمل تجارة قريش إلى الشام أمر سرية من جيش المسلمين بالخروج إليهم لعلهم يحوزونها غنيمة. (٢)

فلما اقتربوا من مكان يسمى "الصفراء" بعثوا جنديين هما بسيس بن عمرو وعدى بن الرعباء إلى "ماء بدر" يستطلعان أخبار القافلة وبينما هما كذلك إذ بجارية تطالب أخرى بدين عليها فتجيبها صاحبتها، أن سوف تعطيها الذى لها عندما تأتى القافلة غد أو بعد الغد فتعمل لهم وتأجر منهم.

فيسرع الجنديان إلى الرسولﷺ ويخبرونه بيوم قدوم القافلة وعندما قارب الجمعان بدراً وتسابقاً إلى الماء بعث الرسولﷺ علياً ابن أبى طالب، وسعداً والزبير إلى بدر يتجسسون فجائوا بعبدين لقريش فسألهما عن مكان الجيش فقالا وراء هذا الكثيب ثم قال لهما كم القوم؟ فقالا: لا علم لنا، فقال: كم

---

(١) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٨م، ج١، ص ١٦١.

(٢) الطبرى: تاريخ الأمم، ج٢، ص٤٣٥.

يذبحون كل يوم من الإبل. فقالا: يوماً عشراً ويوماً تسعاً، فقال الرسولﷺ جيش الأعداء ما بين التسعمائة والألف ثم قال لهما: فمن فيهم من رجالات قريش فذكروا لهو مجموعة من الرجال الأشداء منهم عتبة بن ربيعة، وأبو البخترى بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلدن وأبو جهل بن هشام، وأمى بن خلف، وسهل بن عمرو، وعمرو بن ودة، وغيرهم، فقال الرسولﷺ رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها.[1]

لقد ظهرت فائدة استنطاق الأسرى قبل المعركة فى معرفة عدد قوات قريش، كما استنتج أبو سفيان بن حرب من فحصة روث ركائب المسلمين الذين استطلعوا موقع بدر ومعرفة هويتهمان كان كل طرف متشبس فى الحصول على المعلومات فقد استفاد المسلمون من المعلومات التى حصلوا عليها بالإسراع إلى ماء بدر وحوذته خلفهم الأمر الذى جعل قوة قريش محرومة من الماء يوم القتال وبذلك عجلت هزيمتهم.

أسباب انتصار المسلمين على قريش:

١- القيادة الموحدة فى المعركة.
٢- التعبئة الجيدة التى طبقها الرسول ﷺ، ولا تختلف كثيراً عن التعبئة الحديثة فى حروب الصحراء إذ كان لهم مقدمة ومؤخرة واستفاد من دوريات الاستطلاع، واستخدام أسلوب الصفوف فى القتال.
٣- العقيدة الراسخة لدى المسلمين حيث كان هدفهم إما النصر أو الشهادة.
٤- أن الله أمد المسلمين بالملائكة تقاتل معهم.
٥- المعنويات العالية لدى المسلمين حيث شجع الرسولﷺ أصحابه قبل القتال ورفع من معنوياتهم.

نتائج غزوة بدر:

١- تهديد طرق تجارة قريش والتى كانت عصب حياتهم.
٢- أضعفت هيبة مكة ونفوذها على العرب.
٣- زادت فى قوة الإسلام وعززت الدولة الإسلامية فى المدينة.
٤- دخول كثير من أهل المدينة فى الإسلام.
٥- إزدياد التضامن بين المهاجرين والأنصار.
٦- تشريع خمس الغنائم مما دعم بيت المال فى الإسلام.

---

[1] محمد عبد الحليم أبو غزالة: الانتصارات الكبرى فى صدر الإسلام، مؤسسة الشعب، القاهرة، ١٩٨٣م، ص ٦٨.

٧- مقتل سبعين من المشركين من بينهم أبو جهل وأمية بن خلف.
٨- أسر سبعين من المشركين.
٩- استشهاد أربعة عشر من المسلمين.

يستفاد من غزوة بدر أن النصر ليس بالكثرة وأن الصبر والثبات يؤدى إلى النصر كما يستفاد أن الشورى واجبة فى التخطيط فى الحروب.

غزوة بدر ٢هـ

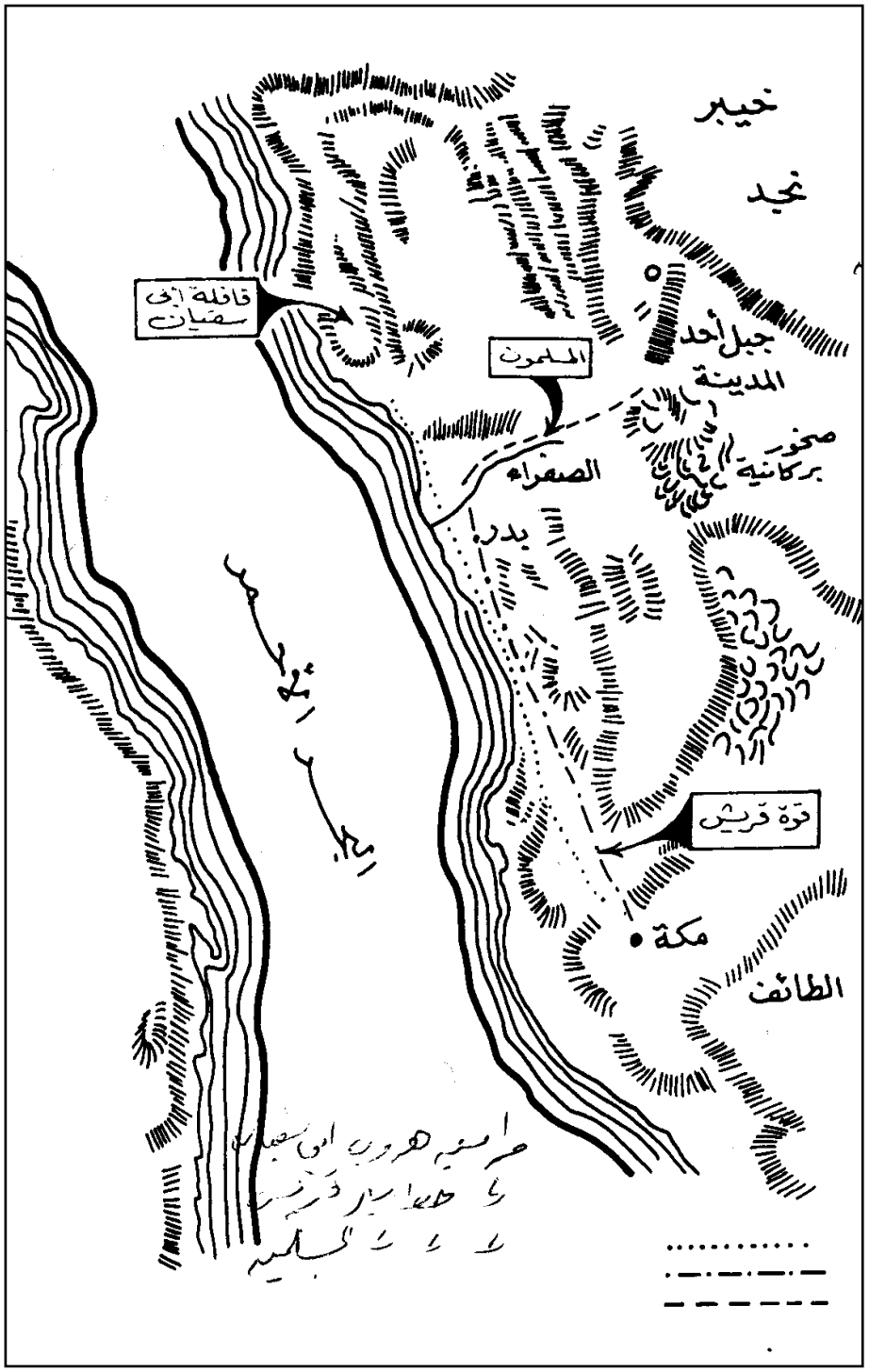
خيبر
نجد
قافلة أبي سفيان
المسلمون
جبل أحد
المدينة
الصفراء
بدر
البحر الأحمر
قوة قريش
مكة
الطائف

٢-غزوة أُحد: (شوال ٣هـ/مارس ٦٢٥م).

استعدت قريش طوال عام كامل لتلك الموقعة، وعبأت قواتها واستعانت بحلفائها من ثقيف وتهامة وكنانة وبالأحابيش، ولما أتمت استعدادها خرجت فى ثلاثة آلاف مقاتل بين فارس وراجل بقيادة أبى سفيان بن حرب بن أمية، وزحفت نحو المدينة وعسكرت فى وادى يطل عليه جبل أحد شمالى المدينة، وزحف المسلمون إليهم فى نحو ألف مقاتل من الأنصار والمهاجرين، وانتصر المسلمون فى بداية المعركة لكن الرماة خالفوا أوامر الرسولﷺ بالبقاء فى أماكنهم بالجبل ليحموا ظهور المسلمين ونزلوا ميدان المعركة لجمع الغنائم والأسلاب، ظنا منهم أن المعركة قد انتهت ، فكر المشركون على المسلمين وطوقوهم. وكان خالد بن الوليد قد استطاع أن يتسلل خلف المسلمين بفرسانه، فزلزل المسلمون ووقعوا بين قتيل وجريح ومهزوم، وجرح النبى نفسه وكاد يقتل، وهكذا انتهت هذه المعركة بهزيمة المسلمين[١]، **وترجع هذه الهزيمة إلى عوامل عدة:**

١-الاختلاف الذى وقع بين صفوف المسلمين منذ اللحظة التى علموا فيها بزحف قريش وحلفائها نحوهم. فالرسول ومعه كبار الصحابة كان ير إزاء كثرة عدد جيش قريش ألا يغامر بلقائها فى أرض مكشوفة، وفضل أن يتحصن فى المدينة ذات الأزقة الضيقة والحصانة الطبيعية، مما يسهل الدفاع عنها ويمكن المسلمين جميعا رجالا ونساء وكهولا من الاشتراك فى المعركة، وكان هذا أيضا رأى كبير المنافقين عبد الله بن أبى بن سلول، لكن جمهرة المسلمين وخاصة الشباب المتحمس منهم رفضوا تلك الخطة ونادوا بضرورة الخروج للعدو حتى لا تظن قريش أن المسلمين جبنوا عن لقائها وحتى ينال الشهادة من لم ينلها فى بدر. ونفذ الرسولﷺ راى الأغلبية وخرج للقتال.

وقد أحس بعض المسلمين أنهم بذلك قد استكرهوا النبىﷺ على الخروج ولم يكن لهم ذلك، فخاطبوه وطلبوا منه القعود، ولكنه قال لهم: "لا ينبغى لنبى إذا لبس لأمته (أى لباس الحرب) أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه، فانظروا ما أمرتكم به فافعلوه وامضوا على اسم الله فلكم النصر ما صبرتم". [٢]

---

[١] الطبرى: تاريخ الأمم، ج٢، ص٤٤٩؛ ابن كثير: السيرة النيوية، ج٣، ص٩.

[٢] أحمد إبراهيم الشريف: الدولة الإسلامية الأولى، ص ١٣٢، عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ١١٥-١١٧.

٢-انسحاب عبد الله بن أبى بن سلول ومعه حوالى ثلث الجيش الإسلامى قبل أن يصل إلى ميدان المعركة، وعودته إلى المدينة مدعيا أن النبى أطاع الشباب وخالف مشورته وهو سيد القوم، وزاعما أنه لن يحدث قتال بين محمد وقريش وكما نعلم فقد كان هذا الرجل مرشحا للرياسة أو الملك فى المدينة قبيل الهجرة النبوية، فلما هاجر الرسولﷺ إليها فوت عليه هذه الفرصة، فاعتنق عبد الله الإسلام على دغل فى قلبه وأصبح كبير المنافقين فى المدينة، وانتهز الفرصة وأراد أن يصفى حسابه ويثأر لنفسه، فانسحب مع كثير من المنافقين ومن لم يثبت الإيمان فى قلوبهم.

وفت ذلك فى عضد المسلمين خاصة وأن عدد الجند الدراعين وحدهم فى جيش المشركين كان لا يقل عن سبعمائه، بينما كان عددهم فى جيش المسلمين لا يزيد عن مائة دارع، كما أن عدد خيل المشركين كان مائتين، يضاف إليهم ثلاثة آلاف بعير، بينما كان عدد خيل المسلمين لا يزيد عن فرسين وعدد قليل من البعير يتناسب مع قلة عدد جندهم الذين تناقصوا كثيراً بانسحاب عبد الله بن أبى ومن معه من المنافقين. (١)

وقد صور القرآن الكريم موقف هؤلاء المنافقين فى قوله تعالى: "وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين. وليعلم الذين نافقوا، وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا، قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان، يقولون بأفواهم ما ليس فى قلوبهم، والله أعلم بما يكتمون الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا، قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين".

٣-مخالفة رماة المسلمين لأوامر النبىﷺ. وكان النبىﷺ قد جعل الجبل خلف ظهور المسلمين ليحميهم، ووضع فوق هذا الجبل خمسين من الرماة ليمنعوا العدو من تطويق جيش المسلمين، وأمر هؤلاء الرماة ألا يتركوا مواقعهم سواء انتصر المسلمون أم انهزموا، وعين عليهم عبد الله ابن جبير قائداً لهم وأوصاه بذلك. لكنهم خالفوا تلك الأوامر كما سبقت الإشارة وأتاحوا الفرصة لخالد بن الوليد أن يأتى المسلمين من خلف ظهورهم، فدارت الدائرة عليهم وانهزم المسلمون بسبب ذلك وقتل سبعون منهم، من بينهم حمزة عم النبى، وقد مثل المشركون بجثته وجثث كثير من الشهداء، بينما لم يقتل من المشركين غير ثلاثة وعشرين فقط، وقد أشار القرآن الكريم إلى ما حدث من مخالفة الرماة لأوامر الرسولﷺ بقوله تعالى "❐◆۞♦☽♦۞⑨۞ ۞⑨♦⌛۞→✈✂✍✦

(١) الطبرى: تاريخ الأمم، ج٢، ص ٥٠٧-٥٠٨

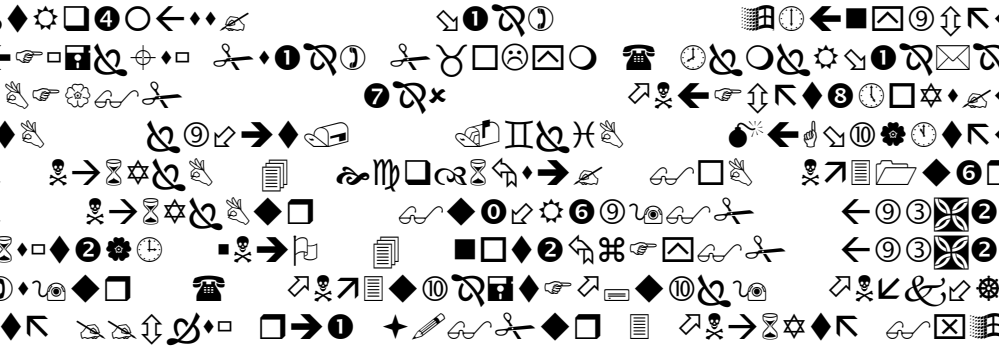

٤-وجود بعض المقاتلين فى جيش المسلمين ممن لم يكونوا قد فهموا الإسلام فهما حقيقياً، فقد صرحوا بأنهم إنما يقاتلون دفاعا عن أحسابهم وشرف قومهم، فهم يقاتلون عصبية، وقد نهى الإسلام عن ذلك، وكانوا يتصرفون أثناء المعركة حسبما تقتضيه الظروف، فإذا سنحت لهم الفرصة السبق لإحراز الغنائم لم يفلتوها، وإذا سنحت لهم فرصة التقدم الشجاع تقدموا وقاتلوا ببطولة، مثال ذلك رجل يدعى قزمان قاتل قتالاً شديداً يوم أحد، حتى إنه قتل وحده ثمانية أو سبعة من المشركين.

ولما أصيب وحمل قيل له أبشر ياقزمان، قال: بماذا أبشر! فو الله ما قاتلت إلا عن أحساب قومى، ولولا ذلك لما فعلت. ولما اشتد عليه الألم انتزع سهما من كنانته فقتل به نفسه تخلصاً من هذا الألم، وبذلك كان النبىﷺ يقول عنه إنه من أهل النار. [١]

لهذه الأسباب فازت قريش فى أحد وانسحب الرسول من ميدان المعركة، وعسكر عند مكان يسمى حمراء الأسد على بعد ثمانية أميال من المدينة لمنع قريش إذا ما فكرت فى العودة كى تأخذ المسلمين على غرة وارسل على بن أبى طالبﷺ يتحسس أخبارهم ويرى إن كانوا عائدين إلى مكة أم راجعين إلى المسلمين من جديد، وكان أبوسفيان يريد استئناف القتال حتى يقضى على البقية الباقية من المسلمين، ولم يمنعه من ذلك إلا ما سمعه من رجل كان على الشرك يسمى معبد بن أبى معبد الخزاعى-وكان مواليا هو وقومه للنبىﷺ-من أن محمدا صار فى جمع كثيف بعد أن عاد إليه من كان قد تخلف عنه يوم أحد، حيلة من هذا الرجل فى إبعاد أبى سفيان عن تهديد المسلمين من جديد، ولذلك اكتفت قريش بما أصابته من نصر وعادت إلى مكة مزهوة بانتصارها وكانت هذه الهزيمة درسا استوعبه المسلمون وعرفوا منه نتيجة مخالفة الرسول وخطورة الاستعانة بالمنافقين فى مثل هذه الأمور

---

[١] ابن كثير: السيرة النبوية، ج٣، ص ٣٨.

المصيرية. وقد أنزل الله بعض آيات من القرآن لتعزية المسلمين فيما أصابهم فى أحد، فيقول تعالى فى سورة آل عمران: "[illegible] آل عمران آية ١٤٠.

ولم تكن هزيمة المسلمين على هذا النحو إلا تمحيصا لهم واختبارا لمدى إيمانهم وصدقهم وتمييز للمؤمنين من المنافقين، كما أنها أبانت عن جوانب مشرقة ومواقف غاية فى البطولة والفداء وحب لله ورسوله. (١)

من ذلك ما رواه ابن اسحاق عن امرأة من بنى دينار استشهد زوجها وأخوها وأبوها فى أحد، فلما عرفت باستشهادهم لم تجزع وإنما قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا لها: خيرا، هو بحمد الله كما تحبين، ولم يطمئن قلبها حتى رأته بنفسها. (٢)

ومن ذلك أيضاً موقف أم عمارة، نسيبة بنت كعب المازينية التى قاتلت عن الرسول بالسيف ورمت عنه بالقوس حتى جرحت وهناك، زياد بن السكن وزملاؤه الأربعة من الأنصار الذين قاتلوا عن الرسول حتى قتلوا. أما أبو دجانة الأنصارى فقد جعل نفسه درعا أو ترسا لرسول الله يحميه من نبال المشركين وانحنى على رسول الله حتى كثرت النبال فى ظهره.

أما أنس بن النضر، عم أنس بن مالك فإنه لم يملك نفسه عندما سمع زعم المشركين بقتلهم لرسول الله فحمل سيفه واستقبل القوم وقاتلهم حتى قتل. وعمرو بن الجموح الذى كان أعرج شديد العرج، وكان أبناؤه الأربعة منعوه من الخروج مع رسول الله ﷺ فى أحد، فاشتكاهم للنبى ﷺ مستأذناً فى الخروج معه قائلاً له: "فوالله إنى لأرجو أن أطأ بعرجتى هذه فى الجنة، فسمح له النبى ﷺ بالخروج، فقاتل حتى رزق الشهادة، وعمر بن الخطاب الذى قال لأخيه زيد: خذ درعى، فقال له زيد: إنى أريد الشهادة مثلما تريدها، فتركا الدرع معا.

---

(١) ابن الأثير : الكامل، ج٢، ص١٠٣-١٠٤.

(٢) تاريخ خليفة بن خياط، ص ٧٤-٧٦؛ ابن كثير: السيرة النبوية، ج٣، ص ٦٢-٦٧.

وقد شد الإسلام بعض المشركين إليه أثناء المعركة نفسها. فقد اندفع الأصيرم عمرو بن ثابت بن وقش، من بنى عبد الأشهل، بين المسلمين فى أحد، وقاتل معهم حتى كثرت جراحه، ولما عرفه الناس سألوه "ما جاء بك عمرو؟ أحدب على قومك أم رغبة فى الإسلام؟ قال بل رغبة فى الإسلام، آمنت بالله ورسوله وأسلمت، ثم أخذت سيفى فغدوت مع رسول الله ﷺ، ثم قاتلت حتى أصابنى ما أصابنى" ثم لم يلبث أن مات فى أيديهم. ولما ذكروا أمره للنبى ﷺ قال: "إنه لمن أهل الجنة"، رغم أنه لم يكن قد أدى صلاة واحدة.

ولا ينسى التاريخ ما قاله سعد بن الربيع الخزرجى وهو يجود بأنفاسه لمن عثر عليه بين جثث الشهداء: "أبلغ رسول الله عنى السلام، وقل له إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله خير ما جزى نبى عن أمته، وأبلغ قومك عنى السلام، وقل لهم: إنى سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم ﷺ وفيكم عين تطرف". ثم أغمض عينيه ولفظ أنفاسه الأخيرة.[1]

وتلك لا شك صور مشرقة تدل على أن الإسلام لن ينهزم مهما حدث له فى أحد أو فى غير أحد. وقد عبر النبى ﷺ عن ذلك فقال لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه بعد انتهاء المعركة: "لا يصيب المشركون منا مثلها حتى يفتح الله علينا".

أما قريش فقد أطعمتها نتيجة المعركة فتوعدت المسلمين بالعودة إليهم فى العام القابل للقضاء عليهم جميعاً. أما القبائل الأخرى فقد أظهر البعض منها استهانتها بالمسلمين وأحتالت عليهم وقتلت بعضهم غدرا وخداعا وحطة. مثال ذلك ما حدث من رهط عضل والقارة، وهم من بنى الهون بن خزيمة بن مدركة. ذلك أنهم أتوا إلى النبى ﷺ لكي يرسل معهم من يعلمهم شرائع الإسلام ويفقهم فى الدين ويقرئهم القرآن. فاستجاب لهم الرسول ﷺ وأرسل معهم ستة من الصحابة حتى إذا كانوا عند الرجيع، وهو ماء لهذيل بناحية الحجاز، استعانوا عليهم بهذيل فقتلوا أربعة غدرا وحطة، وأسروا أثنين أرسلوهما إلى مكة وباعوهما من قريش بأسيرين من هذيل كانا بمكة، فقتلتهما قريش. [2]

وقد حدث نفس الغدر من بنى سليم فى يوم يعرف بيوم بئر معونة قرب حرة بنى سليم فى صفر من العام الرابع للهجرة يولية ٦٢٥م، حيث قتلوا أربعين أو سبعين- على اختلاف فى الآراء عند ابن إسحاق وابن سعد والطبرى وابن خلدون- من القراء، كان النبىﷺ قد أرسلهم إلى نجد للدعوة إلى

---

[1] الطبرى : تاريخ الأمم، ج٢، ص ٥٩ .

[2] الطبرى: تاريخ الأمم، ج٢، ص ٥٣٩.

الإسلام بناء على طلب رجل يدعى أبا براء عامر بن مالك بن جعفر، من بنى عامر. ولم ينج منهم إلا رجل واحد هو عمرو بن أمية الضمرى.

ولم يقف المسلمون مكتوفى الأيدي أمام هذه الضربات المتلاحقة وبدأو يقومون بسلسلة من الغزوات للرد على هذا الهجوم الشرس للوثنية وللتخلص من آثار ما حدث لهم فى أحد والرجيع وبئر معونة، ولإشعار العرب المحيطين بهم أنهم لا زالوا أعزة أقوياء يحسب لهم ألف حساب.

وكانت مرابطة المسلمين عند حمراء الأسد التى أشرنا إليها فى اليوم التالى لانتهاء معركة أحد هى البداية، وكانت بداية ناجحة أدت الغرض منها، إذا انسحب أبو سفيان وجيشه وعادوا إلى مكة دون أن يعاودوا الكرة على المسلمين الذين كانوا مثخنين بالجراج، وفى بداية العام الرابع للهجرة أرسل النبى ﷺ فى شهر المحرم يونيه ٦٢٥م سرية للإغارة على بنى أسد سارا فى قومهما وفيمن أطاعهما يدعونهم إلى حرب رسول الله ﷺ، فرأى النبى ﷺ أن يفاجئهم وأن يغير عليهم قبل أن يغيروا عليه، فأرسل إليهم سرية على رأسها أبى سلعة ابن عبد الأسد المخزومى ومعه مائة وخمسون رجلا من الأنصار والمهاجرين، فقدم هؤلاء المسلمون إلى ماء لبنى أسد بجبل قطن بناحية فيدك من نجد وفاجئوهم وأصابوا منهم بعض الغنائم وعادوا إلى المدينة.

وتتابعت بعد ذلك غزوات خرج النبىﷺ على رأسها بنفسه، منها غزوة ذات الرقاع فى جمادى الأول من نفس العام، لغزو بنى محارب وبنى ثعلبة وأنمار من غطفان فى نجد، ولم يحدث قتال بين الفريقين، وعاد المسلمون بعد أن أفهموا أهل نجد من غطفان وغير غطفان أن المسلمين ليسوا فى ضعف قد يغرى هذه القبائل بهم أو بالانضمام إلى قريش لمحاربتهم. [1]

وقد أراد الرسول ﷺ أن يوضح لقريش هذا المعنى، فخرج على رأس ألف وخمسمائة من المسلمين فى شعبان عام ٤هـ/يناير ٦٣٦م لملاقاة قريش فى بدر كما طلبت يوم عودتها من أحد، وحتى لا نظن الضعف بالمسلمين إذا ما تخلفوا عن اللقاء، وقد وصل الرسول ﷺ إلى بدر وأقام بها ثمان ليال ينتظر أبا سفيان الذى كان قد خرج هو الآخر على رأس ألفى محارب من أهل مكة حتى نزل مجنة (مر الظهران) ثم بدا له أن الرجوع إلى مكة أسلم عاقبة وقال لقومه: "يا معشر قريش، إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعى فيه الشجر، ونشرب اللبن، وإن عامكم هذا عام جدب وإنى راجع فارجعوا، فرجع الناس، دون أن يصلوا إلى بدر وأخذوا فى الاستعداد لغزوة الخندق.

---

[1] ابن هشام: السيرة النبوية، ج٣، ص١٨-٢٠.

ولم يقتصر نشاط المسلمين على نجد وعلى قريش، بل اتجهوا شمالا إلى دومة الجندل فى شهر ربيع الأول عام ٥هـ/ أغسطس ٦٢٦م بعد أن وصل إليهم أن أهل هذه الناحية جمعوا لهم الجموع وأنهم زحفوا حتى دنوا من أطراف المدينة وأنهم يقطعون الطريق على المارة الذين لا غناء لهم عن هذا الطريق المار بدومة الجندل إلى بلاد الشام. فخرج الرسول ﷺ على رأس ألف من المسلمين ووصل إلى دومة وأقام بساحتها أياما وبث السرايا فى أنحائها، ولم يحدث قتال لأن أهل دومة كانوا قد هربوا عندما سمعوا بزحف النبى ﷺ إليهم، وعاد الرسول بعد أن وقعت فى يده بعض الغنائم.

وتجاه الساحل، كان للمسلمين نشاط أيضاً فيما يعرف بغزوة المريع وهو ماء لبنى المصطلق من خزاعة بناحية قديد، ولذلك سميت هذه الغزوة أيضاً بغزوة بنى المصطلق، وذلك فى شعبان عام٦هـ/ يناير ٦٢٧م وقد خرج النبى ﷺ إليهم على رأس جيش كبير يضم كثيرا من المنافقين عندما سمع بأن سيد بنى المصطلق الحارث بن أبى ضرار "سار فى قومه ومن قدر عليه من العرب، فدعاهم إلى حرب رسول الله ﷺ فأجابوه وانهزم بنو المصطلق شر هزيمة، وسبى النبىﷺ عدد كبيرا منهم، كان من بينهم جويرية بنت الحارث التى تزوجها كما غنم عددا هائلا من الإبل والغنم وعاد المسلمون إلى المدينة منتصرين.

وقد أثارت هذه الانتصارات المتوالية التى حققها المسلمون بعد أحد والتى كانت ردا على عدوان قريش وغيرها من القبائل، ومنعاً لقبائل أخرى كانت قد تهيأت واستعدت للزحف، وزحف بعضها فعلا إلى المدينة كما رأينا، نقول أثارت هذه الانتصارات قريشاً وبنى النضير وغيرهم من أعداء الإسلام المتربصين به، إذ خافوا أن تشتد شوكة المسلمين من جديد، فاجتمعوا وتحزبوا وهاجموا المدينة فيم يعرف بغزوة الأحزاب أو الخندق.

دور الاستخبارات فى غزوة أحد:

فكرت قريش فى الانتقام لقتلها فى غزوة بدر فأخذت تعد العدة وتجهز الكتائب وتستحث حلفائها للخروج معها، وما كاد العباس عم الرسولﷺ يرى هذه الاستعدادات المريبة التى تقوم بها قريش حتى أخذ فى جمع المعلومات عن هذه الحملة وميعاد تحركها وأعداد المشتركين فيها وأرسلها فى رسالة إلى الرسولﷺ فى المدينة حتى وصلت، فلما قرأت الرسالة طلب الرسولﷺ من أركان حربه عدم البوح

بمضمونها ثم أخذ فى إرسال عيونه ورجال إستخباراته لرصد الطلائع الأولى لجيش قريش وكان عمل لرجال الاستخبارات مفيداً جداً حيث حال بين المشركين وبين مباغتتهم المدينة. [١]

نتائج غزوة أحد:

١- انتصار المسلمين فى بداية المعركة ثم انتصار المشركين بعد أن ترك الرماة موقعهم على الجبل.
٢- استشهاد سبعين من المسلمين من بينهم حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير وعبد الله بن جحش.
٣- مقتل اثنين وعشرون رجلاً من المشركين.
٤- ظهور المنافقين قبل المعركة وبعدها بزعامة عبد الله بن أبى بن سلول مما أتاح للمسلمين القيام بالتطهير فى صفوفهم.
٥- طمعت قريش وغيرها من القبائل فى جماعة المسلمين وشجعت المشركين على حربهم فيما بعد.

الدروس المستفادة من غزوة أحد:

١- تقدير أهمية وقيمة الطاعة والجندية حيث أن مخالفة أمر القائد تؤدى إلى الفشل.
٢- إن المؤمن مهما عظمت صلته بربه فلا يجوز أن يغتر به أو يحسب أن الدنيا دانت له.
٣- إن هزيمة المسلمين فى أحد كانت درساً قيماً للمسلمين خلال صراعهم مع المشركين حيث شاءت الأقدار أن يكبو المسلمون هذه القبوة بعد الانتصارات على المشركين فى بدر لأن الانتصار الدائم يعرض الجماعة المسلمة لنوع من الاتكالية السالبة.
٤- أن النصر ليس بالكثرة وإنما بالطاعة والتلاحم.
٥- تحريم المثلة أى التمثيل بالقتلى.
٦- إدارك قيمة الزوج عند المرأة كما شاهدنا موقف حمنة بنت جحش.
٧- وجوب قتل الأسير إذا عاد إلى قتال المسلمين بعد العفو عنه فى المرة الأولى .
٨- ضرورة إخفاء الحقيقة لتخفيف شدة العدو والمحافظة على معنويات المقاتلين كما حدث عندما أمر الرسول بعدم الإعلان عن حياة الرسول.
٩- كانت غزوة أحد درساً قاسياً علم المسلمين كيف يحافظون على مواقعهم وعدم تركها لجمع الغنائم.

---

[١] محمد أحمد زيود: تاريخ العرب والإسلام، منشورات جامعة دمشق، ١٩٩٥م، ص٦١.

١٠-كشفت غزوة أحد عن المنافقين الذين ظهر السرور والفرح على وجوههم مما أصاب المسلمين. [١]

[١] ابن الأثير: الكامل، ج٢، ص١٢٢؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٢، ص ٤٣.

غزوة أُحد (٣هـ)

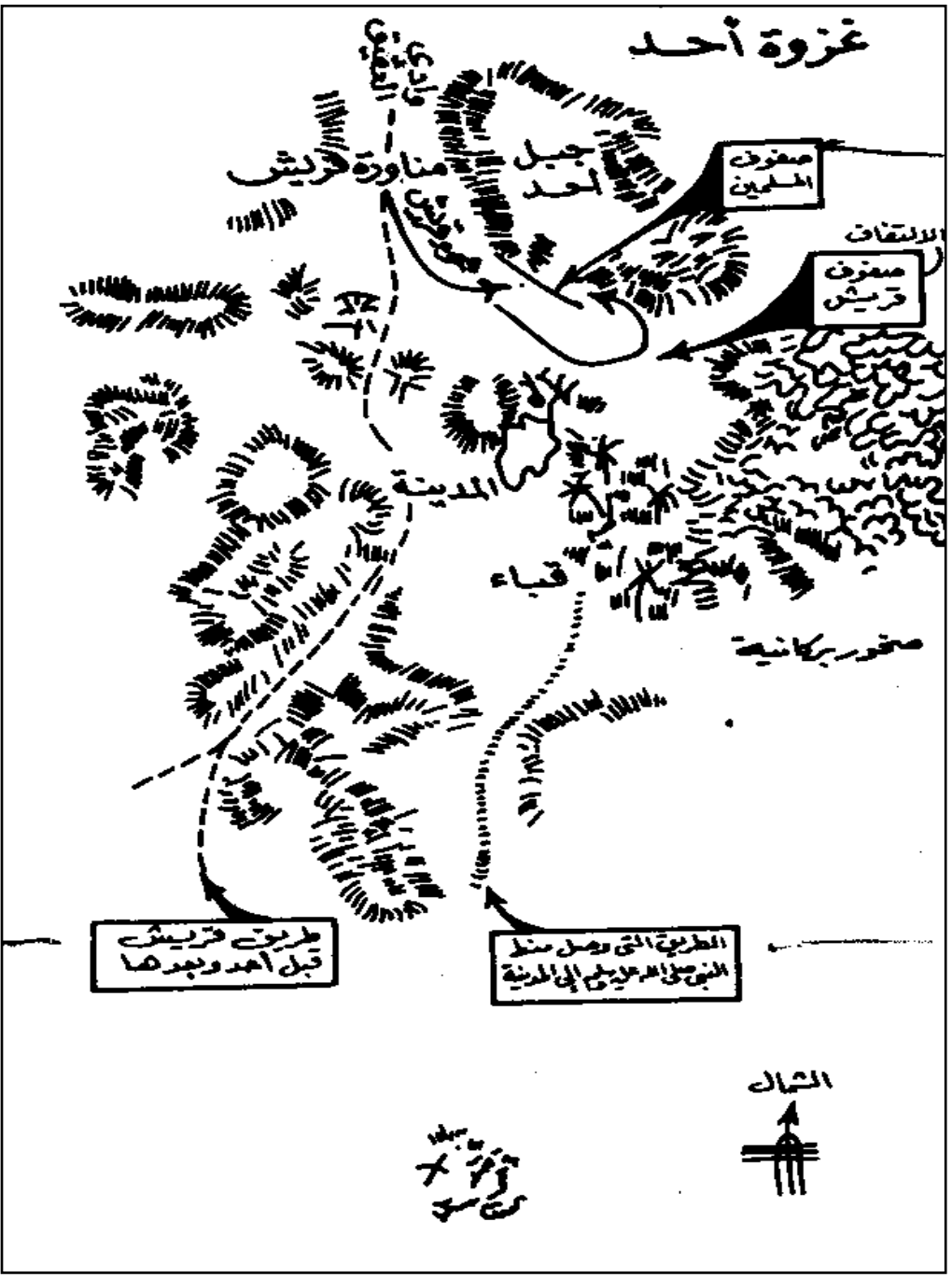
غزوة أحد
وادي العقيق
مناوة قريش
جبل أحد
صفوف المسلمين
الالتقاء
صفوف قريش
المدينة
قباء
صخور بركانية
طريق قريش قبل أحد وبعدها
الطريق التي وصل منها النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة
الشمال

٣-غزوة الأحزاب أو الخندق: (شوال ٥هـ/مارس ٦٢٧م)

ذلك أن يهود بنى النضير عادوا إلى غدرهم وخيانتهم بعد أن كان النبىﷺ قد أجلاهم عن المدينة لمحاولتهم قتله غيلة، فاتصل وفد لهم بقريش فى مكة فى محاولة للانتقام والإجهاز على محمد وأصحابه، وأخذوا يحرضون القرشيين على استئناف القتال ضد المسلمين من جديد، ووعدوهم بتقديم المساعدات المادية، وكانت قريش فى غنى عن التحريض إذ إنها كانت تعد لجولة أخرى مع النبىﷺ حتى تقضى عليه وعلى قوته نهائياً فموقعة أُحد لم تحقق لها هذا الهدف، ولذلك سرها ما دعا إليه بنو النضير كل السرور، واتفقوا على ذلك وضربوا له موعدا. (١)

وبعد أن تأكد بنو النضير من استجابة قريش لهم اتصلوا بقبيلة غطفان بنجد وأخبروهم بموافقة قريش على حرب المسلمين وأغروهم بإعطائهم تمر خيبر لمدة سنة وتواعد الجميع على اللقاء عند المدينة، فخرجت قريش مع أحابيشها ومع حلفائها من بنى كنانة وثقيف وبنى سليم وأهل تهامة وعلى رأسهم أبو سفيان. وخرجت غطفان مع زعمائها عينية بن حصن فى بنى فزارة والحارث بن عوف فى بنى مرة، وسميت هذه الجماعات التى بلغ تعدادها حوالى عشرة آلاف بالأحزاب، نظر لتكونها من قبائل يهودية وعربية متعددة، سواء من الحجاز أو من نجد، ونزلوا بشمال المدينة فى شوال عام ٥هـ / مارس ٦٢٧.

كانت قريش تهدف من وراء هذه الحملة إلى القضاء تماماً على أمر المسلمين وكانت بقية القبائل العربية تريد غنائم الحرب وأسلابها، أما بنو النضير وبنو قينقاع من اليهود فكانوا يريدون إرجاع نفوذهم إلى المدينة كما كان الحال من قبل. وقد قامت هذه الأحزاب بمحاصرة المدينة مدة شهر وقع فيها بعض المبارزات الفردية(٢)، وانتهى الأمر برحيل الأحزاب بعد فشلها فى اقتحام المدينة عنوة.

ويرجع ذلك إلى عدة أمور:

١-خط المسلمين فى الدفاع عن المدينة كانت تختلف تماما عن خطتهم فى معركة أحد. ففى أحد كانوا مهاجمين لمن هاجمهم خارج المدينة بينما فى غزوة الأحزاب التزموا بالدفاع ولزموا المدينة وتحصنوا فيها، ووقف مقاتلوهم وراء الخندق يمنعون الأحزاب من اقتحامه عليهم. وكان حفر الخندق فى حد ذاته من عوامل فشل الأحزاب. وكان هذا عملا جديدا على العرب أشار به سلمان الفارسى، ونفذه

---

(١) الطبرى: تاريخ الأمم، ج٢، ص ٥٦٥.

(٢) ابن كثير: السيرة النبوية، ج٣، ص ٥٩.

الرسول، وقسم الحفر بين القبائل وشاركهم فيه، وتم حفره فى شمال المدينة "لأن الجهات الأخرى كانت محصنة بالجبال والنخيل والبيوت. وجعل النبىﷺ لهذا الخندق أبوابا رتب عليها الحراس وعهد بقيادتهم إلى الزبير بن العوام. ولما أتت قريش وحلفاؤها ورأت هذا الخندق تملكتها الدهشة وقالت: "والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها" ودلالة هذا العمل كبير من وجهة النظر السياسية والحربية، إذ أن الرسول أخذ برأى أحد جند المسلمين وعمل بمشورته ونظم عملية الحفر واشترك فيه رغم أنه القائد الأعلى وأنه النبى المرسل، فدلل بذلك على مهارة سياسية ربطت بينه وبين قلوب المسلمين، وضرب لنا مثلا فى الديمقراطية وأعلى فى نفس الوقت من قيمة العمل اليدوى.

٢-حاول الرسول تفريق كلمة الأحزاب، فأرسل من يفاوض غطفان ويطلب منهم الانسحاب على أن يعطيهم ثلث ثمار نخيل المدينة، وفى نفس الوقت عقد الرسول مجلس الشورى من الأوس والخزرج والمهاجرين، ولما عرفوا منه أن هذه المفاوضات لم تكن عن أمر من الله، وإنما هى اجتهاد من النبى للقضاء على هذا الحصار المضروب على المدينة، طلبوا منه إيقاف تلك المفاوضات والاستمرار فى الدفاع عن المدينة وقتال أعدائهم. وقد كان لذلك صداه فى معسكر الأحزاب، إذ أن غطفان كانت قد قبلت شروط النبىﷺ إذا أعطاهم نصف الثمار، ورغم أن المفاوضات قد قطعت إلا أنها أدت إلى فك عرى التحالف بين غطفان وبين بقية الأحزاب، ولذلك لم نسمع عن اشتراك فرسان غطفان فى المبارزات الفردية التى وقعت بين المسلمين وقريش عند مكان ضيق من الخندق. [1]

٣-تمكن النبىﷺ أيضاً من القضاء على التحالف الذى تم بين يهود المدينة من بنى قريظة وبين قريش وبقية الأحزاب وكان بنو قريظة فى حلف مع النبى ومقيمين معه داخل المدينة، فاتصل بهم يهود بنى النضير وأغروهم بالتحول عن محالفة النبىﷺ والانضمام إليهم، فنقض هؤلاء عهدهم معه وصاروا خطراً عظيماً على المسلمين، وإلى ذلك يشير القرآن فى سورة الأحزاب بقوله تعالى:

"وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا" الأحزاب آية ١٠.

---

[1] ابن الأثير: الكامل، ج٢، ص١٢٥.

لكن دبلوماسية الرسول ومهارته السياسية تغلبت على هذا الموقف العصيب، وكان نعيم بن مسعود الغطفانى قد انسل من بين صفوف الأحزاب واسلم خفية، ولجأ إلى النبى وعرض عليه تقديم المساعدة، فقال له النبى "خذ عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة" وكان هذا الرجل يمتاز بالدهاء والمكر. فذهب إلى أصدقائه من بنى قريظة وأشار عليهم بألا يحاربوا مع قريش إلا بعد أن يأخذوا رهائن منها حتى لا تعود وتتركهم للمسلمين يفتكون بهم، ثم ذهب إلى قريش وإلى غطفان وأخبرهم بأن بنى قريظة قد تخلوا عن نصرتهم وأنهم سيطلبون رهائن منهم لن يحتفظوا بهم وإنما سوف يقدمونهم لمحمد ليقتلهم نظير عودة بنى النضير إلى المدينة، وحذرهم من إعطاء هؤلاء الرهائن. ولما حدث الاتصال بين الطرفين وطالب بنو قريظة بالرهائن حتى لا تتركهم قريش لمحمد ينال منهم، تبين لقريش وغطفان صحة ما قاله نعيم، فوقع الشك فى قلوب الفريقين وتفرق جمعهم. (١)

٤-كما كان لمهارة الرسول فى حث المسلمين وتشجيعهم على الصمود بيد أنه قد تزعزعت ثقة البعض وخاصة من المنافقين، وقال أحدهم: "كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط" وترك أحدهم موقعه وطلب من الرسول-على ملأ من المسلمين- الإذن لهم بالعودة إلى ديارهم بحجة أنها مكشوفة لأعدائهم إذ أنهم أصبحوا محاصرين بين يهود بنى قريظة فى المدينة وبين الأحزاب وراء الخندق وقد أشار إلى ذلك القرآن فيقول تعالى فى سورة الأحزاب "
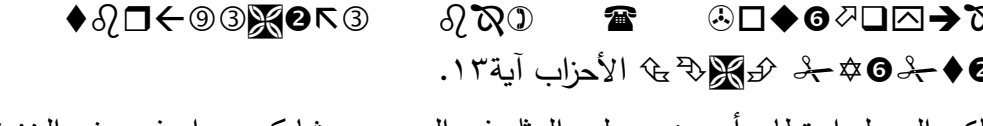
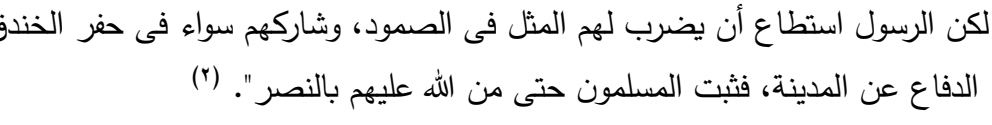
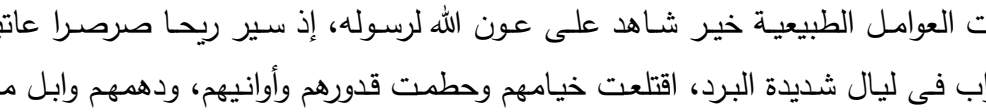

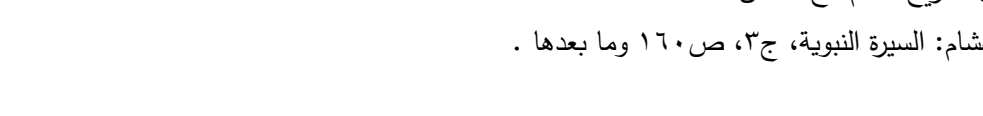
الأحزاب آية١٣.

لكن الرسول استطاع أن يضرب لهم المثل فى الصمود، وشاركهم سواء فى حفر الخندق أو فى عبء الدفاع عن المدينة، فثبت المسلمون حتى من الله عليهم بالنصر". (٢)

٥-وكانت العوامل الطبيعية خير شاهد على عون الله لرسوله، إذ سير ريحا صرصرا عاتية على الأحزاب فى ليال شديدة البرد، اقتلعت خيامهم وحطمت قدورهم وأوانيهم، ودهمهم وابل من مطر

---

(١) الطبرى: تاريخ الأمم، ج٢، ص ٥٦٦.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٣، ص١٦٠ وما بعدها .

غزيـر أضـاف إلـى معانـاتهم، خاصـة وأن الحصـار قـد طـال دون نتيجـة حاسـمة. فقـررت قـريش الانسـحاب والعـودة إلـى مكـة، وتبعتهـا غطفـان وبقيـة الأحـزاب. ويشـير القرآن إلـى ذلـك فـى سـورة الأحـــزاب فيقـــول تعـــالى: " 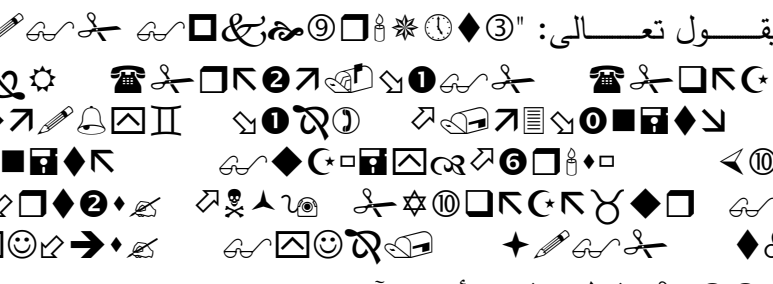 ". الأحزاب آية ٩ .

وكانت نتيجـة هذه العوامل كلها أن فشلت قريش وأنصارها فى القضاء على المسلمين، كما فشل اليهود فى تحقيق هدفهم فى الثأر من النبى ﷺ وفى عودة نفوذهم إلى المدينة. وبذلك فشلت الوثنية واليهودية فى الإيقاع بالمسلمين، ودللت موقعة الخندق على أن المسلمين لا يمكن أن يقهروا بسهولة، وأن المدينة لا يمكن أن تؤخذ عنوة حتى وإن احتشد لها العرب واليهود أجمعين. وكان لذلك أثره فى بقية القبائل العربية، إذ أنها أحست قوة اليقين فى نفوس المسلمين، ورأت أن الميزان سوف يتحول إلى صالحهم خاصة بعد أن قال النبى ﷺ عقب جلاء الأحزاب: "الآن نغزوهم ولا يغزوننا"، وكان من نتائج موقعة الخندق أيضا القضاء على يهود بنى قريظة وتأمين الجبهة الداخلية تأمينا تاما. (١)

أمـا الجبهـة الخارجيـة فلـم يتـوان الرسـول والمسـلمون عـن تأديـب كـل مـن اشـتراك فـى إيـذاء المسلمين ومحاربتهم والاعتداء عليهم سواء قبل الخندق أو بعدها. ذلك أن المسلمين تعرضوا بعد الخندق لعدوان جديد. فقد أغار عيينة بن حصن الفزارى الغطفانى على لقاء الرسولﷺ، وتسبب هذا الأمر فى غزوة الغابة (ذى قرد) شمال المدينة، فى شهر ربيع الأول عام ٦هـ / أغسطس ٦٢٧م، تمكن فيها الرسول من استعادة بعض نوقه وعاد إلى المدينة بعد أن قتل عددا من المعتدين منهم حبيب بن عيينة بن حصن وأرسل إلى العرنيين سرية على رأسها كرز بن جابر الفهرى فى شوال عام ٦هـ / مارس ٦٢٨م أمسكت بهم وقدمت إلى المدينة حيث قتلوا.

أما أعراب فزارة الذين اعتدوا على قافلة للرسول ﷺ كانت تحمل تجارة له من الشام، فقد أرسل إليهم سرية أغارت عليهم وقتلت بعضهم، ولما احتشد بنو سعد بن بكر بفدك للإنضمام إلى يهود خيبر

(١) الطبرى: تاريخ الأمم، ج٢، ص ٥٧٠.

فى محاولة للعدوان والإغارة على المدينة. أرسل لهم الرسول ﷺ على بن أبى طالب فى شعبان عام ٦هـ/يناير سنة ٦٢٨م فأغار عليهم وغنم منهم خمسمائة بعير وألفى شاه وعاد إلى المدينة.

أما الحملات التأديبية التى أرسلها النبىﷺ إلى بعض الذين اشتركوا فى غزوة الخندق أو الذين اعتدوا على المسلمين فى يوم الرجيع ويوم بئر معونة، فقد تعددت، وأشهر هذه المحلات هى الغزوة التى قادها بنفسه ضد بنى لحيان، من هزيل، فى شهر ربيع الأول عام ٦هـ/أغسطس سنة ٦٢٧م انتقاماً منهم لما فعلوه بأصحابه يوم الرجيع، فهربوا ولم يتمكن الرسول منهم. أما بنو ثعلبة الذين اعتدوا على المسلمين يوم بئر معونة، فقد أرسل لهم النبى ﷺ سرية على رأسها أبو عبيدة بن الجراح وصلت إلى ذى القصة التى تقع على طريق الربذة، على بُعد أربعة وعشرين ميلا من المدينة، وذلك فى شهر ربيع الآخر عام ٦هـ / سبتمبر سنة ٦٢٧م، فوجدهم قد هربوا إلى الجبال، فاستاق ما وجده من مواشيهم وعاد إلى المدينة، وأرسل لهم النبى ﷺ سرية أخرى فى جمادى الآخرة على رأسها زيد بن حارثة فهربوا أيضا وغنم زيد عشرين بعيرا وعاد إلى المدينة. [١]

أما بنو سليم الذين كانوا قد اعتدوا على المسلمين أيضا فى بئر معونة واشتركوا مع الأحزاب فى حصار المدينة، فقد أرسل لهم النبى ﷺ سرية على رأسها زيد بن حارثة فى ربيع الآخر عام ٦هـ/سبتمبر سنة ٦٢٧م، فسار إليهم وأصاب منهم بعض الأسرى وحصل على بعض الغنائم. أما بنو أسد الذين اشتركوا أيضا فى الأحزاب فقد أرسل لهم النبى ﷺ سرية على رأسها عكاشة بن محصن الأسدى فى شهر ربيع الأول عام ٦هـ / أغسطس ٦٢٧م، وصلت إلى ماء الغمر الذى يقع على بعد ليلتين من فدك على الطريق إلى المدينة، وغنم المسلمون مائتى بعير بعد أن هرب القوم إلى الجبال.

أما قريش نفسها فقد تعرضت تجارتها لتهديد جديد، ذلك أن المسلمون سمعوا أن عيراً لقريش أقبلت من الشام، فأرسل النبى سَرِيَّة على رأسها زيد بن حارثة، فوصلت إلى العيص الذى يقع على بُعد أربع ليال من المدينة وتمكنت هذه السرية من أخذ هذه العير وما تحمله، وأسرت بعض رجالها منهم أبوالعاص بن الربيع زوج زينب بنت الرسولﷺ.

وقد تعدى نشاط المسلمين الحربى هذا النطاق إلى شمال بلاد الحجاز، حيث أرسل النبى ﷺ فى شعبان عام ٦هـ / يناير سنة ٦٢٨م سرية على رأسها عبد الرحمن بن عوف إلى كلب بدومة الجندل، وقال له: أغز باسم الله وفى سبيل الله، فقاتل من كفر بالله لا تغل ولا تغدر ولا تقتل وليداً، ولما

---

[١] ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٢، دار الفكر ، بيروت، ١٩٧٩م، ص ٢٩.

وصل عبد الرحمن إلى دومة الجندل أسلم شيخها الأصبغ بن عمرو الكلبى وكان نصرانيا، وأسلم معه ناس كثير من قومه، وأعطى الباقون الذين ثبتوا على دينهم الجزية. وقد سبقت الإشارة إلى سرية على بن أبى طالب رضي الله عنه إلى فدك، مما يدل على جهود المسلمين فى إقرار نفوذهم السياسى على منطقة شمال الحجاز. (١)

وفى سبيل ذلك أرسل الرسول أيضا سريتين إلى خيبر، إحداهما فى رمضان، والثانية فى شوال من عام ٦هـ / مارس سنة ٦٢٨م. اغتيل فيهما زعيما يهود خيبر وهما: أبو رافع سلام بن أبى الحقيق النضرى جزاء له على اشتراكه مع الأحزاب وتحريضه القبائل للهجوم على المدينة فى غزوة الخندق. والثانى هو أسير بن زارم الذى تقلد رياسة يهود خيبر بعد مقتل أبى رافع وسار إلى غطفان وغيرهم يجمعهم على حرب رسول الله من جديد.

دور الاستخبارات فى غزوة الخندق:

علم الرسول ﷺ عن طريق عيونه وجواسيسه أن قريشاً عبأت عشرة آلاف مقاتل عدا حلفائها من اليهود لمهاجمة المدينة عندها بدأ المسلمون نتيجة لهذه المعلومات فى حفر الخندق حول المدينة ولقد كانت مفاجأة لقوة قريش حتى قالو: "والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها".

وهذه الواقعة تدل على نجاح مخابرات النبى ﷺ الاستراتيجية التى عرفت بنية الأعداء مبكراً كما تدل على عجز مخابرات الأعداء وذلك لأن حفر الخندق استغرق حوالى عشرين يوماً وهذه المدة كافية جداً لعيون قريش لكشفة والإعلام عنه. (٢)

كما تدل هذه الواقعة أيضاً على نجاح المخابرات الوقائية للمسلمين، وعلى مدى تكتمهم بسر خطتهم وحرمان العدو من الحصول على معلومات عنهم.

الدروس والعبر من غزوة الأحزاب:

١- التضحية والفدائية فى الجهاد واجبة ولا سيما إذا كلف القائد بعض جنوده بالتضحية كما فعل على بن أبى طالب رضى الله عنه.
٢- الصبر من شروط النصر.
٣- ضرورة كتمان الأخبار السيئة عن العامة فى المواقف الحرجة.

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٣، ص ١٣٢.

(٢) ابن كثير: السيرة النبوية، ج٣، ص ٥٩.

٤- ملة الكفر واحدة تجمعها العدواة للإسلام والمسلمين وتفرقها المصالح الشخصية.
٥- إستعارة ما يحتاجة المسلمون للقتال من حلفائهم غير المسلمين جائز حيث استعار الرسولﷺ أدوات الحفر من بنى قريظة.
٦- مشاركة القائد لرعيته فى العمل يزيد من معنوياتهم ويهون عليهم التضحية.
٧- لا يجوز إكراه ضعفاء الإيمان على الجهاد فوجودهم فى القتال ضرر.
٨- الحيلة والخداع من فرض قد يعمل عمل جيش بأكملة فعمل نعيم بن مسعود فى هذه الغزوة يعادل عمل جيش كبير حينما دب الخلاف بين يهود وقريش وحلفائها.
٩- وجوب الاعتقاد بان النصر من عند الله. [١]

وهكذا صد المسلمون من حاول العدوان عليهم بعد انتهاء غزوة الخندق ولقنوهم درسا لن ينسوه كما أنهم قاموا أيضاً بحملات تأديبية ضد من شارك فى غزوة الخندق نفسها، كما استأنفوا تهديدهم لتجارة قريش، وبذلك ارتفعت أسهم المسلمين وازداد شعورهم بالقوة والعزة والمنعة، ومن ثم خرجوا إلى مكة معتمرين فى ذى القعدة من عام ٦هـ / أبريل سنة ٦٢٨م وبذلك نصل إلى النقطة الرابعة فى حديثنا عن موقف الرسول ﷺ من قريش بمكة وهو صلح الحديبية.

٤-صلح الحديبية: (ذو القعدة ٦هـ-أبريل سنة ٦٢٨م)

خرج الرسول ﷺ قرب نهاية العام السادس للهجرة إلى مكة للعمرة فى ألف وأربعمائة من المهاجرين والأنصار يسوقون الهدى أمامهم ولا يحملون إلا سلاح المسافر دلالة على عدم نيتهم فى قتال قريش وعندما أحست قريش بهم صممت على منعهم من دخول مكة عنوة حتى ولو كانوا مسالمين، وأرسلت خالد بن الوليد لمناوشتهم، لكن الرسول سلك طريقاً آخر وتوقف عند مكان يقال له الحديبية على بعد تسعة أميال من مكة وعسكر فيه، وأرسل عثمان بن عفان ليتعرف على أنباء قريش ويعرف سبب منعها للمسلمين من دخول مكة للعمرة، ولما تأخرت عودة عثمان إلى الرسول وأشيع أنه قتل، طلب الرسول من المسلمين البيعة على قتال قريش، فتسارعوا إلى بيعته. ونزل فى ذلك قوله تعالى فى سورة الفتح: "لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة، فعلم ما فى قلوبهم وأنزل

[١] ابن الأثير: الكامل، ج٢، ص١٢٥-١٢٦.

السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريب. ومغانم كثيرة يأخذونها، وكان الله عزيزاً حكيما". ولذلك تعرف هذه البيعة ببيعة الرضوان. [١]

وكان لهذا الموقف الشجاع من المسلمين تأثيره على قريش، فرغم أن المسلمين لم يكن معهم سلاح يكفى لمواجهة قريش إلا أنهم صمموا على قتالها لو ثبت فعلا قتلها لعثمان. ولذلك غيرت قريش من نظرتها للمسلمين وأرسلت سهيل بن عمرو لمفاوضة الرسول ﷺ. وقد اعتذر سهيل للرسول عما حدث من حجز عثمان وقتال من قاتله من مشركى مكة، وأظهر حسن النية، فأرسل لقريش بأن تطلق سراح عثمان ومن معه من المسلمين، فعادوا، وأطلق الرسول أسرى قريش من الذين كانوا قد اعتدوا على المسلمين، وتمت المفاوضات بين سهيل وبين الرسول، وانتهت إلى أربع نقاط:

١-أن تضع الحرب أوزارها بين الفريقين لمدة عشر سنين.

٢-أن يرد الرسول من يأتيه من قريش مسلما بدون إذن وليه ولا تلزم قريش برد من يأتيها من عند محمد.

٣-من أراد الدخول فى عهد قريش فله ذلك، ومن أراد الدخول فى عهد محمد من غير قريش جاز له ذلك.

٤-أن يرجع الرسول إلى المدينة هذا العام دون أداء العمرة فإذا كان العام القادم دخل مكة بعد خروج قريش منها، وليس معه إلا سلاح المسافر. [٢]

لم يرض المسلمون جميعهم بشروط هذا الأتفاق، واعتبروا بعضها مهينا لهم وتساهلا لم يكن له ما يبرره، ولم يستجيبوا لنداء الرسول لهم بالتحلل من إحرامهم ونحر ذبائحهم. وعبر عمر بن الخطاب عن هذا الاتجاه. لكن الرسول هدأ الخواطر وأفهم المسلمين أن ما فعله كان عن أمر من الله، إذ قال لهم: "أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره ولن يضيعنى". وأشارت عليه زوجه أم سلمة بأن يتحلل من إحرامه أولا، ولما فعل، اقتدى المسلمون به وعادوا إلى المدينة وفى الطريق نزل على الرسول قوله تعالى فى سورة الفتح: "إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك

---

[١] أحمد إبراهيم الشريف: الدولة الإسلامية الأولى، ص ٢٠٠-٢٠٤؛ عبد العزيز سالم : تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ١١٩.

[٢] ابن الأثير: الكامل، ج٢، ص١٣٥-١٣٧.

صراطا مستقيما وينصرك الله نصراً عزيزاً". فاستبشر المسلمون وهدأت نفوسهم وعرفوا أن ما فعله الرسول كان فى مصلحتهم وفى مصلحة الإسلام لعدة أسباب:

١-إن توقيع قريش على هذا الصلح يعتبر اعترافا سياسيا بالمسلمين وكانت قريش ترفض من قبل أن تعترف بهم أو بديانة الإسلام ولذلك تجرأت بعض القبائل على الدخول علانية فى تحالف مع الرسول، مثلما فعلت خزاعة، وفى المقابل أعلن بنو بكر انضمامهم إلى قريش.

٢-أصبح للمسلمين حق مشروع فى زيارة البيت الحرام بمكة حسب نصوص الاتفاق. وفعلا عادوا فى ذى القعدة من العام التالى ٧هـ / مارس ٦٢٩ ودخلوا مكة ومكثوا فيها ثلاثة أيام بعد أن خرجت منها قريش. وكان هذا فى حد ذاته نصراً سياسياً كبيراً للنبى، فعز المسلمون من حيث ظنو المهانة، ونزل فى ذلك قوله تعالى: "ولقد صدق الله ورسوله الرؤيا بالحق، لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون، فعلم ما لم تعلموا، فجعل من دون ذلك فتحا قريبا.

٣-تغيرت نظرة قريش للمسلمين، وأدركت أن دينهم لابد أن ينتصر فى النهاية رغم عدائها الشديد ومؤامراتها العديدة وتحديها السافر للنبى وأصحابه. ولذلك رأينا كثيرا من رجالات قريش مثل خالد ابن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة وغيرهم يقدمون إلى المدينة فى صفر عام ٨هـ / يونيه ٦٢٩ ويعلنون إسلامهم وانضمامهم إلى الرسول، وكان هذا تحولاً ضخماً فى ميزان الصراع بين الرسول وقريش لصالح المسلمين".

٤-لم يظهر المفاوض القرشى كياسة وبعد نظر فى شرطه على النبى أن يرد من جاء إليه من قريش مسلما، ذلك أن من ردهم الرسول حسب هذا الشرط كانوا شوكة فى جنب قريش، إذ قام بعضهم باعتراض قوافل قريش التجارية وبقتل من وقع فى أيديهم من القرشيين لدرجة أن قريشا أرسلت للرسول أنها تنازلت عن هذا الشرط إلى مصلحة المسلمين من حيث ظنوه إهانة لهم. [١]

٥-أتاحت الهدنة المتفق عليها فى نصوص الاتفاق الفرصة أمام الرسول كى ينظم شئون المسلمين فى المدينة، وأن يقضى على ما يهددها من أخطار، خاصة خطر يهود خيبر، فغزاهم فى المحرم من عام ٧هـ / مايو سنة ٦٢٨ وقضى على نفوذهم، وبذلك تفرغ النبى لنشر الدعوة خارج الحجاز وأرسل رسله إلى القبائل العربية فى أنحاء شبه الجزيرة المختلفة وإلى ملوك الدول المجاورة فى بلاد الشام ومصر وفارس والحبشة واليمن التى أقبل منها وفد بنى دوس حيث أسلموا ولحقوا النبى بخيبر ثم

---

[١] الطبرى: تاريخ الأمم، ج٢، ص ٦٢٠.

عادوا إلى بلادهم ينشرون دين الإسلام، ولذلك اعتبر المؤرخون القدامى صلح الحديبية فتحا كبيرا، وأنه "ما فتح الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، لأن القتال كان دائماً ومستمرا بين المسلمين والمشركين وبعد الحديبية آمن الناس بعضهم بعضا، واختلط المشركون بالمسلمين وجاءوا إلى المدينة، وذهب المسلمون إلى مكة حيث سمع منهم أهلها أحوال النبىﷺ وعرفوا سيرته الطاهرة، فمالت نفوسهم إلى الإيمان حتى بادر بعضهم إلى اعتناق الإسلام قبل فتح مكة، وازداد ميل البعض الآخر للدخول فى هذا الدين الحنيف وأخذ الإسلام يزداد انتشارا أكثر من ذى قبل بحيث لم يدع أحد لاعتناقه إلا ودخل فيه.

ويستدل على ذلك من أنه فى الفترة التى تقع بين صلح الحديبية وبين فتح مكة، وهى أقل من عامين اعتنق الإسلام عدد من الناس أكثر بكثير ممن اعتنقه طوال عهد الدعوة منذ مبعث النبى. والدليل على ذلك أنه خرج مع النبى ﷺ إلى مكة للعمرة عند صلح الحديبية عام ٦هـ ألف وأربعمائة بينما خرج معه عند فتح مكة عام ٨هـ عشرة آلاف وبذلك اتسعت رقعة انتشار الإسلام، وكسب نفوذا سياسيا لم يصل إليه من قبل وتضاعفت قوة المسلمين السياسية والمعنوية والمادية وأصبحوا مهيئين للتصدى لأى عدوان يمكن أن يتعرضوا له.

وليس معنى ذلك أن المسلمين بين صلح الحديبية وفتح مكة كانوا منتصرين على طول الخط، فقد نشطت قبائل نجد وشمال بلاد الحجاز للتصدى للمسلمين والعدوان على دولة المدينة. وربما يكون هؤلاء قد أطمعهم فى المسلمين بعض تساهلهم مع قريش حينما عقدوا صلح الحديبية، وظنوا أن هذا التساهل لم يكن إلا عن ضعف من المسلمين كما أنهم كانوا يعلمون أن بالمدينة منافقين يمكن أن يساعدوهم فى الأنقضاض على المسلمين، زد على ذلك ما كان يقوم به يهود خيبر وغيرهم من اليهود الذين طردوا من المدينة من إثارة قبائل نجد وشمال بلاد الحجاز وجنوبى بلاد الشام على المسلمين. ولذلك ترى أن نشاط المسلمين العسكري كان موجها فى هذه الفترة ناحية الشرق والشمال. أما الجنوب حيث قريش فقد تكفل صلح الحديبية بفترة سلام استغلها المسلمون أحسن استغلال للدعوة إلى الإسلام وخاصة فى جنوب بلاد العرب وشرقيها، وللتصدى لأى عدوان قد يأتى من نجد فى الشرق أو من العرب واليهود فى الشمال. [١]

---

[١] النووى: صحيح مسلم بشرح الإمام محى الدين النووى، ج١٢، حقق أصوله وخرج أحاديثه خليل مأمون شيحه، ط٣، بيروت، ١٩٩٦م، ص ٣٥٣.

وقد نجح المسلمون فى التصدى لقبائل نجد وشمال الحجاز رغم ما تعرضوا له من بعض الهزائم القاسية، مثل هزيمتهم فى فدك فى شعبان عام ٧هـ ديسمبر ٨٢٨م عندما أرسلوا سرية لتأديب بنى مرة ومثل هزيمتهم فى ديار بنى سليم بنجد عندما هبت إليهم سرية بقيادة أبى العوجاء السلمى فى ذى الحجة عام ٧هـ / أبريل سنة ٦٢٩م لدعوتهم إلى الإسلام فحصروها وقتلوا معظم عند "ذات أطلاح" وراء وادى القرى من أرض الشام فى شهر ربيع الأول عام ٨هـ/ مارس ٦٢٩م عندما ذهبت سرية بقيادة كعب بن عمير الغفارى إلى سكان ذات أطلاح من قضاعة لدعوتهم إلى الإسلام، فرفضوا وقتلوا أفراد السرية عدا رجل واحد كما هزم المسلمون أيضا فى مؤتة بأدنى البلقاء جنوبى بلاد الشام فى جمادى الأول عام ٨هـ/سبتمبر ٦٢٩م عندما أرسل النبى ﷺ حملة للرد على عدوان شر حبيل بن عمرو الغسانى الذى قتل الحارث بن عمير الآزدى الذى كان النبى قد أرسله إلى صاحب بصرى يدعوه ومن معه إلى الإسلام وقد جمع شر حبيل عشرات الآلاف من رجال القبائل التى تدين له بالطاعة مثل بهراء ووائل وبكر ولخم وجذام وانقضوا على جيش زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة الأنصارى فقتلوا هؤلاء القواد الثلاثة وقتلوا عدد آخر من المسلمين، وعاد خالد بن الوليد بباقيهم إلى المدينة.

ولم يمر شهر واحد حتى تعرض المسلمون فى المدينة لعدوان جديد عندما تجمعت قضاعة وأرادت الزحف على المدينة، فأرسل لهم النبى ﷺ سرية بقيادة عمرو بن العاص وصلت إلى ذات السلاسل وراء وادى القرى فى جمادى الأولى عام ٨هـ/سبتمبر ٦٩٥م.

ورغم هذه النكسات فلم يتوان المسلمون عن الرد عليها واستيعابها وتحقيق انتصارات كثيرة، يظهر ذلك من إرسال النبى ﷺ لعدد كبير من السرايا حققت هذه الأهداف. مثل ذلك سرية عمر بن الخطاب إلى هوازن فى منطقة تربة على الطريق إلى صنعاء على بعد أربعة ليال من مكة فى شعبان عام ٧هـ/ديسمبر سنة ٦٢٨م ومثل سرية أبى بكر الصديق إلى بنى كلاب بنجد فى شعبان عام ٧هـ/ديسمبر م ومثل سرية غالب بن عبد الله الليثى إلى الميفعة وراء بطن نخل بنجد فى رمضان من نفس العام، ومثل سرية القائد السابق إلى بنى الملوح من بنى ليث بالكديدي فى صفر عام ٨هـ / يونية ٦٢٩ ثم سريته أيضا إلى فدك فى نفس الشهر للانتقام لبشير بن سعد وأصحابه الذين ذهبوا قبل ذلك يدعون إلى الإسلام، فقتل معظمهم ثم سرية شجاع بن وهب الأسدى إلى بنى عامر وهوازن بالمسير على بُعد خمس ليال من المدينة في شهر ربيع الأول عام ٨هـ/يولية ٦٢٩م، ومثل سرية أبى قتادة بن

ربعى الأنصارى إلى هوازن فى خضرة بنجد فى شعبان عام ٨هـ ديسمبر سنة ٦٢٩م، ومثل سرية سيف البحر إلى حى من جهينة عند ساحل البحر الأحمر فى رجب عام ٨هـ/نوفمبر ٦٢٩م، وقد سميت هذه الغزوة أيضا باسم غزوة الخبط حيث أكل المسلمون أوراق شجر الطلح، لنفاد ما معهم من زاد، وأوراق هذه الأشجار تضرب وتخبط وتقدم عادة طعاما للإبل. (١)

وفى هذه السرايا أحرز المسلمون النصر على أعدائهم وعادوا فى غالب الأحيان محملين بالغنائم والأسرى، مما يدل على مدى القوة السياسية والعسكرية التى تمتع بها المسلمون فى هذه الفترة مما جعلهم مهيئين فى نهايتها لفتح مكة وخاصة بعد أن اعتنق الإسلام قبائل عبد القيس بالبحرين وأزد بعمان وأبناء الفرس وحكام اليمن.

أ- غزوة مؤتة:

أراد رسول الله ﷺ أن يثأر لقتل رسوله الحارث بن عمير الأزدي علي يدي شرحبيل بن عمرو الغساني أمير مؤته، ومقتل فروة بن عمرو الجذامي عامل الروم علي معان وما حولها علي أيدي الروم بعد أن بلغهم إسلامه. فلما انصرف من عمرة القضاء في العام السابع للهجرة، علي ما عاهد عليه قريشاً في صلح الحديبية، أقام بالمدينة ذا الحجة والمحرم وصفراً وربيعاً من سنة ٨ للهجرة، ثم أرسل في جمادي الأولي من تلك السنة بعث الأمراء إلي الشام، لتأديب أمير مؤته المذكور. (٢)

أعد رسول الله ﷺ جيشاً ضخما عدته ثلاثة آلاف مقاتل علي رأسهم زيد بن حارثة، وأوصي المسلمين بانه إذا أصابه قدر فعليهم جعفر بن أبي طالب، فإن أصاب جعفراً قدر فعلي الناس عبد الله بن رواحه الأنصاري ثم أوصي رسول الله أمراء جيشه: فقال "أوصيكم بتقوي الله وبمن معكم من المسلمين خيراً، أغزوا باسم الله في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، لاتغدروا ولا تغلوا، ولا تقتلوا وليداً. (٣)

وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلي إحدي ثلاث فأيتهن ما أجابوك إليها، فاقبل منهم واكفف عنهم، ثم ادعهم إلي التحول من دارهم إلي دار المهاجرين، فإن فعلوا فأخبرهم أن لهم ما للمهاجرين، وعليهم ما علي المهاجرين، إن دخلوا في الإسلام واختاروا دارهم فأخبرهم أنهم يكونوا

---

(١) الطبرى: تاريخ الأمم، ج٢، ص ٥٩.

(٢) ابن كثير: السيرة النبوية، ج٣، ص ٢٤١ وما بعدها.

(٣) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى، ج١، ص ١٣٧-١٣٨.

كأعراب المسلمين، ويجري عليهم حكم الله، ولا يكون لهم في الفئ ولا في الغنيمة شئ إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن أبوا فادعهم إلي إعطاء الجزية، فإن فعلوا فاقبل منهم، واكفف عنهم، فإن أبو فاستعن بالله وقاتلهم، وإن أنت حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك أن تستنزلهم على حكم الله فلا تستنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك فإنك لا تدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا؟ وإن حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة رسوله، ولكن أجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإن تخفروا ذمتكم وذمة آبائكم خير لكم من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله. وستجدون رجالاً في الصوامع معتزلين للناس، فلا تتعرضوا لهم.....لا تقتلن أمرأة ولا صغيراً ضرعاً ولا كبيراً فانياً، ولا تغرقن نخلا، ولا تقلعن شجراً ولا تهدموا بيتاً".

وشيعهم رسول الله ﷺ وودعهم، وسار جيش المسلمين حتي بلغ معان من أرض الشام، وهناك بلغهم أن هرقل ملك الروم قد نزل أرض مأب وهي أرض البلقاء،في ألف ومائة ألف أخري من نصاري الشام[1] من لخم وجذام وقبائل قضاعة من بهراء وبلي وبلقين وعليهم رجل من بني إراشة من بلي يقال له مالك بن راقلة. فأقام المسلمون في معان ليلتين يفكرون فيما يصنعونه، فأراد بعضهم أن يكتب إلي رسول الله يخبرونه بعدد العدو فيأمرهم إما بالعودة أو يزودهم بأمداد بعينهم علي حرب العدو، فقال عبد الله بن رواحه:"ياقوم، إن الذي تكرهون التي خرجتم تطلبون– يعني الشهادة– وما نقابل الناس بعدد ولا قوة، وما نقاتلهم إلا بهذا الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فهي إحدي الحسنيين: إما ظهور وإما شهادة. فوافقه الجميع علي هذا الرأى وأخذهم الحماس، فزحفوا إلي مؤته حيث وافاهم المشركون، واشتبك الفريقان في القتال، واقتتلوا قتالاً شديداً حتي قتل زيد بن حارثة، ثم أخذ جعفر بن عبد المطلب الراية وقاتل بها حتي قطعت يمينه ، فأخذ الراية بيسراه فقطعت يسراه، فتلقي الراية في صدره واحتضنها، فقتل كذلك . فأخذ عبد الله بن رواحة الراية، وتردد عن النزول بعض التردد، ثم صمم فقاتل حتي استشهد فأخذ الراية ثابت بن أقرم أخو بني العجلان، ودعا قومه إلي اختيار قائد منهم، فلما اختاروه رفض، فأخذهم خالد بن الوليد، وانحاز بالمسلمين، وعاد بهم إلي المدينة. [2]

---

[1] هذا الرقم مبالغ فيه للغاية، ولا يعقل أن يصمد ثلاثة الآف يؤلفون جيش المسلمين أمام مائتي ألف من الروم والعرب المتنصره ولذلك لا نأخذ به، ولكننا نستدل من المبالغة في تضخيم جيش العدو علي أن قوته كانت تفوق قوة المسلمين بمراحل من حيث العدد ومن حيث السلاح أيضاً.

[2] أحمد إبراهيم الشريف: الدولة الإسلامية الأولى، ص ٢٢٥–٢٢٧.

كان ذلك أول اشتباك جري بين المسلمين وبين الغساسنة والروم، وتنحصر أهميته في أنه أول تجربة حربية تجتازها الدولة العربية الإسلامية علي مستوى دولي، وإذا كانت موقعة مؤته انتهت بهزيمة جيش المسلمين، فإنما اعتبرها رسول الله جولة تعقبها كرة، فلما عير أهل المدينة أصحاب مؤته بأنهم فروا من المعركة، رد علي اتهام المسلمين بقوله:" بل هم الكرار إن شاء الله".

وبالإضافة إلي أنها كانت اختباراً لقوة المسلمين/ وفرصة للجيش الإسلامي للاحتكاك الدولي في شمال شبه الجزيرة، فقد كان لذلك نتائج أدبية خطيرة إذ فتحت المجال أمام القبائل العربية الضارية في الشمال للدخول في الإسلام. علي أن قريش اعتبرت مؤته هزيمة إن دلت علي شئ فعلي ضعف سلطان المسلمين، وخيل إلي قريش أن هزيمة مؤته بداية لسلسلة من الهزائم، وعندئذ عزموا علي إعادة الأمور إلي مثل ما كانت عليه قبل الحديبية، وذلك بنقض الصلح المذكور.

ب- **فتح مكة:**

كانت خزاعة قد دخلت في عهد النبي ﷺ مؤمنها وكافرها إذ كان عبد المطلب وخزاعة حلفا قديماً ، كما أصبح بنو بكر بن عبد مناة في عقد قريش وعهدها. وكانت بين خزاعة وبكر ثارات قديمة في الجاهلية يرجع سببها إلي اعتداء خزاعة علي حليف لآل الأسود بن رزن قتلوه واستدلوا علي ماله، فثأرت بنو بكر بن عبد مناة يومئذ وهم رهط الأسود بن وزن، من أحد بني خزاعة فقتلوه،، فعدت خزاعة علي سلمي وكثلوم وذؤيب من بني الأسود بن رزن، فقتلوهم ثم ظهر الإسلام واشتغل الناس به، فلما دخلت خزاعة في عهد النبي بعد صلح الحديبية، دخلت بكر بن عبد مناة فى عهد قريش في هذا الصلح وغفلة خزاعة وأرادت إدراك ثأر بني الأسود بني رزن، فخرج نوفل بن معاوية الدئلي بمن أطاعة من بني بكر وبيت خزاعة وهم علي ماء لهم يقال له الوتير بأسفل مكة، فاقتتلوا، ورفدت قريش بني بكر بالسلاح، بل اشترك جماعة من قريش في القتال إلي جانب بني بكر مستخفين، فانهزمت خزاعة إلي الحرم، وعمد قوم نوفل بن معاوية إلي إدراك ثأرهم في خزاعة في داخل الحرم، فقتلوا رجلا من خزاعة يدعي منبه، فاضطرت خزاعة إلي التجاء إلي دار بدنيا بن ورقاء الخزاعي ودار مولي لهم اسمه رافع في داخل مكة وسلاحها علي خزاعة نقضاً للعهد الموقع يوم الحديبية، ولذلك خرج عمرو بن سالم الخزاعي ومعه أحد بني كعب وبديل بن ورقاء وقوم من خزاعة إلي المدينة حتي قدموا علي رسول الله، واستغاثوا به مما أصابهم علي يد بني عبد مناة وقريش، فوعدهم رسول الله بالنصرة. [١]

---

[١] ابن كثير: السيرة النبوية، ج٣، ص ٨٧.

أما قريش فقد ندمت علي ما قدمته من عون لبني بكر، وأدرك شيوخها أنه لابد من عمل شئ لتمكين الصلح والزيادة في مدته ، فأوفدوا أبا سفيان بن حرب لهذا الغرض، فخرج أبو سفيان إلي المدينة ليشهد العقد ويزيد في المدة وعندما دخل المدينة عمد إلي مقابلة أبنته أم حبيبة زوج النبي صلي الله عليه وسلم فأساءت استقباله، فمضي لمقابلة النبي في المسجد وكلمه، فلم يجبه بكلمة فاستعان بكبار الصحابة أمثال أبي بكر وعمرو وعلي حتي يتوسطوا بينه وبين رسول الله، فأبوا جميعاً ، فعاد إلي مكة يجر أذيال الفشل والهوان. [1]

وعزم رسول الله علي فتح مكة ، فأعد جيشاً كثيفاً من أهل المدينة لم تشهد له الحجاز من قبل عدته عشرة آلاف[2] ودعا الله أن يأخذ عن قريش بالأخبار بقصد مفاجأتها بالفتح. وخرج رسول الله بجيشه من المدينة في العاشر من رمضان بعد أن استخلف علي المدينة كلثوم بن حصين بن عتبة بن خلف الغفاري.

وتجمع المصادر علي أن أبا سفيان وبديل بن ورقاء وحكيم بن حزم خرجوا من مكة يتلقون الأخبار ، كما تجمع علي أن العباس بن عبد المطلب، الذي وقف إلي جانب الرسول في بيعة العقبة الثانية والذي كان يوافي النبي ﷺ بأخبار مكة وتحركاتها ضده، خرج مهاجراً وأنه لقي رسول الله في ذي الخليفة، وفي ذلك دلالة علي أن قريش كانت تتوقع مسيرة الرسولﷺ . والخروج العباسي للقاء النبي مغزيان: الأول أن يصبح مهاجراً قبل أن يفتح رسول الله ﷺ مكة، والثاني أن يأخذ الأمان لقريش.

كذلك لم يكن خروج كلا من أبي سفيان وبديل بن ورقاء معاً مجرد صدفة أو اتفاقاً وإنما ليسهل له بديل الاتصال بالرسول ، كما أن لقاء أبي سفيان بالعباس وهو راكب بغلة النبي لم يكن مجرد صدفة أو محض اتفاق، ومن المعتقد أنه اتفق معه علي هذا اللقاء حتي يجيره العباس أمام المسلمين ويمنعه من التعرض لسيوفهم ، وفي نفس الوقت ليمثل قريش أمام الرسول، ويعلن إسلامه، وعندئذ يؤمن الرسولﷺ أهل مكة، فلا تفتح عنوة.

وعندما أسلم أبو سفيان في حضر النبي ، قال العباس: "يا رسول الله، إن أبا سفيان يحب هذا الفخر، فاجعل له شيئا". فقال له رسول الله ﷺ: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه

---

[1] أحمد إبراهيم الشريف: الدولة الإسلامية الأولى، ص ٢٣٤.

[2] اشتركت في تشكيل هذا الجيش جموع من مختلف قبائل العرب: فمن بني سليم ألف رجل وقيل سبعمائة، ومن مزيد ألف رجل وثلاثة، ومن غفار أربعمائة، وطوائف أخري من قيس وأسد وتميم.

فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن" وبذلك أصبحت مكة مؤمنة علي دماء أهلها وذراريهم وأموالهم ونسائهم، إلا من قاتل أو استثني فقط.

ثم عاد أبو سفيان إلي مكة ليبلغ قومه بتأمين رسول الله، لكل من دخل داره أو المسجد الحرام أو دار أبي سفيان. ولكن جماعة من شباب قريش من بينهم عكرمة بن أبى جهل وصفوان بن أمية وسهل بن عمرو صمموا على القتال فناوشهم أصحاب خالد القتال، فقتل من المشركين ١٣رجلا وقيل ٢٣ بينما قتل من المسلمين رجال.

وكان رسول الله ﷺ قد جعل الراية بيد سعد بن عبادة، فبلغه أنه قال: "اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، فأمر النبي أن يدفع الراية إلي الزبير، وقيل إلي علي بن أبي طالب، وقيل إلي قيس بن سعد بن عبادة. ثم قسم الرسول جيشه إلى فرق بأعلي مكة عند المحصب، وأمر الزبير خالداً قائداً المسيرة أن يدخل من ناحية ذى كداء وهو موضع بأعلى مكة عند المحصب بدخول مكة من جهة الليط بأسفل مكة،أما قلب الجيش بقيادة أبي عبيدة بن الجراح فقد دخل من ذي طوي وبدخول المسلمين مكة، سقط معقل الوثنية في جزيرة العرب في أيدي المسلمين، وأمن رسول الله أهل مكة حاشا عدة نفر منهم عبد العزي بن خطل وعبد الله ابن سعد بن أبي سرح، وعكرمة بن أبي جهل، والحويرث بن نقيذ بن وهب بن عبد بن قصي، ومقيس بن صبابة، بعضهم قتل مثل ابن خطل، وبعضهم استأمن رسول الله مثل عبد الله بن سعد، وبعضهم خرج فاراً من مكة مثل عكرمة بن أبي جهل. وعفا رسول الله عن عامة قريش وقال لهم:" ما تظنون؟ قالوا: نظن خيراً ونقول خيراً :أخ كريم وابن أخ كريم، وقد قدرت. قال: فإني أقول كما قال أخي يوسف عليه السلام (لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين)"[١] ثم طاف رسول الله صلي الله عليه وسلم بالكعبة، وأمر بكسر الصور التى كانت منصوبة داخل الكعبة وخارجها وتحطيم الأصنام التي حول الكعبة وبمكة، وأذن له بلال علي ظهر الكعبة ولم يكتف النبي بذلك بل بعث خالد ابن الوليد إلي العزي وكان بيتاً بنخلة تعظمه قريش وكنانة ومضر، فهدمه، وبفتح مكة تحققت المرحلة الأولي الهامة من توحد الأمة العربية بالإسلام، وخرجت الدولة العربية الإسلامية من نطاق الدولة المدنية إلي نظام الدولة الكبيرة، ولم يمض عام واحد حتي امتد سلطانها إلي جميع بلاد العرب.

دور الاستخبارات فى فتح مكة:

---

[١] القرآن الكريم، سورة يوسف، آية ٩٣.

ما حدث فى فتح مكة أن القوة الضربة للمسلمين كانت تعرف كل صغيرة وكبيرة عن قوة قريش وما يحيط بها من كل الجوانب بجانب أن المسلمين استطاعوا أن يعرفوا من وفد بنى خزاعة الذى وصل إلى المدينة فى وقت مبكر أمر نقد قريش للهدنة المعقودة بينهما وعن طريق الدراسات النفسية تبين لهم تردد قريش فى قراراتها. (١)

الأمر الذى جعلهم يحسبون على الرسالة السرية التى أرسلها حاطب بن أبى بلتعة يريد بها إخبار قريش بتحرك القوة الضاربة للمسلمين بمهاجمتهم، حدث هذا فى الوقت الذى لم تستطع فيه قريش الحصول على أى معلومة فى أى وقت قبل المعركة حتى وصول قوة المسلمين إلى مشارف مكة.

ولقد حاول أبو سفيان قائد قريش فى كثير من الغزوات أن يعرف ميات المسلمين من ابنته أم حبيبه وزوجة الرسولﷺ ففشل، وحاول أن يعرف ذلك من قبل بعض المسلمين فأخفق، وحاول أن يعرف شيئاً من وفد خزاعة الذى جاء إلى الرسولﷺ فى مهمة سرية فأنكر الوفد معرفة أى شئ.

وهكذا بقيت قريش فى عماية من أمرها حتى وصل جيش المسلمين إلى مكة وحاصرها من كل جوانبها ولم تجد بداً من التسليم للقوة التى لا تغلب.

ج- غزوة حُنين والطائف:

كانت مكة تحمل لواء المعارضة للإسلام قبل أن يفتتحها رسول الله، فلما فتحت اعتبرت قبيلة هوازن وقبيلة ثقيف في الطائف ذلك ضربة قاضية للوثنية في الجزيرة العربية، وأيقنوا بأن الضربة التالية سيوجهها النبي إليهم ، لارتباط الطائف بمكة في الجاهلية. فعندما بلغ فتح مكة هوازن جمعهم مالك بن عوف النصري واجتمع إليه ثقيف وبنو نصر بن معاوية وبنو جشم وبنو سعد بن بكر وجماعة من بني هلال بن عامر، وصموا علي محاربة النبي قبل أن يشرع في الزحف عليهم. فخرجوا ومعهم أموالهم وماشيتهم ونساءهم وأولادهم، ونزلوا بأوطاس، وهناك اعترض عليهم دريد بن الصمة من بني جشم علي اصطحاب النساء والأطفال، ونصح مالكا ابن عوف بتقديم فرسان هوازن لمحاربة المسلمين، فخالفه مالك وخالفته هوازن. ولما علم رسول الله بخروجهم أعد جيشاً من المسلمين، وخرج في أثني عشر ألفا، منهم عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وألفان من مسلمى الفتح. (٢)

---

(١) أحمد إبراهيم الشريف : الدولة الإسلامية الأولى، ص٢٤١؛ عبد العزيز سالم : تاريخ العرب قبل الإسلام، ص١٣١.

(٢) ابن هشام: السيرة، ج١، ص ٤٧٨-٤٨٢؛ الطبرى : تاريخ الأمم، ج٢، ص٧٠-٨٧.

وما أن وصلت طلائع المسلمين إلي وادي حنين في أول شوال من العام الثامن، وهو واد منحدر من أودية تهامة في الصباح الباكر حيث يختلط ضوء الصبح بالظلام، فوجئوا بكمائن هوازن تترصدهم في جنبتي الوادي، وأحدث هذا الهجوم المفاجئ أثره في إرباك المسلمين، فولي المنهزمون منهم لا يلوي أحد علي أحد فناداهم رسول الله فلم يرجعوا، وثبت مع النبي ﷺ وهو علي بغلته عدد من كبار الصحابة منهم أبو بكر وعمر وعلي والعباس وأبو سفيان بن الحارث وابنه جعفر. ثم أمر رسول الله العباس أن ينادي الأنصار والمهاجرين، وكان العباس جهير الصوت، فسمعه القوم، فكر عدد منهم إلي النبي، استقبلوا هوازن بالقتال،ثم توافد المسلمون، واشتد القتال، وانتهت المعركة بأنتصار حاسم للمسلمين، فانهزمت هوازن، واستمر القتل في بني مالك من ثقيف، فقتل منهم يؤمئذ سبعون رجلاً، وفر مالك بن عوف إلي الطائف،بينما لاذت طائفة من هوازن إلى أوطاس وفرت طائفة من الأحلاف ثم ثقيف إلى نخلة فتعقبهم بعض الصحابة وقتلوا بنخلة دريد بن الصمة. ثم بعث الرسولﷺ إلي من اجتمع من فل هوازن بأوطاس أبا عامر عبيد الأشعري، فقتل أبو عامر بسهم، فتولي أبو موسي الأشعري القيادة وقتل قاتل عمه، واستمر القتل في بني نصر بن معاوية فقتل منهم نحو عشرة من المشركين. [1]

ثم أرجأ رسول اللهﷺ توزيع الغنائم ورد النساء والذرية إلي هوازن إلي حين عودته من الطائف، فقد عزم ﷺأن يمضي من حنين إلي الطائف مباشرة دون أن يعرج علي مكة، حتي يفتحها. وكان أهل الطائف قد استعدوا للحصار، فرمموا حصنهم وجمعوا فيه الميرة فسلك النبي في طريقه من الجعرانة إلي الطائف علي نخلة اليمانية ثم علي قرن، ثم علي المليح، ثم علي مجرة الرغاء من لية، وكلها من نواحي الطائف، وهدم في طريقه إلي الطائف حصناً ببحرة الرغاء لمالك بن عوف، وأطمأن لرجل من ثقيف.

فلما وصل رسول اللهﷺ بالمسلين إلي الطائف رمتهم ثقيف بالحجارة والنبال، فأصيب بالنبال جماعة من المسلمين، فنصب رسول الله منجنيقاً علي حصنهم رماهم به، ثم دخل نفر من المسلمين تحت دبابة من جلود البقر ودنوا بها من سور الطائف، فقذفتها ثقيف بسكك الحديد المحماة فأحرقتها، وأصيب من كان تحتها من المسلمين بنبال الرماة. وأقام رسول الله علي حصار الطائف خمس عشرة ليلة ثم رحل عنها إلي الجعرانة حيث رد علي هوازن أبناءهم، وقسم الأموال بين المسلمين، ثم أعطي من نصيبه (الخميس) المؤلفة قلوبهم منهم: أبو سفيان بن حرب وابنه معاوية وحكيم بن حزام بن خويلد

---

[1] عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ١٣٢-١٣٤.

والحارث بن كلده والحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي . ثم اعتمر رسول الله من الجعرانة إلي مكة، ورجع إلي المدينة بعد أن استعمل علي مكة عتاب بن أسيد، فأقام الحج بالمسلمين تلك السنة، وهو أول أمير أقام الحج في الإسلام، فدخل المدينة في اليوم الرابع والعشرين من ذى القعدة. [1]

ولم يلبث بنو ثقيف أن أدركوا عبث مساوئهم للرسول، لقلة إمكاناتهم قياساً إلي إمكانات المسلمين، وخافوا أن يعود النبي ﷺ إليهم ليعاود قتالهم، فأرسلوا إليه وفداً يرأسه بن عمير، فصالحهم الرسول علي أن يسلموا ويقرهم علي ما في أيديهم من الأموال.

دور الاستخبارت فى غزوة حنين:

بعد فتح مكة قررت هوازن وسقيف أن تغزو المسلمين قبل أن يغزوهم فأرسل الرسولﷺ عبد الله بن أبى حدرة الأسلمى ليأتيه بالمعلومات اللازمة لإيقاف تحرك هوازن وسقيف.

يقول ابن إسحاق فلما سمع بهم النبىﷺ بعث إليهم عبد الله بن أبى حدرة وأمرة أن يدخل فى الناس فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ثم يأتيه بخبرهم فانطلق بن أبى حدرة فدخل فيهم وأقام حتى سمع وعلم ما قد اجمعوا عليه من حرب رسول اللهﷺ وسمع من مالك بن عوف قائد هوازن ثم أتى الرسولﷺ فأخبره الخبر، ومن خلال هذه المعلومات عرف النبى بنية الأعداء ومكان تجمعهم فقرر مهاجمة هذه القبائل ليحتفظ بالمبادرة بيد المسلمين، وقد مكنت يقظة رجال المخابرات وقدرة الجيش على الحركة السرعية من إجهاض تدابير العدو بالعدوان على المدينة.

ولقد أرسل المشركون دوريات استطلاع لمعرفة اتجاه حركة جيش المسلمين، والمواضع التى وصلوا إليها وكانت فائدة هذه الدوريات عظيمة لأنهم أنجزوا احتلال وادى حنين قبل وصول المسلمين إليهم وباغتوا المسلمين حين دخلوا فيهم ولولا دوريات استطلاعهم لما استطاعوا معرفة المواضع التى وصلها المسلمون فبنوا خطتهم على ضوء تلك المعلومات وأمكنهم مباغتة جيش المسلمين.

لم تنجر مقدمة جيش المسلمين هذا الواجب حيث أنها لم تستطع معرفة مواضع المشركين التى احتلوها فى وادى حنين واندفعت المقدمة بسرعة مباغتة على غير هدى وبصيرة، واندفعت ورائها قوات المسلمين باعتقادها أن اندفاعها هذا آمن وغير خطر.

إن من أهم أسباب هزيمة المسلمين فى معركة حنين عدم قيام مقدمتهم بواجبها، فلم تحصل على المعلومات عن مواضع تجمعات العدو ولم تمنع مباغتة العدو للقسم الأكبر.

---

[1] تاريخ خليفة بن خياط، ص ٨٨، ٨٩.

د- **غزوة تبوك وتوحيد جزيرة العرب:**

تعتبر غزوة تبوك وما يليها من شمال الحجاز مثل أيلة وأذرح ومقنا والحرباء آخر غزوة غزاها النبي صلي الله عليه وسلم بنفسه. ففي رجب من العام التاسع للهجرة عزم رسول الله علي تجهيز جيش بقيادته لغزو المناطق الشامية الواقعة علي تخوم الحجاز، منذ أن بلغته الأنباء بقيام صاحب تبوك بحشد جموع كبيرة من الروم ومنتصرة العرب. [١]

فأذن رسول الله بغزو الروم، واتفق أن استنفاره جاء في أوان حر شديد حين طاب أول الثمر، وفي عام جدب، ولهذا السبب قوبل الاستنفار بفتور من المنافقين وتثاقل من بعض الصحابة، وساعد علي ذلك الشعور أن نفراً من المنافقين كانوا يجتمعون في بيت سويلم اليهودي عند بئر جاسوم يثبطون الناس عن المضي للغزو فبعث رسول الله طلحة بن عبيد الله في نفر من المسلمين وأمرهم بإحتراق البيت عليهم ، ففعلوا.

ثم خرج رسول الله من المدينة فتخلف عبد الله بن أبي بن سلول مع جماعة من أهل النفاق والريب يتراوح عددهم ما بين السبعين والثمانين، واستمر النبي ﷺفي مسيرته حتي وصل إلي تبوك، فلم يلق بها كيداً ، وصالحه أهلها علي الجزية. وأقام بها عشرين ليلة، وأتاه إليها وهو بها يحنه بن رؤبة صاحب أيلة، فصالحه علي أن يؤدي عن كل حالم بأرضه ديناراً في السنة، فبلغ ذلك ٣٠٠ دينار. واشترط عليهم أن يقروا من يمر بهم من المسلمين. كما قدم عليه وهو بتبوك أهل أذرح فصالحهم علي مائة دينار في كل شهر رجب، وصالح أهل الجرباء علي الجزية، وأهل مقنا اليهود علي ربع أشجارهم وربع سلاحهم وربع ثمارهم. وكتب لأهل جرباء كتاباً نصه: "هذا كتاب من محمد النبي رسول الله، أنهم آمنون بأمان الله أمان محمد، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة والله كفيل عليهم. وكتب لأهل مقنا عهداً نصه:" بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلي بني حبيبة وأهل مقنا . سلم أنتم. فإنه أنزل علي أنكم راجعون قريتكم، فإذا جاءكم كتابي هذا فإنكم آمنون، ولكم ذمة الله وذمة رسوله. فإن رسول الله قد غفر لكم ذنوبكم وكل دم أتبعتم به، لا شريك لكم في قريتكم إلا رسول الله أو رسول رسول الله وإنه لا ظلم عليكم ولا عدواً وأن رسول الله ﷺ يجيركم مما يجير منه نفسه، فإن لرسول

---

[١] تاريخ خليفة بن خياط، ص ٩٢-٩٣.

الله بزتكم ورقيقكم والكراع والحلقة إلا ما عفا عنه رسول الله، أو رسول رسول الله وإن عليكم بعد ذلك ربع ما أخرجت نخيلكم وربع ما صادت عرككم، وربع ما اعتزلت نساؤكم. (١)

وأنكم قد برئتم بعد ذلكم، ورفعكم رسول اللهﷺ عن كل جزية وسخرة فإن سمعتم وأطعتم فعلي رسول الله أن يكرم كريمكم ويعفو عن مسيئكم، ومن ائتمر في بني حبيبة وأهل مقنا من المسلمين خيراً فهو خير له، ومن أطلعهم بشر فهو شر له. وليس عليكم أمير إلا من أنفسكم أو من أهل بيت رسول الله ﷺ. وكتب علي بن أبي طالب في سنة تسع".

وبعث رسول اللهﷺ خالد بن الوليد إلي أكيدر بن عبد الملك الكندي بدومة الجندل حتي يضمن بذلك خضوع كل منطقة شمال الحجاز والبادية للدولة العربية الإسلامية فلا يتمكن أهلها من إعانة الروم إذا ما قدموا إلي بلاد الحجاز من هذه الناحية. ويذكر المؤرخون أن خالد تمكن من أسر أكيدر وقدم به علي رسول الله، فعفا عنه عندما أعلن إسلامه، وصالحه علي الجزية وكتب له ولأهل دومة الجندل كتاباً جاء فيه:" هذا كتاب من محمد رسول الله لأكيدر حين أجاب إلي الإسلام وخلع الأنداد والأصنام ولأهل دومة. إن لنا الضاحية من الضحل، والبور والمعامي وأغفال الأرض، والحلقة والسلاح والحافر والحصن ولكم الضامنة من النخل والمعين من المعمور. ولا تعدل سارحتكم ولا تعد فاردتكم، ولا يحظر عليكم النبات، تقيمون الصلاة لوقتها، وتؤتون الزكاة بحقها، عليكم بذلك عهد الله والميثاق ولكم به الصدق والوفاء شهد الله من حضر من المسلمين"، وكان أكيدر قد تنازل للمسلمين عن ألفي بعير وثمانمائة رأس وأربعمائة درع وأربعمائة رمح. (٢)

ثم انصرف رسول الله ﷺ إلي المدينة بعد عشرين ليلة قضاها في تبوك لم يتجاوزها، فوصل إلي المدينة في رمضان سنة تسع من الهجرة.

ولما حان موعد الحج، عهد رسول الله ﷺ إلي أبي بكر بإمارة الحج، وذلك في نهاية العام التاسع، ثم أصدر بيان براءة تضمنتها سورة من سورة القرآن الكريم هي سورة التوبة، وفوض إلي علي بن أبي طالب مهمة قراءتها علي مشهد من جميع الحجاج بمكة، وفي هذا البيان نبذ عهوده التي كان قد عقدها مع القبائل التي وادعها والتي لم تدخل بعد في الإسلام، وألغي كل عقد أبرمه معها، وأمهل هذه القبائل أربعة أشهر لإشهار إسلامها والدخول في الدولة العربية الإسلامية وإلا اعتبروا خارجين

---

(١) الطبرى: تاريخ الأمم، ج٢، ص ١٠٠-١٠٩.

(٢) عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ١٣٤-١٣٧.

علي نظامها ووجب علي المسلمين محاربتهم ، وجاء في البيان أن مكة أصبحت بحرمها إسلامية بعد أن برئت الكعبة من الأصنام، وأن الحج أصبح يجري علي الطريقة الإسلامية، وانه لا يجوز لغير المسلم أن يحج ويقرب من المسجد الحرام، ويتعرض البيان للمنافقين فينذرهم بالعقاب. وتبدأ السورة المذكورة بذكر براءة صادرة من الله ورسوله إلي المعاهدين من المشركين، ومعني هذا أن الله برئ من المشركين وأنه لا عهود بينهم وبين الدولة الإسلامية، وهو لذلك يمهلهم فرصة أربعة أشهر للدخول في الإسلام وفي الدولة الإسلامية أو يعتبروا في نظر الإسلام خارجين علي الدولة الإسلامية ووجبت محاربتهم.

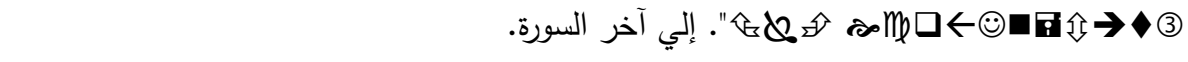

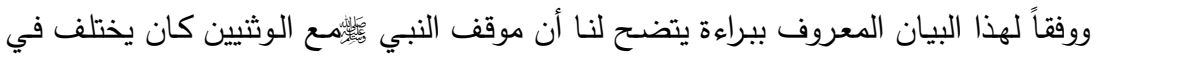

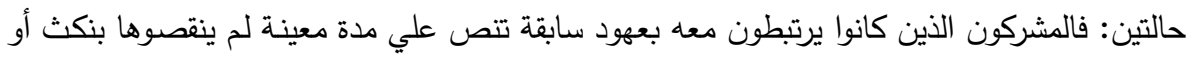

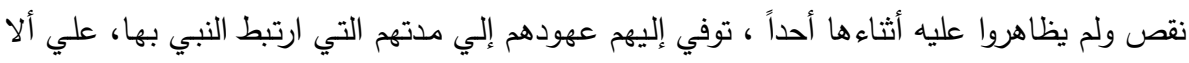

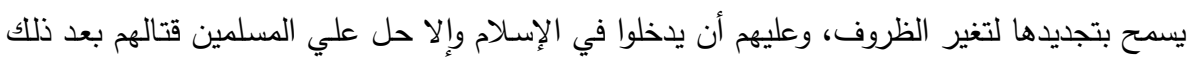

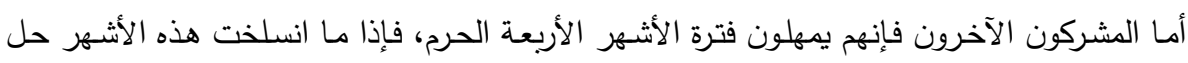

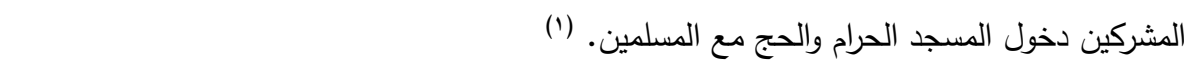

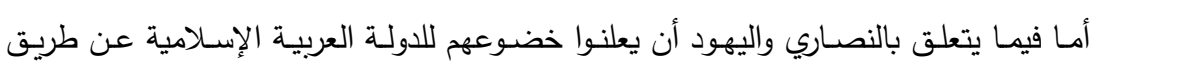

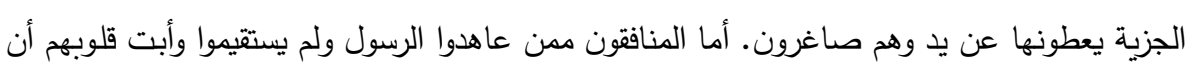

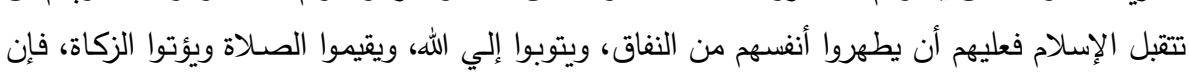

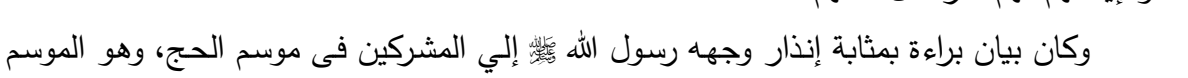

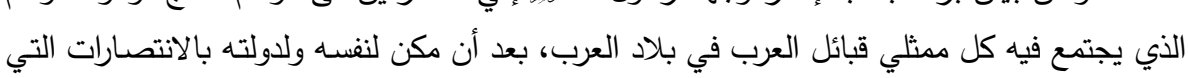

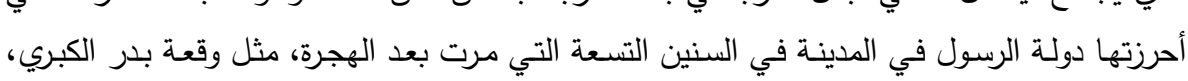

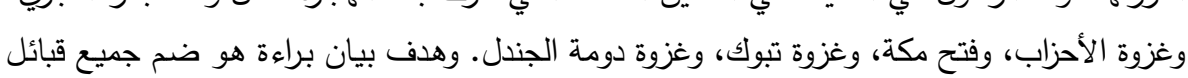

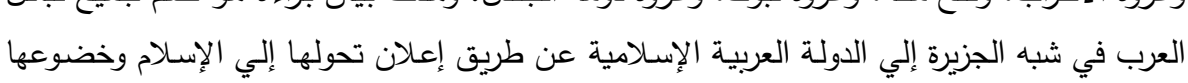

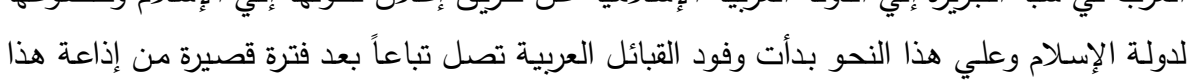

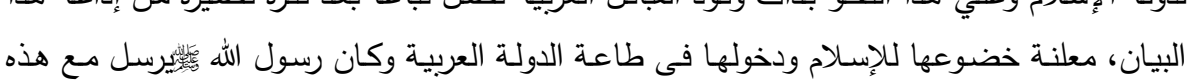

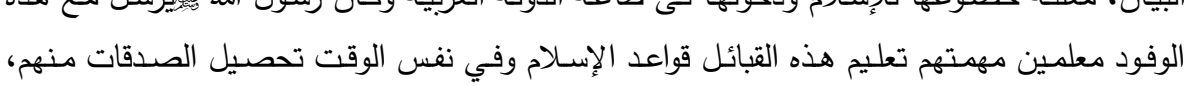

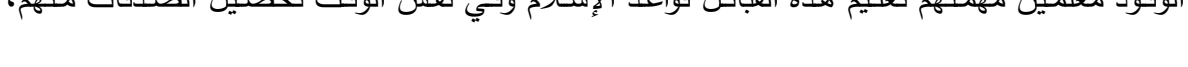

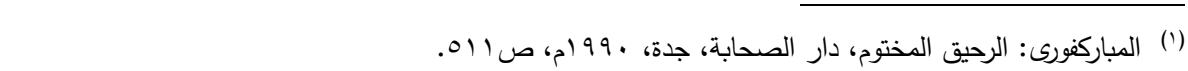

ووفقاً لهذا البيان المعروف ببراءة يتضح لنا أن موقف النبي ﷺمع الوثنيين كان يختلف في حالتين: فالمشركون الذين كانوا يرتبطون معه بعهود سابقة تنص علي مدة معينة لم ينقصوها بنكث أو نقص ولم يظاهروا عليه أثناءها أحداً ، توفي إليهم عهودهم إلي مدتهم التي ارتبط النبي بها، علي ألا يسمح بتجديدها لتغير الظروف، وعليهم أن يدخلوا في الإسلام وإلا حل علي المسلمين قتالهم بعد ذلك أما المشركون الآخرون فإنهم يمهلون فترة الأشهر الأربعة الحرم، فإذا ما انسلخت هذه الأشهر حل للمسلمين قتالهم أينما وجدوهم حتي يتوبوا إلي الله ويعتنقوا الإسلام . ويحرم الله تعالي علي هؤلاء المشركين دخول المسجد الحرام والحج مع المسلمين. [1]

أما فيما يتعلق بالنصاري واليهود أن يعلنوا خضوعهم للدولة العربية الإسلامية عن طريق الجزية يعطونها عن يد وهم صاغرون. أما المنافقون ممن عاهدوا الرسول ولم يستقيموا وأبت قلوبهم أن تتقبل الإسلام فعليهم أن يطهروا أنفسهم من النفاق، ويتوبوا إلي الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإن نكثوا إيمانهم فهم كفرة حل قتالهم.

وكان بيان براءة بمثابة إنذار وجهه رسول الله ﷺ إلي المشركين فى موسم الحج، وهو الموسم الذي يجتمع فيه كل ممثلي قبائل العرب في بلاد العرب، بعد أن مكن لنفسه ولدولته بالانتصارات التي أحرزتها دولة الرسول في المدينة في السنين التسعة التي مرت بعد الهجرة، مثل وقعة بدر الكبري، وغزوة الأحزاب، وفتح مكة، وغزوة تبوك، وغزوة دومة الجندل. وهدف بيان براءة هو ضم جميع قبائل العرب في شبه الجزيرة إلي الدولة العربية الإسلامية عن طريق إعلان تحولها إلي الإسلام وخضوعها لدولة الإسلام وعلي هذا النحو بدأت وفود القبائل العربية تصل تباعاً بعد فترة قصيرة من إذاعة هذا البيان، معلنة خضوعها للإسلام ودخولها فى طاعة الدولة العربية وكان رسول الله ﷺيرسل مع هذه الوفود معلمين مهمتهم تعليم هذه القبائل قواعد الإسلام وفي نفس الوقت تحصيل الصدقات منهم،

---

[1] المباركفورى: الرحيق المختوم، دار الصحابة، جدة، ١٩٩٠م، ص٥١١.

وبفضل هؤلاء المعلمين دخلت قبائل العرب في الإسلام، ووصل الفائض من مال الصدقات بعد توزيع ما استلزم توزيعه علي فقراء هذه القبائل إلي المدينة.

وهكذا لم يحل العام العاشر للهجرة حتي كانت كل جزيرة العرب دولة عربية إسلامية موحدة، وعرف العام التاسع بعام الوفود، ففيه تواترت وفود العرب تعلن إذعانها للإسلام، وبوادر هذه الوحدة بدأت تظهر بعد عودة رسول الله من غزوة تبوك، فقد ذكر ابن سعد أنه لما رجع رسول الله من تبوك في العام التاسع قدم عليه وفد بني فزارة، وكان يتألف من بضعة عشر رجلا جاؤوا مقرين بالإسلام، كذلك قدم وفد بني مرة علي رسول الله عقب عودته من تبوك وكانوا ثلاثة عشر رجلاً، وفي هذا العام وفد إلي رسول الله وفد بني كلاب وكانوا ثلاثة عشر رجلاً ووفد قشير بن كلب بعد غزوة حنين، ووفد ثقيف ووفد بني البكاء ووفد تجيب ووفد بني عذرة ووفد بلي ووفد الداريين، وقدم في سنة عشر للهجرة وفد محارب ووفد خولان ووفد سلامان ووفد غسان ووفد بني الحارث بن كعب ووفد الرهاويين من بني مذحج ووفد بجيلة. وكان أول من أعطي الجزية للنبي من أهل الكتاب أهل نجران النصاري، ثم أهل أيلة وأذرح، وأهل أذرعات في غزوة تبوك، ثم فرضت الجزية في اليمن وهجر علي اليهود والمجوس من أهلها. غير أن الإسلام لم يلبث أن انتشر انتشاراً سريعاً فى اليمن وقد رأينا وفودهم تأتى المدينة معلنة دخولها في الإسلام، كما أن البعض الآخر ممن أصروا علي التمسك بدينهم القديم لم يلبثوا بدورهم أن اعتنقوا الإسلام، ويرجع سبب دخولهم في الإسلام إلي أن النبي أرسل إلي هذه القبائل المحافظة علي أديانها علي بن أبي طالب وخالد ابن الوليد لدعوتهم إلي الإسلام، وأوصاهما بقوله: "أمض ولا تلتفت، إذا نزلت بساحتهم فلا تقاتلهم حتي يقاتلوك" أما علي بن أبي طالب فقد اضطر إلي الدفاع عن نفسه عندما تحرش به جماعة من اليمنيين من مزحج فلما تغلب عليهم أجابوا دعوته إلي الإسلام. وأما خالد بن الوليد فقد مضي إلي بني الحارث بن كعب بنجران ودعاهم إلي الإسلام فأجابوه دون قتال، وقدم خالد ومعه وفد منهم لإعلان إسلامهم وكان النبي حريصاً علي إرسال معلمين إلي القبائل بقصد تعليمهم الشريعة الإسلامية وقواعد الإسلام. [١]

وجباة للصدقات فقد عهد الرسول ﷺ إلي عمرو بن حزم بالخروج إلي بني الحارث بن كعب ليعلمهم شرائع الإسلام ويفقههم في الدين ويجبي منهم الصدقات. كما ولي زياد بن لبيد حضر موت، والمهاجرين أبي أمية بن المغيرة المخزومي صنعاء، وأبا موسي الأشعري زبيد ورمع وعدن والساحل،

---

[١] ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص٩٦.

ومعاذ بن جبل الجندل، وصير إليه القضاء، وقبض جميع الصدقات باليمن، وولي عمرو بن حزم الأنصاري ثم أبا سفيان بن حرب علي نجران. وقد كتب رسول الله إلي زرعة بن ذي يزن زعيم حمير باليمن كتاباً يخبره فيه بتعيينه معاذ بن جبل علي الصدقات ، ونص الكتاب ما يلي:" أما بعد، فإذا أتاكم رسول معاذ بن جبل وأصحابه فاجمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية بأبلغوه ذلك ، فإن أمير رسلي معا، وهو من صالحي من قبلي، وإن مالك بن مرارة والرهاوي حدثني أنك قد أسلمت أول حمير وفارقت المشركين، فابشر بخير . وأنا آمركم يا معشر حمير ألا تخونوا ولا تحادوا، فإن رسول الله مولي غنيكم وفقيركم. وإن الصدقة لا تحل لمحمد، ولا لآله، إنما هي زكاة تزكون بها هي لفقراء المسلمين والمؤمنين. وإن مالكاً قد بلغ الخبر وحفظ الغيب، وإن معاذا من صالحي أهلي وذوي ديني ، فآمركم به خيراً ، فإنه منظور إليه والسلام". كذلك كتب إلي الحارث ابن عبد كلال، ونعمي بن عبد كلال، وشرح بن عبد كلال، وإلي النعمان قيل ذي رعين ومعافر وهمدان، كتاباً نصه:" أما بعد، فإن الله قد هداكم بهدايته إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله، وأقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة من المغانم خمس الله وسهم النبي وصفيه وما كتب الله علي المؤمنين من الصدقة من العقار عشر ما سقت العين وسقت السماء وما سقي بالقرب نصف العشر". [1]

كذلك أرسل النبي ﷺ إلي أزد عمان أبا زيد قيس سكن بن زيد، وقيل ثابت ابن زيد الأنصاري الخزرجي أحد من جمع القرآن علي عهد رسول الله ﷺ ليعلم أهلها الإسلام والقرآن والسنن. وأرسل النبي ﷺ إلي عرب عبد القيس وبكر ابن وائل وتميم بالبحرين العلاء بن عبد الله بن عماد الحضرمي ليدعو أهلها إلي الإسلام أو الجزية، وكتب معه إلي أميرها من قبل الفرس ويدعي المنذر بن ساوي وإلي مرزبان هجر واسمه سيبخت، ويدعوهما إلي الإسلام أو الجزية، فأسلما وأسلم معهما جميع العرب في هاتين المنطقتين وبعض العجم. أما المجوس واليهود والنصاري فقد صالحو العلاء علي الجزية بسبب تمسكهم بأديانهم ، فقال منافقو العرب وقتئذ:" زعم محمد لا يقبل الجزية إلا من أهل الكتاب، وقد قبلها من مجوس هجر وهم غير أهل كتاب"، فنزلت الآية الكريمة: " ◻✍☺❒⑨❍✵🕓◆③ ↘■❶↗▤↗✂ ☎✂❑↖☪◆✍✂◆↗ ◆✕⇦✍🔔➹✎✂ ✂◆❶✍☽ □✍✿➴ Ⅱ□✍ ☠↗📁❿❸⊂➤◆③ •• ☎ ⇗☠↗▤✿○→▦☼❒🕮 ★✎✂ ❼■🖫✍☽ 🗐 ⇔⚐🡐☞⇗③🖂⑨◆☞⇗♎✂ ☠↗▤↖◎✍○▭◆☪↖⑩◆▫ ✂✲➔⑩✍✐◆♎ ⇗☠↗▤↖➔⇦♉⇔❹◆✍

[1] البلاذرى: فتوح البلدان، تحقيق صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص ٧١.

". المائـــدة آيـــة ١٠٥.

وبدخول قبائل العرب في الإسلام، وقدوم وفودهم إلي المدينة في عامي ٩، ١٠ من الهجرة، تبدأ صفحة جديدة في تاريخ الدولة العربية الإسلامية ، التي أصبحت تضم جميع قبائل العرب على اختلاف أديانهم بأستثناء منازرة الحيرة وغساسنة جلق والجابية، وهؤلاء الغساسنة بوجه خاص كانوا يشكلون خطراً ماثلا علي الدولة العربية من الجهة الشمالية، وقد أدرك النبي هذه الحقيقة منذ أن اعترض شرحبيل بن عمرو الغساني رسول النبي وقتله، ومنذ أن احتك بهم المسلمون في غزوة موتة، ولذلك فقد عزم النبي ﷺ علي إنفاذ حملة جديدة لتأديبهم وأعد هذه الحملة وجعل علي قيادتها أسامة بن زيد بن حارثة، وكان هدفها غزو مشارف الشام (تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين)، ولكن لم يقدر لهذه الحملة أن تحقق مهمتها في حياة الرسول، وقدر أن يتم ذلك في بداية خلافة أبي بكر.

هـ- حجة الوداع (١٠هـ):

ثم حج النبي ﷺ حجة الوداع في ذي القعدة من العام العاشر ، وشهد انتصار الإسلام علي الوثنية ممثلا في الحشود الهائلة من الحجاج الذين امتلأت بهم ساحة الحرم ، وشهد النبي كيف ارتفعت كلمة الإسلام في هذا العدد الضخم من الحجاج الذي بلغ ما يقرب من مائة ألف حاج من العرب ليس بينهم مشرك واحد.

ولما أدي النبي ﷺ مناسك الحج علي النظام الإسلامي ، وخطب في المسلمين في عرفات خطبته الأخيرة، وعاد إلي المدينة في ١٤ من ذي الحجة سنة ١١هـ ثم مرض مرضه الذي مات فيه يوم ٢٧ صفر وهو في بيت ميمونة أم المؤمنين ، فأستأذن صلوات الله عليه نساءه أن يمرض في بيت عائشة فأذن له فى ذلك وطال مرضه ﷺ أثنى عشر يوماً وقبله أربعة عشر يوماً ثم قبض يوم الاثنين لاثنتي عشرة من ربيع الأول بعد أن أكمل رسالته، وأتم نعمته علي المسلمين أو كما قال الله تعالي "اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً" . [١]

[١] الطبرى: تاريخ الأمم، ج٣، ص ١٤٨ وما يليها.

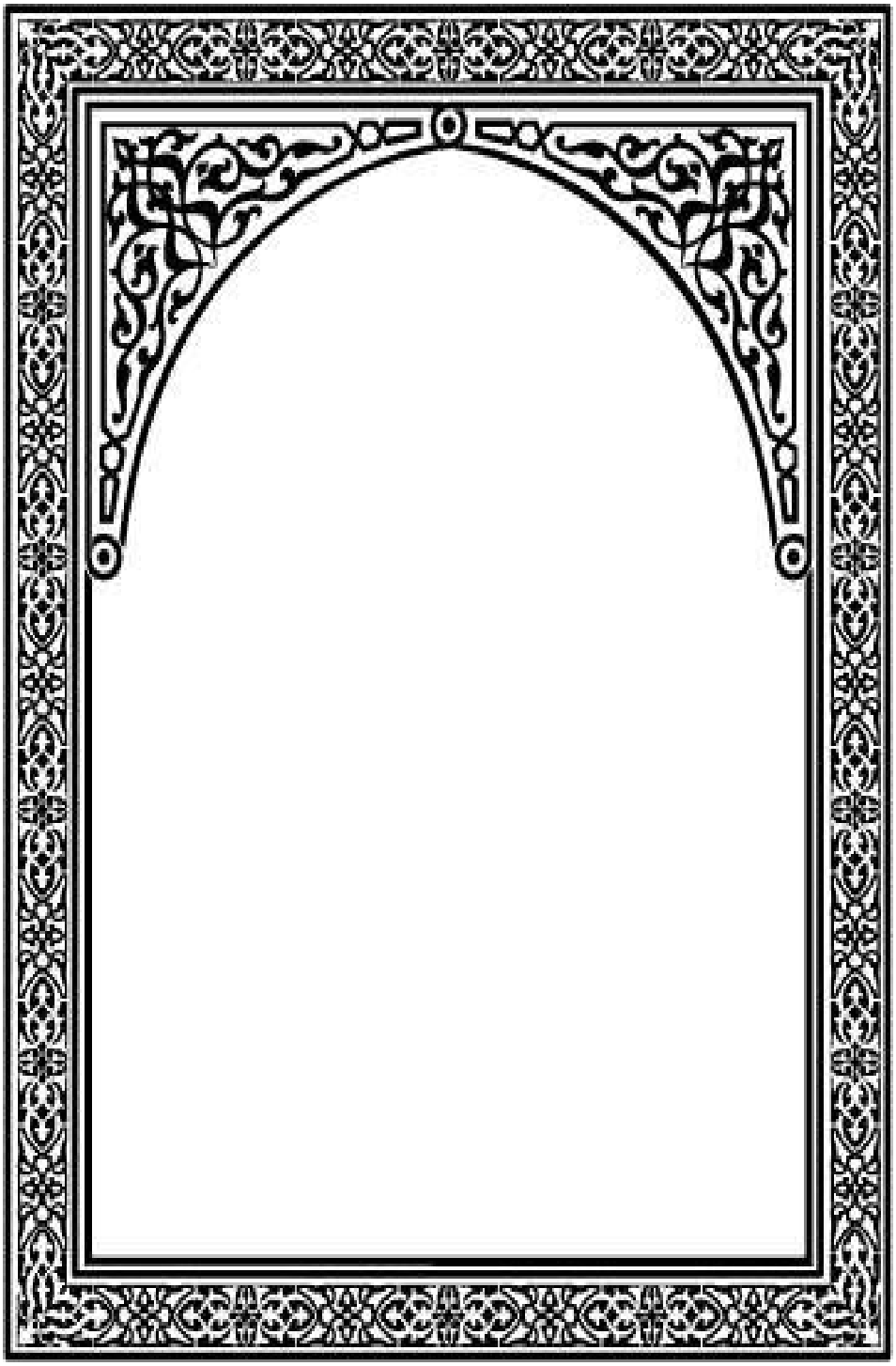

ث

ن

لادية

الفصل الرابع

عصر الخلفاء الراشدون
(١١-٤٠هـ/ ٦٣٢-٦٦١م)

مبدأ ونهاية حكم الخلفاء الراشدين:

السنوات الهجرية	الخلفاء الراشدون	السنوات الميلادية
١١	أبو بكر الصديق	٦٣٢
١٣	عمر بن الخطاب	٦٣٤
٢٣	عثمان بن عفان	٦٤٤
٣٥-٤٠	على بن أبى طالب	٦٥٦-٦٦١

أزمة الحكم بعد وفاة الرسولﷺ:

كان لشخصية الرسول آثر كبير فى نفوس العرب حتى أنهم لم يصدقوا موته عندما علموا به، فلما تحققوا من ذلك، شك فريق منهم فى أمر هذا الدين الذى أتى به، وارتد كثير منهم عن الإسلام، لأنه لم يكن قد تمكن من قلوبهم بعد، فأخذ كبار الصحابة يفكرون فى أمر المسلمين ليواجهوا الموقف الجديد، ورأوا أنه لابد للمسلمين من رئيس يتولى شئونهم ويتدبر أمورهم.

وقد اختلفت آراء المسلمين فيمن يتزعمهم وظهرت بينهم روح التعصب القبلى، وأخيراً استقر الرأى على أن يكون للرسول خليفة، يأمر بالعدل وينهى عن المنكر ويؤم الناس فى الصلاة. ولكن الصحابة اختلفوا فى كيفية اختياره: لأنه لم يؤثر عن الرسول نص صريح يشير فيه إلى مسألة الحكم من بعده كما أن القرآن لم يشر إلى نظام الحكم بعد وفاته.

وكان من أثر ذلك أن ظهر الانقسام بين صفوف المسلمين، واشتدت وطأة هذه الأزمة السياسية، وتسابقت القبائل والبطون ليكون لها الأمر دون غيرها وتكشف ما فى الصدور، وتجلت النفس العربية والطبيعة القبلية فكان الأوس والخزرج يخشى كل منهما صاحبه ويخافون المهاجرين، حتى إذا كثرت المناقشات تصدى لحلها بعض زعماء المسلمين من أمثال أبى بكر وعمر بن الخطاب وأبى عبيدة بن الجراح.

الخليفة أبو بكر الصديق ﷺ (١١-١٣هـ/٦٣٣-٦٣٤م)

بيعة السقيفة:

ذهب الأنصار إلى سقيفة بنى ساعدة ليختاروا من بينهم خليفة للمسلمين، وقد خطبهم سعد بن عبادة زعيم الخزرج فقال ".... يا معشر الأنصار إن لكم سابقة فى الدين وفضيلة فى الإسلام ليست لقبيلة من العرب"، وأوضح لهم أنهم أحق بالخلافة من غيرهم، واتفقت كلمتهم على اختياره، غير أن كبار الصحابة أمثال أبى بكر وعمر وأبى عبيدة عندما علموا باجتماع الأنصار أسرعوا إليهم واشتركوا معهم فى المناقشة وأقنعوهم بضرورة اختيار الخليفة من قريش بحجة أن العرب لا يدينون إلا للقرشيين، وقد حاول الأنصار أن يقتسموا السلطة بأن يكون من المهاجرين أمير ومن الأنصار أمير، ولكن رفض طلبهم ولم يلق قبولا.[١]

عرض أبوبكر على الحاضرين أن يختاروا واحداً من اثنين هما: عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح، ولكن عمر بن الخطاب خشى أن يترك الناس فيختلفوا ويضيع الأثر الذى أحدثه كلام أبى بكر، فقام إلى أبى بكر وبايعه بالخلافة وقال له ألم يأمر النبى ﷺ بأن تصلى أنت يا أبا بكر بالمسلمين، فأنت خليفة، ونحن نبايعك فأنت خير منا جميعاً". وقد قال عمر بن الخطاب إنه أشفق من أن يختلف المسلمون، فقال لأبى بكر: "أبسط يدك أبايعك"، فبسط أبو بكر يده، فبايعه عمر ومن بعده المهاجرون والأنصار، وقد أضاف عمر إلى ذلك قوله: "وإنا والله ما وجدنا أمراً هو أقوى من مبايعة أبى بكر، خشينا أن فارقنا القوم ولم تكن بيعة، فإما أن نبايعهم على مالا نرضى أو نخالفهم فيكون فساد".

وبعد أن بايع عمر أبا بكر تبعه الحاضرون فى اجتماع السقيفة، وقد ساعد على إتمام هذه البيعة خوف الأوس من أن تكون الخلافة فى الخزرج أعداءهم القدماء، وهذه البيعة تسمى البيعة الخاصة، وفى اليوم التالى أخذ أبو بكر البيعة فى المسجد وتسمى البيعة العامة، وبذلك أصبح خليفة للمسلمين.

كان أبو بكر يسمى فى الجاهلية عبد الكعبة لأن الكعبة كانت رمز العبادة فى الجاهلية، وسماه الرسول عبد الله، وسمى بالصديق لأنه أول من صدق برسالة الرسول من الرجال. وهو من كبار رجال العرب فى الجاهلية، وكان يفصل فى بعض القضايا، وأنفق معظم ثروته فى نشر الإسلام، وقد أسلم

---

[١] السيوطى: تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربى، القاهرة، ص ٣٨.

على يده كثير من العرب أشهرهم: عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وطلحة بن عبيد الله، وكان أبو بكر رفيق الرسول وساعده الأيمن فتحمل كثيراً من العنت وتعرض لكثير من الأخطار، وكان رفيقه فى الغار يوم هاجر من مكة إلى يثرب، وكان الرسول يثق فيه ويستشيره فى خواص الأمور حتى أنه قال فى آخر خطبة له "... إنى لا أعلم أحداً كان أفضل عندى فى الصحبة بدأ منه". [١]

ورغم ذلك فقد تخلف على بن أبى طالب رضي الله عنه فى مبايعة أبى بكر، لاعتقاده بأحقيته عنه فى الخلافة: فهو أول من اعتنق الإسلام من الصبيان، وهو ابن عم الرسول، وزوج ابنته فاطمة التى ولدت له الحسن والحسين، كما أنه يمتاز بشجاعته وفروسيته. وتأخرت بيعة على لأبى بكر حتى قيل إنها حدثت بعد أربعين يوماً من اختياره خليفة، وقيل إنها وقعت بعد ثلاثة أشهر، وفى رأى آخر أنها تمت بعد ستة شهور. وناصر علياً فى موقفه العباس وطلحة والزبير. [٢]

وبعد أن أخذ أبو بكر البيعة فى المسجد، خطب الحاضرين خطبته المشهورة فقال: "أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى وإن صدفت فقومونى. الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى أخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا قوم ضربهم الله بالذل، ولا تشيع فاحشة فى قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء" أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسول فلا طاعة لى عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحكم الله".

حروب الردة: (١١هـ – ١٣هـ./٦٣٢م. – ٦٣٤م.)

حروب الرّدّة هي الحروب التي حدثت بعد وفاة رّسول الإسلام محمد ﷺ بسبب إرتداد غالبيّة العرب عن الإسلام، فلم يبقَ مواليًا لحكم أبي بكر سوى القبائل المحيطة بالمدينة بالإضافة إلى سكان المدينة، ومكة، والطائف. لقد قرّر الخليفة أبو بكر الصّديق مقاتلة جميع المرتدّين ولم يترك احدًا منهم رغم توجّه بعض الصّحابة إليه أن يترك من امتنع عن دفع الزّكاة من القبائل. فأرسل الجيوش الإسلاميّة بقيادة

---

[١] أحمد الشريف : دولة الرسول فى المدينة ، دار الفكر العربى، القاهرة، د.ت، ص ٨٨-٨٩.

[٢] الطبرى : تاريخ الأمم، ج٣، ص ٢١٨.

عكرمة بن أبي جهل لمحاربة لقيط بن مالك في دبا[1] فحاربه حتى قتل في المعركة. ومن ثم خالد بن الوليد لمحاربة مسيلمة الكذاب. وإنتصر خالد على مسيلمة في معركة اليمامة التي كانت من أقسى المعارك التي خاضها المسلمون.

تعددت ألوان الردة وانتفضت الجزيرة العربية على أبى بكر ومن معه من صفوة المسلمين ولم يثبت على الإيمان إلا مثلث المدينة ومكة والطائف.

عقد أبو بكر أحد عشر لواءاً على أحد عشر جيشاً وأمر كل أمير جند باستنفار من مر به من المسلمين من أهل القوة:

اللواء الأول: و على رأسه خالد بن الوليد ووجهه إلى طليحة، فإذا فرغ منه صار إلى مالك بن نويره اليربوعى زعيم بنى يربوع، وتعاون مالك مع سجاح وحارب معها القبائل.

اللواء الثانى: على رأسه عكرمة بن أبى جهل ووجهه إلى مسيلمة الكذاب زعيم قبائل بنى حنيفة.

اللواء الثالث: وعلى رأسه شرحبيل بن حسنة وقد جعله أبو بكر مدداً لعكرمة بعد أن ينتهى المسلمون من أمر مسيلمه فإذا انتهوا منه صار شرحبيل إلى بلاد قضاعة ليكون مدداً لعمرو بن العاص.

اللواء الرابع: وعلى رأسه المهاجر بن أمية ووجهه إلى جنود الأسود العنسى فى اليمن.

اللواء الخامس: وعلى رأسه سويد بن مقرن ووجهه إلى تهامة.

اللواء السادس: وعلى رأسه العلاء بن الحضرمى ووجهه إلى البحرين.

اللواء السابع: وعلى رأسه حذيفة بن محط ووجهه إلى عمان.

اللواء الثامن: وعلى رأسه عرفجة بن هرثمة ووجهه إلى مهرة. [2]

وقد وجه أبو بكر ثلاثة من الألوية إلى شمال الجزيرة العربية على النحو التالى:

اللواء الأول: وعلى رأسه عمرو بن العاص لقتال قضاعة.

اللواء الثانى: على رأسه معن بن حاجز لقتال بنى سليم ومن انضم إليهم من هوازن.

---

١ () دبا الفجيرة: مدينة تاريخية على بحر العرب شمالي إمارة الفجيرة وتابعة لها، اشتهرت في صدر الإسلام أثناء حروب الردة، أراضيها خصبة الأمر الذي أدى إلى ازدهار الزراعة فيها. و قد شهدت ازدهار صناعياً وتجارياً بفضل عودة النشاط إلى مينائها وشبكة الطرقات التي تصلها بمختلف نواحي دولة الإمارات.

[2] ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤، ط١، دار التقوى، القاهرة، ١٩٩٩م، ص٢٠٩.

اللواء الثالث: وعلى رأسه خالد بن سعيد لتتبع المرتدين والخرجين على مشارف الشام. [1]

[1] أكرم ضياء العمرى: عصر الخلافة الراشدة، ط١، المدينة المنورة، ١٩٩٤، ص ٣٦٠.

مسيلمة بن حبيب الحنفى (مسيلمة الكذاب):

مسلمة بن حبيب الملقّب بالكذاب رجل من بني حنيفة، يقال إن اسمه مسلمة وأن المؤرخين المسلمين يذكرونه باسم مسيلمة استحقاراً له كان قد تسمى بالرحمان فكان يقال له رحمان اليمامة، وكان يعمل كثيراً من أعمال الدجل، وادعى النبوة في عهد النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم وشهد له أحد أتباعه أنه سمع الرسول يقول: أنه أشرك معه مسيلمة في الأمر، وتابعه كثير من أهل اليمامة، وخاصة من بني حنيفة، وكان يدعي الكرامات، ويقول المسلمون :(فأظهر الله كذبه ولصق به لقب الكذاب، وأراد إظهار كرامات تشبه معجزات النبي ، فقد ذكر ابن كثير في البداية أنه بصق في بئر فغاض ماؤها، وفي أخرى فصار ماؤها أجاجاً، وسقى بوضوئه نخلا فيبست، وأتى بولدان يبرك عليهم فمسح على رؤوسهم فمنهم من قرع رأسه ومنهم من لثغ لسانه، ودعا لرجل أصابه وجع في عينيه فمسحهما فعمي.و تزوج من سجاح, مدعية النبوه أيضاً. [١]

قتل في حديقة الموت بمعركة اليمامة أيام خلافة ابي بكر ، وقيل إن عمره حينئذ كان يناهز مائة وخمسين سنة، وقيل: إن الذي قتله وحشي بن حرب قاتل حمزة بن عبد المطلب يوم معركة أحد، عندما ادَّعى "مسيلمة الكذاب" النبوة قال له أتباعه: "إن محمدًا يقرأ قرآنًا يأتيه من السماء فاقرأ علينا شيئًا مما يأتيك من السماء"، فقال لهم: "يا ضفدع يا ضفدعين .. نُقِّي ما تَنُقِّين .. نصفُكِ في الماء ونصفك في الطين"، فتقزز أتباعه مما سمعوا وعلموا أنه ليس وحي سماء بل هذيان معتوه، وانبرى له من بينهم أحد الأعراب قائلاً: "والله إني لأعلم أنك كذَّاب، وأعلم أن محمدًا صادقٌ، ولكن كذابُ ربيعة أحبُ إليَّ من صادق مضر"..

---

[١] اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى، ج٢، ص ١٣٠.

معركة اليمامة:

لما توفي رسول الله -ﷺ- ارتدت العرب عدا أهل المسجدين مكة والمدينة، وانحاز إلى مسيلمة الكذاب بنو حنيفة وخلق كثير باليمامة حتى بلغوا نحوا من أربعين ألفا، فبعث أبو بكر -رضي الله عنه- خالد بن الوليد إلى قتالهم وحشد معه المسلمين، فسار لا يمر بأحد من المرتدين إلا نكل بهم، وأردف الصديق خالداً بسرية لتكون ردءاً له من وراءه.

فلما سمع مسيلمة بقدوم خالد عسكر بمكان يقال له عقرباء في طرف اليمامة، والريف وراء ظهورهم، وندب الناس وحثهم، فحشد له أهل اليمامة، وجعل على مجنبتي جيشه المحكم بن الطفيل ونهار الرجال بن عنفوة، وكان الرجال صديقه الذي شهد له كذباً أنه سمع رسول الله -ﷺ- يقول إنه أشرك معه مسيلمة في الأمر، وقرب خالد وقد جعل على المقدمة شرحبيل بن حسنة وعلى المجنبتين زيد بن الخطاب وأبا حذيفة، وقد مرت المقدمة بالليل بنحو من أربعين -وقيل ستين- فارساً عليهم مجاعة بن مرارة، وكان قد ذهب لأخذ ثأر له من بني تميم وبني عامر وهو راجع إلى قومه فأخذوهم، فلما جيء بهم إلى خالد قال لهم: "ماذا تقولون يا بني حنيفة؟"، قالوا: "نقول منا نبي ومنكم نبي"، فقتلهم إلا واحداً اسمه سارية بن عامر، فقال له: "أيها الرجل إن كنت تريد بهذه القرية غداً خيراً، أو شراً فاستبق هذا الرجل -يعني مجاعة بن مرارة-"، فاستبقاه خالد مقيداً وجعله في الخيمة مع امرأته، وقال: "استوصي به خيراً". [1]

وتقدم المسلمون حتى نزل بهم خالد على كثيب يشرف على اليمامة، وكانت راية المهاجرين مع سالم مولى أبي حذيفة، وراية الأنصار مع ثابت بن قيس بن شماس، والعرب على راياتها، فاصطدم المسلمون والكفار فكانت جولة، وانهزمت الأعراب حتى دخلت بنو حنيفة خيمة خالد بن الوليد وقتل زيد بن الخطاب الرجال بن عنفوة لعنه الله، ثم تذامر الصحابة بينهم، وقال ثابت بن قيس: "بئس ما عودتم أقرانكم"، فنادوا من كل جانب، فخلصت إليهم ثلة من المهاجرين والأنصار، وقاتلت بنو حنيفة قتالاً لم يعهد مثله، وجعل الصحابة يتواصون بينهم ويقولون: "يا أصحاب سورة البقرة بطل السحر اليوم"، وحفر ثابت بن قيس لقدميه في الأرض إلى أنصاف ساقيه وهو حامل لواء الأنصار بعدما تحنط وتكفن، فلم يزل ثابتاً حتى قُتل هناك، وقال المهاجرون لسالم مولى أبي حذيفة: "نخشى أن نؤتى من قبلك؟"، فقال: "بئس حامل القرآن أنا إذاً"، وقال زيد بن الخطاب: "أيها الناس عضوا على أضراسكم واضربوا في

---

[1] أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، ج١، ص١٩٦.

عدوكم وامضوا قدماً"، وقال: "والله لا أتكلم اليوم حتى يهزمهم الله، وألقى الله فأكلمه بحجتي"، فقتل شهيداً –رضي الله عنه– وقال أبوحذيفة: "يا أهل القرآن زينوا القرآن بالفعال"، وحملوا عليهم وحمل خالد بن الوليد وجعل يترقب أن يصل إلى مسيلمة فيقتله، ثم وقف بين الصفين ودعا إلى البراز وقال أنا ابن الوليد العود، أنا ابن عامر وزيد، وجعل لا يبرز له أحد إلا قتله.

ودارت رحى المسلمين ثم اقترب من مسيلمة فعرض عليه الرجوع إلى الحق فجعل شيطانه يلوي عنقه لا يقبل من خالد شيء، فانصرف عنه خالد، وميز خالد المهاجرين من الأنصار من الأعراب، وجعل كل بني أب على رايتهم يقاتلون تحتها حتى يعرف الناس من أين يأتون، وصبر الصحابة في هذا الموطن صبراً لم يعهد مثله، ولم يزالوا يتقدمون إلى نحور عدوهم حتى فتح الله عليهم، وولى الكفار الأدبار، واتبعونهم يقتلونهم حتى ألجؤوهم إلى حديقة الموت، وقد أشار عليهم المحكم بن الطفيل – لعنه الله – بدخولها فدخلوها وفيها مسيلمة الكذاب عدو الله – لعنه الله –.

وأدرك عبد الرحمن بن أبي بكر المحكم بن الطفيل فرماه بسهم في عنقه وهو يخطب فقتله، وأغلقت الحديقة عليهم، وأحاط بهم الصحابة، وقال البراء بن مالك: "يا معشر المسلمين ألقوني عليهم في الحديقة"، فاحتملوه فوق الدروع، ورفعوها بالرماح حتى ألقوه عليهم من فوق سورها، فلم يزل يقاتلهم دون بابها حتى فتحه، ودخل المسلمون الحديقة من حيطانها وأبوابها يقتلون من فيها من المرتدة من أهل اليمامة حتى خلصوا إلى مسيلمة –لعنه الله– وإذا هو واقف في فرجة في جدار كأنه جمل أورق، وهو لا يعقل من الغيظ، وكان إذا اعتراه شيطانه يخرج الزبد من شدقيه، فتقدم إليه وحشي بن حرب مولى جبير بن مطعم –قاتل حمزة بن عبد المطلب– فرماه بحربته فأصابه، وخرجت من الجانب الآخر، وسارع إليه أبو دجانة سماك بن خرشة فضربه بالسيف فسقط، فكان جملة من قتلوا في الحديقة وفي المعركة قريباً من عشرة آلاف مقاتل – وقيل أحد وعشرون ألفاً – وقتل من المسلمين ستمائة، وفيهم من سادات الصحابة وأعيان الناس.

وخرج خالد وتبعه مجاعة بن مرارة يرسف في قيوده، فجعل يريه القتلى ليعرف مسيلمة، فمروا بالرجال بن عنفوة، فقال له خالد: "أهذا هو؟"، قال: "لا والله، هذا خير منه، هذا الرجال بن عنفوة"، ثم مروا برجل أفطس الأنف أصفر فقال: "هذا صاحبكم؟"، قال: "نعم"، قال خالد: "قبحكم الله على اتباعكم هذا".

ثم بعث خالد الخيول حول اليمامة يلتقطون ما حول حصونها من مال وسبي، ثم عزم خالد على غزو الحصون، ولم يكن بقي فيها إلا النساء والصبيان والشيوخ الكبار، فخدعه مجاعة بن مرارة فقال إنها ملأى رجالاً ومقاتلة فهلم فصالحني عنها، فصالحه خالد لما رأى بالمسلمين من الجهد، وقد كلوا من كثرة الحروب والقتال، فصالحه خالد على الذهب والفضة والسلاح وربع السبي، فلما فرغا فتحت الحصون فإذا ليس فيها إلا النساء والصبيان، فقال خالد لمجاعة: "ويحك خدعتني"، قال: "قومي ولم أستطع إلا ما صنعت"، ودعاهم خالد إلى الإسلام، فأسلموا عن آخرهم، ورجعوا إلى الحق، ورد عليهم خالد بعض ما كان أخذ من السبي، وساق الباقين إلى الصديق، وقد تسرى علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – بجارية منهم، وهي أم ابنه محمد الذي يقال له محمد بن الحنفية –رحمه الله– وكانت هذه الموقعة في آخر السنة الحادية عشر من الهجرة وأول السنة الثانية عشر من الهجرة النبوية الشريفة[1].

خالد وطليحة:

كان طليحة من أولئك الذين أدعوا النبوة والتف حوله قومه من بنى أسد وأن فلول قبائل عبس وذبيان ومن آزرهم انضمت إليه بعد هزيمه المسلمين لهم فى زى القصة والربذة، وتابعهم فى هذا الأمر قبائل طئ وغطفان وسليم وغيرها.

عمل أبو بكر على التغلب على طلحة فكلف عدى بن حاتم الطائى أن يمضى إلى قومه من بنى طئ وهم غير متفقين فريق خارج على الخليفة وينضم إلى طليحه وفريق يحج عن العصيان ويؤثر البقاء والانتظار فنصحهم طئ فلقى كلامه منهم موافقة وسألوه أن يتوسط لدى أبى بكر ليمهلهم حتى يسترجعوا من لحق بطليحة من قبيلتهم لئلا يفتك بهم ووعدوا بانضمامهم جميعاً إلى جيش المسلمين[2].

سير أبو بكر خالد بن الوليد فى أربعة آلاف جندى لقتال طليحة ولم يعلن عن سير خالد إلى بذاخة حيث يقيم طليحة وأتباعه وصل خالد إلى بذاخة لمقاتلة طليحة مما جعل طليحة يرسل من عنده من طئ لنجدة إخوانهم والدفاع عن بلاده.

---

١ () ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٦، ص٣٥٥ وما بعدها.

٢ () الطبرى: تاريخه، جـ٣، ص٢٥٣.

بعث خالد طليعة من جنده إلى طليحة على رأسها ثابت بن مقرن وعكاشة بن محصن وتمكن عكاشة من قتل حبّال أخى طليحة ولكن عكاشة وثابتاً لقى مصرعهما على يد طليحة ورجالة انتصر المسلمون على طليحة فى موقعة بذاخة وفر طليحة إلى بلاد الشام[١].

حركة سجاح:

سجاح بنت الحارث بن الأسود من بني عقفان من بني يربوع من بني تميم أخوالها من بني تغلب بن وائل بن ربيعة. (المرجع (بنو بكر بن وائل) ص ٢٧٦-٢٧٧) أدعت النبوة بعد وفاة النبي محمد، لم تشر المصادر التاريخية أن الفرس هم الذين حرضوا سجاح للقيام بالدور المذكور كما أنه من الواضح ان مسيلمة كان يخشاها، وأنه تعهد بإعطائها نصف حاصلات اليمامة، وتسلمت منه بالفعل ربع هذه الحاصلات[٢]، ثم قفلت راجعة إلى العراق أى أنها كانت عبئا عليه وليست عوناً له، وكانت حركة سجاح شأنها فى ذلك شأن غيرها من الكهان رغبت أن تجرب حظها فى إدعاء النبوة علها تنجح فى ذلك، ولكن سجاح خذلت من جانب قومها الأولين بنو تميم وعبساً حاولت سجاح توحيدهم وحين يأست من بنى تميم توجهت إلى بنى حنيفة فى اليمامة علها تقنع كاهنها مسيلمة بالانضواء تحت لوائها ولكنها فوجئت بقوة شخصيته، وتزوجت منه[٣]، ثم أسلمت بعد مقتل مسيلمة، و توفيت عام ٥٥ هـ – ٦٧٥ م.توفيت في البصرة وصلى عليها عدد من الصحابة.

حركة ملك بن نويره:

كان مالك بن نويره عامل الرسولﷺ على الصدقات فى قومه، وبعد وفاة الرسولﷺ رفض دفع الصدقات مما جعله مرتداً عن الإسلام.

ولما ذهب خالد بن الوليد إلى مالك بن نويره الذى قاتل مع سجاح، ارتاب خالد فى أمر مالك ومن معه، لما حدثه بعض الجيش بإسلامه وإسلام من معه، فحبسهم خالد فى ليلة شديدة البرد، ثم نادى أدفئوا أسراكم وكان معناها فى لغة بنى ثعلبة اقتلوا فقتلوهم، فلما عرف خالد ما جرى قال: ذلك

---

١ () الطبرى: تاريخه، جـ٣، ص٢٥٤.

٢ () الطبرى: تاريخه، جـ٢، ص٢٧٥.

٣ () الطبرى: تاريخه،جـ٢، ص٢٧٥، ابن الأثير: الكامل، جـ٣، ص٢٥٧.

أمر الله، وعرف عمر فحمل أبو بكر على خالد وقال: اعزله فإن فى سيفه رهقاً فأبى ووقف بجانب خالد وعذره فى ذلك. [١]

عوامل انتصار المسلمين فى حروب الردة:

١- تسيير جيش أسامة إلى تخوم الروم مما حمل الكثير من القبائل التى كانت على وشك الانتفاض والتراجع وادخل فى روعها أن المسلمين لو لم يكونوا على قوة لما سيروا هذا الجيش، كما أن عوده أسامة وجنده سالمين وبصحبتهم الكثيرمن الغنائم والأسرى أصاب الكثير من المرتدين بالوهم وملئ قلوبهم بالخوف وعلى الجانب الآخر رفع الروح المعنوية للمسلمين.

٢- نجاح أبى بكر فى التصدى لمانعى الزكاة حين أقدموا على مهاجمة المدينة فى ظل غياب جيش أسامة ثم تعقيه لهم وهزيمتهم فى معركة ذى القصة.

٣- براعة أبى بكر وخطته المحكمة فى إعداد الجيوش وتحريكها فى كل أنحاء جزيرة العرب، حيث أراد أن يفاجئ المرتدين وحاربهم حتى يشغل كل قبيلة بنفسها فلا تنضم إلى غيرها ولولا ذلك لكان من الممكن أن يتجمع المرتدون فى جيش واحد تحت لواءٍ واحد ثم ينقضون على المسلمين دفعة واحدة. [٢]

٤- إيقاع خالد بن الوليد الهزيمة بأقوى زعماء المرتدين مما أضعف من شأنهم.

٥- كان المسلم يحارب لحماية العقيدة الإسلامية ويرغب فى الاستشهاد من أجل هذه الغاية الكريمة، أما المرتد فكان يحارب من أجل الزكاة أو العصبية القبلية.

أهم نتائج حروب الردة:

١- تثبيت العقيدة التى كانت حيرى بين المتمردين عليها والمدافعين عنها، بعد أن اتضح للناس أنه لا صادق إلا محمد ﷺ وأن من ادعوا النبوة كلهم كاذبون.

٢- أصبح أبو بكر الرجل الأول فى الجماعة الإسلامية وأقر الجميع بجدارته فى أن يكون خليفة لرسول الله، فتعلقت قلوب المسلمين به والتف حوله جماعات العرب مما كان له أكبر الفضل فى تثبيت أركان الدولة الإسلامية الناشئة.

---

[١] ابن الوردى: تاريخ ابن الوردى، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦م، ج١، ص١٣٥ ؛ أبو الفدا: المختصر فى تاريخ البشر، ح١، ص١٩٧.

[٢] رجب عبد الحليم: الردة فى ضوء مفهوم جديد، دار النهضة العربية، القاهرة، د.ت، ص٩٠.

٣- شعر المسلمون بعد ظفرهم فى حروب الردة بالثقة فى أنفسهم وأحسوا بمقدار القوة التى جنوها من اتحادهم فأدركوا أنهم إن ظلوا كذلك متحدين فلن تغلبهم قوة فى الأرض فانطلقوا يفتحون البلاد وينشرون دين الله فى الأرض.

٤- أحس أبو بكر من العرب هذه الروح، فخشى أن يخلد القوم إلى الاستجمام فتثبت فى ظل الراحة بذور التفرقة بالحنين إلى الماضى فيصبح القوم وبأسهم بينهم شديد فوجههم إلى الفتح. [١]

٥- جمع القرآن الكريم فقد تم ترتيب آيات الله فى سور على عهد الرسول وبتوجيه منه لكن هذه السور لم تجمع فى كتاب واحد قبل وفاته، ولما قامت حروب الردة واستشهد فيها كثير من القراء الذين كانوا يحفظون القرآن أشار عمر بن الخطاب على أبى بكر رضى الله عنهما بضرورة جمع القرآن لأنه كان منقوشاً على سعف النخيل وقطع الآدم (الجلد) وعظام ألواح الغنم والإبل، فأمر بتشكيل لجنة من أفضل القراء الذين حفظوا القرآن على عصر الرسول ﷺ وأسند رئاسة هذه اللجنة إلى زيد بن ثابت أحد كتاب الوحى وقامت اللجنة بمقارنة المكتوب بما يحفظه أعضاؤها وغيرهم ثم دونت القرآن كله فى صحف فكانت الصحف التى جمع فيها القرآن عند أبى بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله ثم عند حفصة بنت عمر رضى الله عنها[٢]، وقد صارت هذه الصحف مصدراً للمصحف الذى أمر الخليفة عثمان بن عفان بكتابة عدة نسخ منه وتوزيعها على جهات الدولة الإسلامية، فتحقق بذلك قوله تعالى: ﴿ ﴾ [٣].

حركة الفتح والتوسع:

سير أبو بكر إلى أطراف الشام، الجيش الذى كان النبى قد جهزه قبل وفاته تحت قيادة أسامة بن زيد. وكان عمر بن الخطاب يعارض فى إرسال هذا الجيش لاضطراب أحوال بلاد العرب وصغر سن أسامة، فقال أبو بكر. "ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب، استعمله رسول الله وتأمرنى أن أعزله" ثم أوصى أبو بكر أسامة فقال: " لا تخانوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً... وتلقون

---

[١] إكرام ضياء العمرى: عصر الخلافة الراشدة، ط١، المدينة المنورة، ١٩٩٤، ص٣٦٠.

٢ () السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص٧٧.

٣ () الحجر: آية ٩.

أقواماً قد فحصوا أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب، فاخفقوهم بالسيف خفقا، اندفعوا باسم الله.

وأنفذ أبو بكر – عقب بيعته مباشرة–الجيش الذى كان قد أعده النبى بقيادة زيد بن حارثة، للثأر لما نزل بالمسلمين فى مؤتة ولإرهاب الروم ومنعهم من التفكير فى قتال المسلمين. ونزل أسامة بعسكره فى منطقة البلقاء بعد عشرين يوماً حيث تقع مؤته، وقضى على كل من وقف فى وجهه من أعداء الإسلام وأحرق المدن التى قاومت المسلمين، وبذلك انتقم أسامة لأبيه وللمسلمين. ولما سمع هرقل أنباء هذه الغزوة أرسل جيشاً قوياً عسكر فى البلقاء ولكن المسلمين وعلى رأسهم أبو بكر لم يكونوا قد فكروا فى ذلك الوقت فى فتح الشام. ولما كان أبو بكر يريد أن يشغل العرب بأمور المسلمين فى الأمر، واستقر الرأى على ان تستمر حركة الفتح، وأمر أبو بكر بتولية المثنى بن حارثة الشيبانى قائداً، واتبع ذلك بتولية خالد بن الوليد القيادة العامة. (١)

وفى ذلك الوقت، كان العلاء بن الحضرمى يقاتل المرتدين، فانضم إليه المثنى بن حارثة، وسار بقواته شَمالا حتى استولى على القطيف وتركها". واستمر فى سيره حتى وصل إلى مصب دجلة والفرات، وقضى فى أثناء ذلك على الفرس وعمالهم ممن عاونوا المرتدين فى البحرين، وأمعن السير بجيش فى دلتا الفرات، فلقيه هرمز أحد قواد الفرس، وحدثت بينهما عدة وقائع سمع بها أبو بكر، فسأل عن المثنى وعرف ما عمله فى البحرين أثناء حروب الردة، وأصدر أمره إلى خالد بن الوليد كى يخفف إليه ويعينه على هرمز، ثم يسير لفتح الحيرة عاصمة العرب اللخميين.

ذهب خالد بن الوليد إلى دلتا الفرات ولم تكن له خطة مرسومة ولكنه انتصر وتقدم نحو الشمال، وبعث إلى الخليفة بالغنائم، على أن هذه الانتصارات لم تدم طويلا، إذ أن يزدجر الثالث آخر ملوك آل ساسان أعد جيشاً كثيفاً من الفرس بقيادة القائد رستم فتقهقرت أمامه جيوش المسلمين إلى أطراف الصحراء بقيادة خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة، ولكنها تمكنت من إخضاع القبائل العربية التى كانت تقيم جنوب نهر الفرات، واستولت على الحيرة والأنبار: وظل الحال على ذلك إلى أواخر أيام أبى بكر، فوجه خالد بن الوليد لمساعدة المسلمين فى قتال الروم فى الشام وفلسطين.

أما فى الشام فقد كان للمسلمين أثناء حرب الردة عدة جيوش على حدود هذا الإقليم بقيادة خالد بن سعيد بن العاص، لحماية تلك الحدود وعندما علم هرقل بأمر هذه الجيوش أعد العدة لطردها، وعلم

(١) على إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامى العام، النهضة المصرية، القاهرة، د.ت، ص٣٥-٣٦.

خالد بن سعيد بذلك، فأرسل إلى أبى بكر يستأذنه فى منازلة الروم ومن انضم إليهم من قبائل العرب بالشام واستشار أبو بكر كبار الصحابة، ودعى الناس لغزو الشام فلبوا الدعوة فى حماسة وحمية، تدفعهم قوة الإيمان وعدم المبالاة بالموت.

وسرعان ما أنفذت الجيوش نحو الشمال عقب تجمعهم بالمدينة، وعقد اللواء لأربعة من الأمراء هم: شر حبيل بن حسنة ووجهته وادى الأردن، وعمرو بن العاص ووجهته فلسطين، وأبو عبيدة بن الجراح ووجهته حمص، ويزيد بن أبى سفيان ووجهته دمشق. وأمر أبو بكر هؤلاء القواد أن يتعارفوا بعضهم مع بعض، وأن يكونوا مدداً للجيوش الأخرى إذا دعت الحاجة. (١)

سار خالد بن سعيد بن العاص نحو الشام وهزم الجيوش التى جمعها الروم، وبعد ذلك توالى قدوم الجيوش الإسلامية إلى الشام، وانضم الوليد بن عقبة وعكرمة بن أبى جهل وذو القلاع الحميرى أحد أمراء اليمن إلى خالد بن سعيد بن العاص، حتى تجمعت لديه قوة كبيرة وخيل إليه أنه يستطيع أن يقضى على الروم كما قضى خالد بن الوليد على الفرس، ولكنه لم يكن قائداً محنكاً، فإن ماهان قائد جيش الروم استدرجه إلى مكان قريب من وادى الصفر إلى الشرق من بحيرة طبرية، حتى أحاطه به وقطع عليه خط الرجعة واضطره إلى الفرار، والوليد بن عقبة، تاركاً وراءه جيش المسلمين يقوده عكرمة وذو الكلاع متقهقراً. وبذلك فشلت حركة المسلمين الأولى فى الشام ورجعت جيوشهم إلى الحدود.

على أن هذه الهزيمة لم تخمد حماسة أبى بكر، فسير هذه الجيوش واستطاعات أن تصل إلى حيث يقيم جيش عكرمة بدون عناء بعد أن قضت على المقاومة التى أبداها حلفاء الروم من عرب الشام. وكان عدد هذه الجيوش والجيش الذى يقوده عمرو بن العاص، حوالى ثلاثين ألفاً، اتخذ كل منها فى بادئ الأمر جهة خاصة. ولكن قواد المسلمين عندما رأوا أن هرقل قد سير لمحاربتهم عدة جيوش كثيفة، تبادلوا الرأى، وأشار عليهم عمرو بن العاص بجمع قواتهم، وأرسل إليهم أبو بكر كتاباً يقول فيه "اجتمعوا عسكراً واحداً والقوا زحف المشركين بزحفكم فأنتم أعوان الله، والله ناصر من نصره وخاذل من كفره". وعمل المسلمون بهذه المشورة واجتمعت قواتهم كلها على شاطئ اليرموك الأيسر، ولما رأى الروم ذلك جمعوا قواتهم على الشاطئ الأيمن للنهر ونزلوا فى بطحاء تحيط بها الجبال من ثلاث جهات فى منطقة تسمى (واقوصة)، فعبر المسلمون نهر الأردن على شاطئه الأيمن ووقفوا أمام جيوش الروم وكان يقودها تيودريك.

---

(١) نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم، وعصر الرسول، ط٣، دار القلم، دمشق، ١٩٨٣م، ص ١٥١.

ووقف الجيشان وجهاً لوجه، دون أن يتغلب أحدهما على الآخر نحو شهرين مما أقلق الخليفة. فأرسل إلى خالد بن الوليد فى العراق: أن سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك، فإنهم قد شجعوا وأشجوا فلهناك أبا سليمان النية والخطوة أتمم يتمم الله لك ولا يدخلنا عجباً فتخسر وتخذل وإياك أن تدل بعمل فإن ، الله له المن وهو ولى الجزاء.

تولى خالد بن الوليد القيادة مكان أبى عبيدة وسار على رأس جيش كبير يتكون من عشرة آلاف جندى، أدرك به المسلمين فى اليرموك وقاتل الروم، وصادف مجيئه أن هرقل كان قد عزز جيشه بتعيين ماهان، الذى هزم خالد بن سعيد من قبل، قائداً.

ولما قدم خالد بن الوليد بجيشه إلى الشام وجد المسلمين يقاتلون متساندين، فرتب الجيش وجعل أبا عبيدة بن الجراح فى القلب. وعمرو بن العاص على الميمنة ويزيد بن أبى سفيان على الميسرة، ثم دارت رحى القتال، واشتركت النساء مع الرجال لصد هجمات العدو، الذى اضطرهم إلى التقهقر عدة مرات، وبعد أن لحقت الروم الهزيمة، جاء يوم "الواقوصة"، وهو اليوم الذى كتب فيه النصر للعرب حيث قتل من جند الروم مائة وعشرون ألفاً.

وفى أثناء قتال العرب فى اليرموك، أتاهم نعى أبىبكر سنة ١٣هـ وتولية عمر بن الخطاب الخلافة، فعزل خالداً عن القيادة وولى مكانه أباعبيدة.

حروب الردة

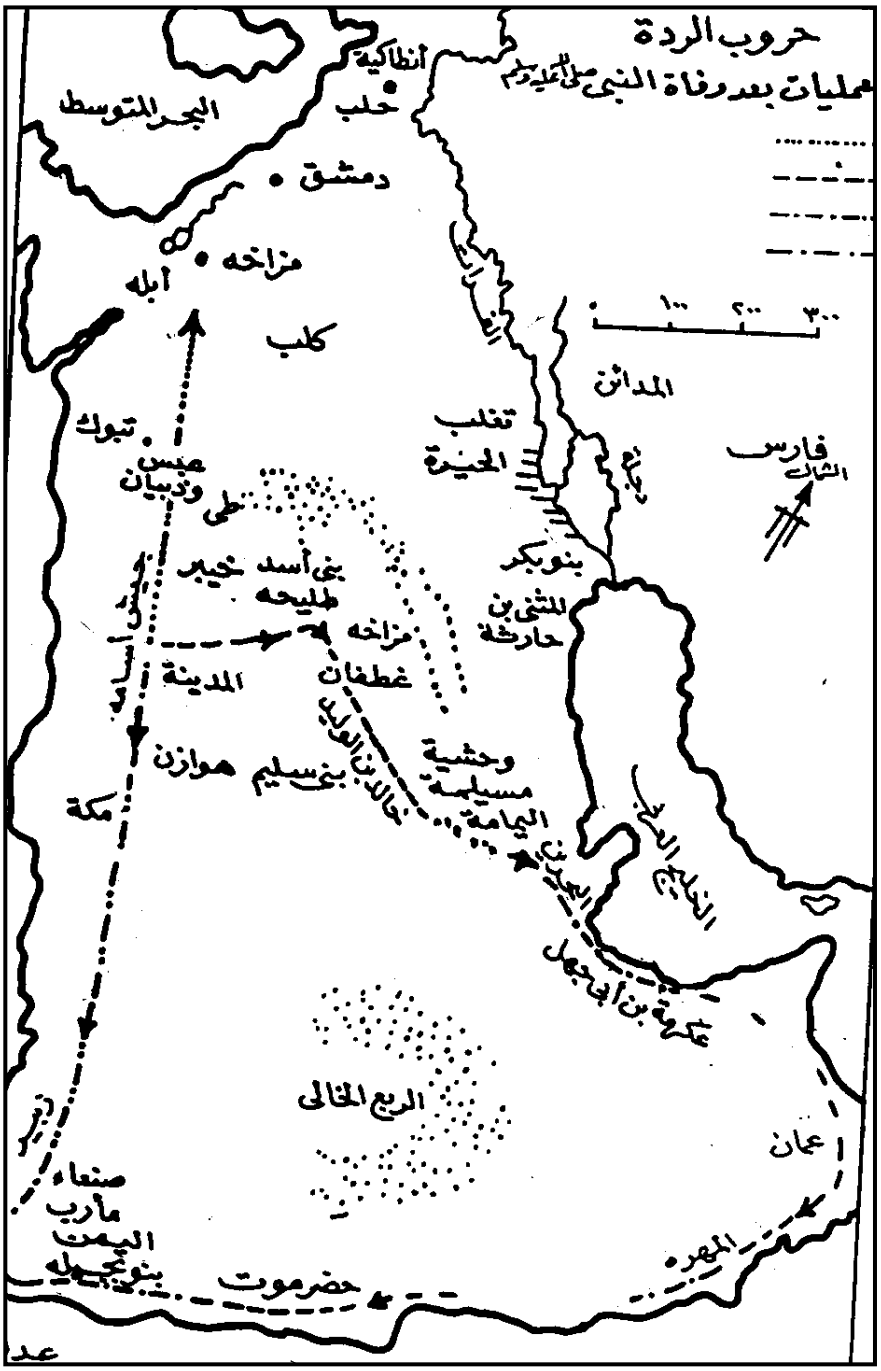
حروب الردة
عمليات بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم
انطاكية
حلب
البحر المتوسط
دمشق
مزاخه
ابله
كلب
تبوك
عبس وذبيان
طي
بني أسد
خيبر
طليحه
مزاخه
المدينة
غطفان
هوازن
بني سليم
مكة
وحشية
مسيلمة
اليمامة
تغلب
الحيرة
المدائن
فارس
الشلاسل
بنو بكر
المثنى بن حارثة
الخليج العربي
عكرمة بن ابي جهل
الربع الخالي
عمان
المهرة
صنعاء
مأرب
اليمن
بنو مجحله
حضرموت

خريطة توضح حملات خالد بن الوليد ﷺ في العراق

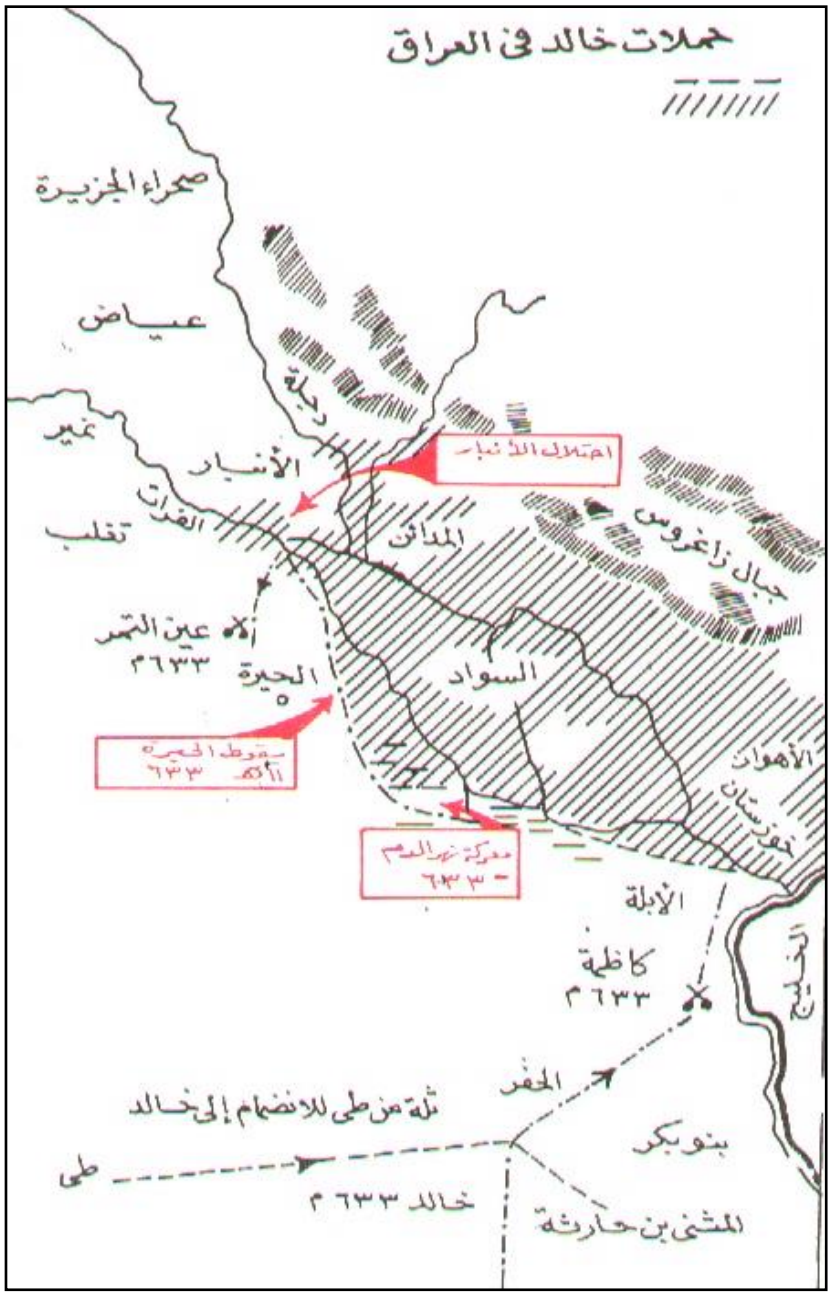

خريطة توضح معركة القادسية

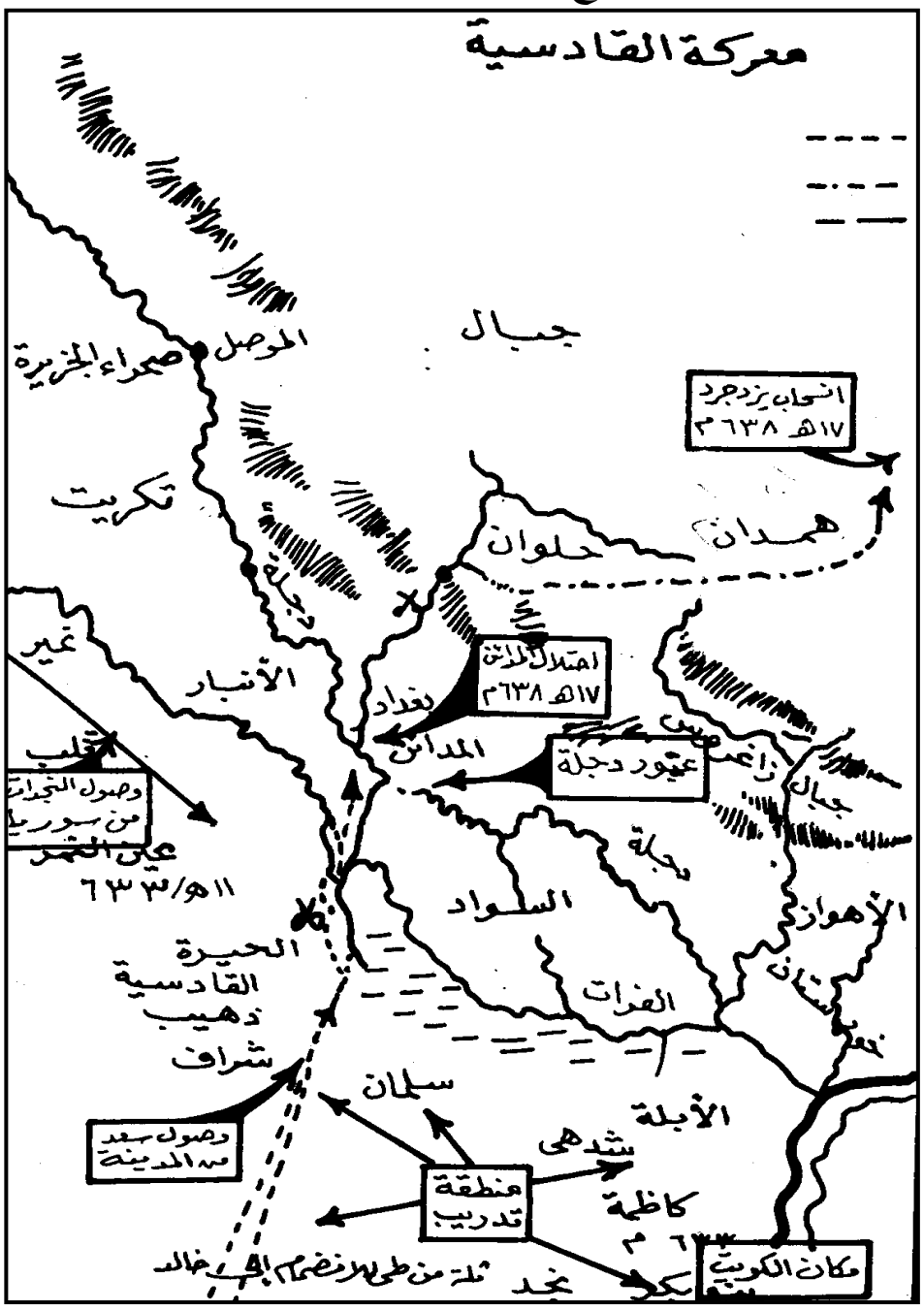

خلافة سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ
(١٣-٢٣هـ/٦٣٤-٦٤٤م)

نسبه:

عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن قرط بن زراح بن عدى بن كعب بن لؤى، أمير المؤمنين، أبو حفص القرشى العدوى الفاروق.

ولد عمر بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة، وكان من أشراف قريش، وأسند إليه السفارة في الجاهلية. فكان مبعوث قريش إلى القبائل الأخرى في السلم والحرب.

أسلم عمر في السنة السادسة من البعثة النبوية. بعد أربعين رجلا وإحدى عشرة امرأة، وقيل: بعد خمسة وأربعين رجلا وإحدى عشرة امرأة. ولما أسلم عمر ظهر الإسلام في مكة.

وكان إسلام عمر فتحاً، وكانت هجرته نصراً، وكانت إمامته رحمة، وهو الذي جعل المسلمين يصلوا حول الكعبة. [١]

هاجر عمر بن الخطاب علناً، ولما حان وقت هجرته تقلد سيفه، ومر على أشراف قريش محذرهم من اللحاق به قائلا: من أراد أن تثكله أمه، ويبتم ولده ، وترمل زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى".

استخلاف عمر ﷺ :

قد يبدو للوهلة الأولى أن استخلاف عمرﷺ يختلف فى أسسه عن اختيار أبى بكرﷺ، وأنه تم عن طريق التعيين لا البيعة، ولكننا إذا نظرنا لم نجد فرق كبير بين الموقفين ولوجدنا فى استخلاف عمرﷺ التزاما كاملاً بالمبادئ التى تحققت فى الاختيار الأول من تفويض الأمر للأمة والبيعة الخاصة من جانب أهل الحل والعقد ثم البيعة العامة من جانب الأمة.

حرص أبو بكرﷺ على الالتزام بالمبدأ الأول وهو تفويض الأمر للأمة، فلما شعر بدنو أجله حين اشتد عليه المرض رأى أن يرشح للخلافة شخصاً من بعده فوقع اختياره على عمر بن الخطابﷺ فاستدعى كبار الصحابة وقال لهم أنه قد نزل بى ماترون، وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتى ورد عليكم أمركم فأمروا من أحببتم... فلما رأى أنهم لم يتفقوا على أحد من المرشحين عرض عليهم أن يشاركهم

---

[١] السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص١١٩.

المسؤولية إن أردوا وقال له ممثلوا الأمة: "ياخليفة رسول الله أنت خيرنا وأعلمنا فاختر لنا" قال: "سأجتهد لكم رأيي واختار لكم خيركم إن شاء الله".

التزم أبو بكر بالمبدأ الثانى وهو أن يصدر الترشيح عن أهل الحل والعقد ووقع اختياره على عمر بن الخطابﷺ، ولم يعلن هذا إلا بعد إحالة الرأى مع كبار الصحابة فاجتمع بهم منفردين واحد بعد الآخر حتى يستمع إلى رأيهم دون حرج أو مجاملة، وقد بدأ أبو بكر بعبد الرحمن بن عوف فقال: أخبرنى عن عمر فقال هو والله أفضل من رأيك فيه ولكن فيه غلظة فقال أبو بكر ذلك لأنه يرانى رقيقاً ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما هو عليه، واستشار عدد من المهاجرين والأنصار فقالوا كلهم خيراً، ودعا أبو بكر عثمانﷺ منفرداً فقال له: أكتب: "بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد أبى بكر ابن أبى قحافة فى آخر عهده بالدنيا خارجاً منها وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها... إنى استخلفت عليكم بعدى عمر بن الخطابﷺ فاسمعوا له وأطيعوا... فإن عدل فذلك ظنى به وعلمى فيه وإن بدل فلكل امرئ ما اكتسب من الإثم والخير أردت ولا أعلم الغيب وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون. [١]

ثم أمر أبو بكرﷺ عثمانﷺ أن يخرج للناس بهذه الوثيقة ومعه عمرﷺ فقال عثمان للناس أتبايعون لمن فى هذا الكتاب؟ قالوا نعم وقال بعضهم قد علمنا به إنه عمر فأقر الناس بذلك جميعاً.

وهكذا وضع أبو بكر سنة جديدة فى اختيار الخليفة ذلك لأنه رشح شخصاً ليس من أبناءه ولا من أقربائه وعلق اختياره على رضي جماعة المسلمين.

التنظيمات الإدارية:

احتفظ عمر بن الخطاب بالنظم الإدارية السابقة على الإسلام في البلاد المفتوحة حتى لا تضطرب الأمور وتعم الفوضى، ولكنه استبعد من هذه النظم ما لا يتفق مع تقاليد العرب، فقد أقر نظام الديون الفارسى، وطبق التقسيم البيزنطى للشام إلى أجناد، كما أبقى على نظام الكورة في مصر وهى كلمة يونانية Curia معناها المركز

ولما اتسعت حدود الدولة الإسلامية في عهد عمر بن الخطاب قسم البلاد إلى عدة أقسام إدارية كبيرة ليسهل حكمها والإشراف على موار ثروتها؛ وهى:

١-ولاية الأهواز والبحرين.

٢-ولاية التركستان ومكران وكرمان.

---

[١] حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى، ج١، ص٣٦٩.

٣-ولاية طبرستان.

٤-ولاية خراسان.

٥-بلاد فارس قسمت إلى ثلاث ولايات.

٦-بلاد العراق قسمت إلى قسمين الكوفة والبصرة.

٧-بلاد الشام قسمت إلى قسمين حمص، ودمشق.

٨-ولاية فلسطين.

٩-مصر قسمت إلى ثلاث ولايات مصر السفلى، ومصر العليا، وغربى مصر.

وتعد الإدارة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب استمرار لما وضع الرسول ﷺ وخليفته أبوبكر الصديق من أسس وتنظيمات في هذا المجال، وكانت الأسس التي قامت عليها الإدارة في الدولة العربية الإسلامية هي:

١-أن السيادة في الدولة والمجتمع هي لله تعالى.

٢-كان من واجب الرسول ﷺ والخلفاء من بعده إدارة المجتمع.

٣-مواصلة سياسية الفتوحات الإسلامية على جبهات العراق والشام ومصر.

٤-لا يوجد فاصل بين الوظائف السياسية والإدارية والدينية.

التنظيمات المالية:

١-ديوان العطاء:

حرص الخليفة عمر بن الخطاب على تنظيم شئون الدولة من كافة النواحى، هو أول من دون الداوين في الإسلام، والديوان كلمة معربة من الفارسية يقصد بها الدفتر أو السجل الذي يدون فيه أسماء الجند وأهل العطاء.

وفكر عمر بن الخطاب في تدوين الدواوين عندما قدم عليه أبو هريرة بمال كثير من البحرين فقال له عمر ماذا جئت به؟ فقال خمسمائة ألف درهم. فاستكثره عمر. فقال له أتدرى ما تقول؟ قال نعم فقال عمر أطيب هو؟ فقال لا أدرى فصعد عمر المنبر فحمد الله تعالى واثنى عليه ثم قال: أيها الناس قد جاءنا مال كثير فإن شئتم كلنا لكم كيلا، وإن شئتم عددنا لكم عدا. [١]

---

[١] حسن إبراهيم حسن وآخرون: النظم الإسلامية، النهضة المصرية، القاهرة، ص١٥٣-١٥٤.

واستشار عمر بن الخطاب أصحابه في تدوين الدواوين، فقال على بن أبى طالب: تنقسم كل سنة ما اجتمع إليك من مال، فلا تمسك شيئا. وقال عثمان بن عفان: أرى مالا كثيرا يسع الناس، وإن لم يحصوا حتى تعرف من أخذ ممن لم يأخذ، خشيت أن ينتشر الأمر.

وأشار على الخليفة عمر، الوليد بن هشام بن المغيرة بتجربة البيزنطيين في بلاد الشام، وأن ملوكها يدونوا الدواوين.

وشرع عمر بن الخطاب في عمل الدواوين، ودعا عقيل بن أبى طالب ومخرمة بن نوفل، وجبير بن مطعم، وكانوا من نساب قريش. فقال: اكتبوا الناس على منازلهم، وبدؤوا بقرابة رسول الله ﷺ الأقرب فالأقرب. وبدأ بالعباس عم النبى ﷺ فأعطاه خمسة وعشرين ألفا، وقيل: اثنى عشر ألفا. ثم فرض لأهل بدر خمسة آلاف، وفرض لمن دخل في الإسلام من بدر إلى صلح الحديبية أربعة آلاف ثم فرض لمن بعد الحدبية إلى نهاية حروب الردة ثلاثة آلاف. كما فرض عمر للنساء فجعل للنساء أهل بدر خمسمائة ونساء من بعدهم إلى الحديبية أربعمائة.

وكان نظام الديوان قائما من حيث الترتيب على ثلاثة أسس متتالية:

١-أساس النسب والقرابة برسول الله قبيلة بعد قبيلة.

٢-أساس السابقة فى الإسلام وحسن الأثر في الدين.

٣-التفضيل عند انقراض أهل السوابق بالتقدم في الشجاعة والبلاء في الجهاد.[١]

وأنشأ عمر بن الخطاب بيتا للمال لحفظ الأموال الفائضة عن حاجة الجند، وتنوعت موارد بيت المال في عهد عمر وهى:

١-الزكاة:

هي ركن من أركان الإسلام الخمس وهى حق يأخذ من الأغنياء ليعطى للفقراء وهى عبادة من ناحية، وواجب اجتماعي من ناحية أخرى. [٢]

قال تعالى (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (التوبة:١٠٣)

---

[١] هاشم يحيى الملاح: الوسيط فى السيرة النبوية والخلافة الراشدة، ص ٣١٩ .

[٢] إبراهيم فؤاد على: الموارد المالية فى الإسلام، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٢٠-٢١.

وحدد الله عز وجل أوجه انفاق الزكاة قوله تعالى: (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (التوبة:٦٠)

٢-الخراج:

الخراج لغة الغلة، وهى كلمة مشتقة من خرج. وكان يراعى في فرض الخراج جودة المحصول، ونوعه، ورى الأرض. [١]

[١] قطب إبارهيم محمد: المالية العامة للدولة الإسلامية، دار الشباب ، القاهرة، د.ت، ص١٥٩.

٣-الجزية:

ضريبة رأس فرضت على أهل الذمة من اليهود والنصارى يقول الماوردى: "فيجب على ولى الأمر أن يضع الجزية على رقاب من دخل في الذمة من أهل الكتاب".

وكانت الجزية تحصل مرة واحدة في السنة على حسب الشهور الهلالية، وأعفى من دفعها بعض الفئات غير القادرة كالنساء، والشيوخ، والصبيان، والعبد، والمجانين. [١]

٤-العشور:

كان العشر يحصل من قيمة التجارة التي يأتى بها التجار القادمون من دار الحرب إلى دار الإسلام. ولكن الإمام الشافعى يرى أنه يحق للحاكم أن يأخذ أكثر من العشر عند حاجة البلاد إلى نوع معين من البضائع.

وأول من شرع هذا النظام الخليفة عمر بن الخطاب، فقد كتب إليه أبو موسى الأشعرى أن تجارًا من المسلمين يأتون أهل الحرب، فيأخذون منهم العشر فكتب إليه عمر فخذ أنت منهم. كما يأخذون من تجار المسلمين، وخذ من أهل الذمة نصف العشر ومن المسلمين من كل أربعين درهما درهما، وليس فيه دون المائتين شئ فإذا كانت مائتين ففيها خمسة دراهم فما زاد فبحسابه. [٢]

نظام القضاء:

لما انتشر الإسلام في عهد عمر وارتبط العرب بغيرهم من الأمم دعت الحاجة إلى إدخال نظام تشريعى لفض المنازعات التي تنشب بين الأفراد من العرب وغيرهم.

واقتضى الأمر تعيين قضاة ينوبون عن الخليفة في حل هذه المشاكل تماشيا مع أحكام القرآن والسنة والقياس.

وعين عمر بن الخطاب على قضاء المدينة أبا الدرداء، وعلى الكوفة شريح ابن الحارث وعلى البصرة أبا موسى الأشعرى وكتب له في ذلك الكتاب المشهور الذي تدور عليه أحكام القضاة يقول فيه: "القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فأفهم إذا أدلى إليك، وانفذ إذا تبين لك..". [٣]

وضع التقويم الهجرى:

---

[١] الماوردى: الأحكام السلطانية، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص ١٨٣.

[٢] القلقشندى: صبح الأعشى، ج٣، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩١٩م، ص٤٥٩.

[٣] حسن إبراهيم حسن وآخرون: النظم الإسلامية، ص ٢٧٦.

كان عمر بن الخطاب أول من وضع التقويم الهجرى للتاريخ به منذ هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، وشرع في ذلك سنة ست عشرة في شهر ربيع الأول. [١]

الفتوحات الإسلامية في زمن عمر بن الخطاب ﷺ:

كانت الجيوش الإسلامية مشتبكة في حروب على جبهة الفرس والروم، عندما تولى عمر بن الخطاب مقاليد الخلافة، وحرص على إرسال النجدات من المدينة لتعزيز تلك الجبهات.

١-بلاد فارس:

قدم المثنى بن حارثة الشيبانى على المدينة في الليلة التي توفى فيها أبو بكر وطلب منه المدد وأوصى أبو بكر عمر بن الخطاب بالمبادرة بإرسال الجيوش للمثنى.

ودعا عمر بن الخطاب الناس للمشاركة ولكنهم كانوا يكرهون قتال الفرس لشدة شوكتهم وحث المثنى الناس على قتال الفرس وهون عليهم أمر الفرس.

وقد جعل الخلافة عمر قادة الجيش إلى أبى عبيد بن مسعود الثقفى لمبادرته بالتطوع للجهاد وأوصاه باستشارة صحابة رسول الله ممن معه في كل الأمور.

وأخذ أبو عبيدة يرغب الناس في الجهاد ودعا كل القبائل التي مر عليها للمشاركة في الجهاد. [٢]

وخاض أبو عبيدة بن مسعود مع الفرس عدة معارك هي:

أ-معركة النمارق:

كانت هذه المعركة عقب وصول أبعبيدة، وأراد الفرس أن يرهبوا أباعبيدة، فأعدوا كل قواهم الداخلية وعبأوا الجند، ولقوا فيها المسلمين واستعد أبوعبيدة والمثنى بالجيش الإسلامى وكان اللقاء بين المسلمين والفرس في النمارق، وانهزم الفي في هذا اللقاء.

ب-السقاطية:

عندما انهزم الفرس في النمارق ساروا إلى كسكر، وطاردهم أبو عبيدة والتقى معهم في السقاطية من نواحى كسكر وتم النصر فيها للمسلمين على الفرس.

ج-باقسياثا:

---

[١] الطبرى: تاريخ الأمم، ج٢، ص ٥٦٩-٥٧٠.

[٢] ابن الأثير: الكامل، ج٢، ص ٢٩٧.

وصلت النجدات إلى الجيش الفارسى والتقوا مع المسلمين في باقسياثا وحلت الهزيمة بالفرس. (١)

د-**معركة الجسر:**

انزعج الفرس من الهزائم التي لحقت بهم على يد المسلمين. وعزموا على حشد قوة كبيرة لملاقاة المسلمين عند موضع يدعى المروحة حيث وقعت معركة الجسر. وكانت قوات الفرس تقف على الجانب الشرقى من نهر الفرات بينما تقف قوات المسلمين على الجانب الغربى. وأقام المسلمون جسرا. وعبروا عليه. وكانت قوات الفرس تتألف من أربعة آلاف ومعهم الفيلة. ودار قتال عنيف، وكاد المسلمون يظفرون بالنصر لولا أن وقع أبو عبيد فبرك عليه الفيل فمات، وكر الفرس على المسلمين، فأسرع رجل من ثقيف يدعى عبد الله بن مرثد الثقفى إلى الجسر فقطع على المسلمين خط الرجعة، ليحثهم على الصمود وتكبد المسلمون خسائر كبيرة في هذه المعركة.(٢)

و-**معركة البويب:**

ثقل على عمر أمر هزيمة الجسر، وندب الناس إلى جبهة فارس، وبعث الإمدادات إلى العراق وفى مقدمها جرير بن عبد الله البجلى ومعه أربعة آلاف، وعصمة بن عبد الله الضبى وانضموا إلى المثنى بن حارثة في البويب غرب الفرات.

وانضم إليهم أنس بن هلال النمرى في حشد عظيم من بنى النمر وهم نصارى ليقاتلوا مع قومهم العرب ضد الفرس.

وبعث الفرس جيشا من اثنى عشر ألفا بقيادة مهران بن مهروية الذي عبر الفرات نحوهم في البويب. وكان المسلمون قد استعدوا لملاقاة الفرس. ودار قتال عنيف بين المسلمين والفرس وتراجع الفرس وطاردهم المسلمون بهم نحو الجسر فقتل وغرق الكثيرين منهم.

وقد أدت هذه المعركة إلى تثبت أقدام المسلمين في السواد بن دجلة والفرات فسيطروا على الحيرة، وأخذ المثنى بن حارثة يغزو الأنبار حتى وصل شمال تكريت. كما ثبت المسلمون مواقعهم في الأبلة حتى سيطروا على إقليم البصرة. وأخذوا يشنون الغارات على الفرس بين الحرة وكسكر. (٣)

---

(١) شكرى فيصل : حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول الهجرى، مكتبة الخانجى ، القاهرة، ١٩٩٢م، ص ٤٨.

(٢) هاشم يحيى الملاح: الوسيط فى السيرة النبوية والخلافة الراشدة، ص٣٦٣.

(٣) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الدولة العربية ، ص ٢٣٦.

هـ-معركة القادسية:

تاريخ هذه المعركة مختلف عليه، فالطبرى، وابن الأثير، وابن كثير يجعلونها فى المحرم سنة ١٤ هـ وان كان كل من الطبرى وابن الأثير يشير إلى احتمال وقوعها فى سنة ١٥ هـ وربما فى سنة ١٦ هـ، وذكرها البلاذرى أنها فى سنة ١٦ هـ.

أسباب المعركة:

في عام ١٤ هـ جمع يزدجرد طاقاته ضد المسلمين، فبلغ ذلك المثنى بن حارثة الشيباني فكتب إلى عمر بن الخطاب فأعلن النفير العام للمسلمين أن يدركوا المسلمين في العراق واجتمع الناس بالمدينة المنورة فخرج عمر معهم إلى مكان يبعد عن المدينة ثلاثة أميال على طريق العراق والناس لايدرون مايريد أن يصنع عمر، واستشار عمر الصحابة في قيادته للجيش بنفسه فقرروا أن يبعث على رأس الجيش رجلاً من أصحاب الرسول ويقيم هو ولا يخرج واستشارهم في من يقود الجيش فأشير إليه بسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.[١]

الحرب النفسية فى معركة القادسية:

الحوار مع رستم:

بعث سعد جماعة من السادات منهم: ربعى بن عامر و النعمان بن مقرن، و فرات بن حبان، و حنظلة بن الربيع التميمي، و عطارد بن حاجب التميمي، و الأشعث بن قيس، و المغيرة بن شعبة، و عمرو بن معدي كرب، فدخلوا عليه، وقد زّينوا مجلسه بالنَّمارق المُذْهَبة والزرابيّ الحريرَيّة وأظهر اليواقيت واللآلئ الثمينة، والزينة العظيمة، وغير ذلك من الأمتعة الثمينة وقد جلس على سرير من ذهب، ودخل **ربعي بن عامر** بثياب صفيقة وسيف وترس وفرس قصيرة، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه.

فقالوا له: ضع سلاحك.

فقال: إني لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتموني فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت.

فقال رستم: ائذنوا له فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فحرق عامتها.

فقالوا له: ما جاء بكم؟

---

[١] هاشم يحيى الملاح: الوسيط فى السيرة النبوية والخلافة الراشدة، ص٣٦٦-٣٦٧.

فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لتدعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضي إلى موعود الله.

قالوا: وما موعود الله؟

قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي.

فقال رستم: قد سمعت مقالتكم، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟

قال: نعم !كم أحب إليكم؟ يوماً أو يومين؟

قال: لا بل حتى نكاتب أهل رأينا رؤساء قومنا.

فقال: ما سن لنا رسول الله ﷺ أن نؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث، فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل.

فقال: أسيدهم أنت؟

قال: لا، ولكن المسلمون كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم.

فاجتمع رستم برؤساء قومه فقال: هل رأيتم قط أعز وأرجح من كلام هذا الرجل؟

فقالوا: معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا، تدع دينك إلى هذا الكلب أما ترى إلى ثيابه؟

فقال: ويلكم لا تنظرون إلى الثياب، وانظروا إلى الرأي، والكلام والسيرة، إن العرب يستخفون بالثياب والمأكل، ويصونون الأحساب.

وبعث سعد أكثر من رسول لحوار رستم، مثل حذيفة بن محصن والمغيرة بن شعبة.

المسير إلى القادسية:

أستدعى عمر بن الخطاب سعد بن أبي وقاص وكان على صدقات هوازن فولاه الجيش وأمره بالسير ومعه أربعة آلاف ثم أمده بألفي يماني وألفي نجديّ وكان مع المثنى ثمانية آلاف ومات المثنى قبل وصول سعد وتتابعت الإمدادات حتى صار مع سعد سته و ثلاثون ألفاً.

كان منهم تسعة وتسعون بدرياً وثلاثمائة وبضعة عشر ممن كان له صحبة فيما بين بيعة الرضوان إلى ما فوق ذلك وثلاثمائة ممن شهد الفتح وسبعمائة من أبناء الصحابة فنظم الجيش وجعل على الميمنة عبدالله بن المعتم وعلى الميسرة شرحبيل بن السمط الكندي وجعل خليفته إذا استشهد خالد بن عرفطة وجعل عاصم بن عمرو التميمي وسواد بن مالك على الطلائع وسلمان بن ربيعة الباهلي

على المجردة وعلى الرجالة حمال بن مالك الأسدي وعلى الركبان عبد الله بن ذي السهمي وجعل داعيتهم سلمان الفارسي والكاتب زياد بن أبيه وعلى القضاء بينهم عبدالرحمن بن ربيعة الباهلي.

أما الفرس فقد أجبر يزدجرد رستم على قيادة الجيش الفارسي بنفسه وأرسل سعد وفداً إلى رستم فيهم: النعمان بن مقرن المزني وبسر بن أبي رهم والمغيرة بن شعبة والمغيرة بن زرارة.

وسار رستم وفي مقدمته (الجالينوس) وجعل في ميمنته (الهرمزان) وعلى الميسرة (مهران بن بهرام) ثم سار رستم حتى وصل الحيرة ثم النجف حتى وصل القادسية ومعه سبعون فيلاً.نعم

القتال:

وعبر الفرس النهر في الصباح ونظموا جيشهم، ونظم سعد جيشه وحثهم على السمع والطاعة لنائبه خالد بن عرفطة لأن سعداً أصابته دمامل في فخذيه وإليتيه فكان ينام على وجهه وفي صدره وسادة، ويقود المعركة من فوق قصره، وصلى المسلمون الظهر وكبر سعد التكبيرة الأولى فاستعدوا، وكبر الثانية فلبسوا عدتهم، وكبر الثالثة فنشط الفرسان، وكبر الرابعة فزحف الجميع، وبدأ القتال والتلاحم.

ولما رأت خيل المسلمين الفيلة نفرت وركز الفرس ب (١٧) فيلاً على قبيلة بجيلة فكادت تهلك، فأرسل سعد إلى بني أسد أن دافعوا عن بجيلة فأبلوا بلاء حسناً وردوا عنهم هجمة الفيلة، ولكن الفيلة عادت للفتك بقبيلة أسد، فنادى سعد عاصم بن عمرو التميمي ليصنع شيئاً بالفيلة، فأخذ رجالاً من قومه فقطعوا حبال التوابيت التي توضع على الفيلة فارتفع عواؤها فما بقي لهم فيل إلا أعري وقتل أصحابه ونفّس عن قبيلة أسد، واقتتل الفريقان حتى الغروب وأصيب من أسد تلك العشية خمسمائة كانوا ردء للناس وهذا هو اليوم الأول من المعركة ويسمى أرماث وهو الرابع عشر من المحرم.

وفي اليوم الثاني أصبح القوم فوكل سعد بالقتلى والجرحى من ينقلهم وسلم الجرحى إلى النساء ليقمن عليهم، وفي أثناء ذلك طلعت نواصي الخيل قادمة من الشام وكان في مقدمتها هاشم بن عتبة بن أبي وقاص والقعقاع بن عمرو التميمي، وقسم القعقاع جيشه إلى أعشار وهم ألف فارس وانطلق أول عشرة ومعهم القعقاع فلما وصلوا تبعتهم العشرة الثانية وهكذا حتى تكامل وصولهم في المساء، فألقى بهذا الرعب في قلوب الفرس فقد ظنوا أن مائة ألف قد وصلوا من الشام فهبطت هممهم ونازل القعقاع (بهمن جاذويه) أول وصوله فقتله ولم ير أهل فارس في هذا اليوم شيئاً يعجبهم فقد أكثر المسلمون فيهم القتل ولم يقاتل الفرس بالفيلة في هذا اليوم لأن توابيتها قد تكسرت بالأمس فاشتغلوا هذا

اليوم بإصلاحها وألبس بعض المسلمين إبلهم فهي مجللة مبرقعة وأمرهم القعقاع أن يحملوا على خيل الفرس يتشبهون بها بالفيلة ففعلوا بهم هذا اليوم وهو يوم أغواث كما فعلت فارس يوم أرماث فجعلت خيل الفرس تفر منها وقاتلت الفرس حتى انتصف النهار فلما اعتدل النهار تزاحفوا من جديد حتى انتصف الليل فكانت ليلة أرماث تدعى الهدأة وليلة أغواث تدعى السواد.

أصبح القوم لليوم الثالث وبين الصفين من قتلى المسلمين ألفان ومن جريح وميت من الفرس عشرة آلاف، فنقل المسلمون قتلاهم إلى المقابر والجرحى إلى النساء، وأما قتلى الفرس فبين الصفين لم ينقلوا.

وبات القعقاع لاينام فجعل يسرب أصحابه إلى المكان الذي فارقهم فيه بالأمس وقال: إذا طلعت الشمس فأقبلوا مائة مائة، ففعلوا ذلك في الصباح فزاد ذلك في هبوط معنويات الفرس.

وابتدأ القتال في الصباح في هذا اليوم الثالث وسمي يوم عمواس، والفرس قد أصلحوا التوابيت فأقبلت الفيلة يحميها الرجالة فنفرت الخيل، ورأى سعد الفيلة عادت لفعلها يوم أرماث فقال لعاصم بن عمرو والقعقاع: اكفياني الفيل الأبيض وقال لحمال والربيل: اكفياني الفيل الأجرب، فأخذ الأولان رمحين وتقدما نحو الفيل الأبيض فوضعا رمحيهما في عينيه فنفض رأسه وطرح ساسته ودلى مشفره فضربه القعقاع فوقع لجنبه، وحمل الآخران على الفيل الأجرب فطعنه حمال في عينه فجلس ثم استوى وضربه الربيل فأبان مشفره فأفلت الأجرب جريحاً وولى وألقى نفسه في النهر واتبعته الفيلة وعدت حتى وصلت المدائن، ثم تزاحف الجيشان فاجتلدوا وسميت هذه الليلة ليلة الهرير، وفي هذه الليلة حمل القعقاع وأخوه عاصم والجيش على الفرس بعد صلاة العشاء فكان القتال حتى الصباح، وانقطعت الأخبار عن سعد ورستم فلم ينم الناس تلك الليلة وكان القعقاع محور المعركة.

فلما جاءت الظهيرة كان أول من زال عن مكانه الفيرزان والهرمزان فانفرج القلب وأرسل الله ريحاً هوت بسرير رستم وعلاه الغبار ووصل القعقاع إلى السرير فلم يجد رستم الذي هرب واستظل تحت بغل فوقه حمله فضرب هلال بن علفة الحمل الذي تحته رستم وهو لايعرف بوجوده فهرب رستم إلى النهر فرمى نفسه ورآه هلال فتبعه وارتمى عليه فأخرجه من النهر ثم قتله ثم صعد طرف السرير وقال: قتلت رستم ورب الكعبة إلي إلي.

فانهارت حينئذ معنويات الفرس فانهزموا وعبروا النهر فتبعهم المسلمون يخزونهم برماحهم فسقط من الفرس في النهر ألوفا.

وقتل من المسلمين ليلة الهرير ويوم القادسية ألفان وخمسممائة، ومن الفرس في الليلة نفسها عشرة آلآف ولحق زهرة بن الحوية التميمي الجالينوس فقتله.

ل-فتح المدائن ١٦هـ:

أرسل الخليفة عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبى وقاص بالمسير إلى المدائن وصل سعد بن أبى وقاص في ذى الحجة ١٥هـ/٦٣٦م، إلى مدينة بهر سير، وتقع غرب دجلة وتطل على إيوان كسرى في المدان شرق ثم أرسل سليمان الفارسى يدعو أهلها إلى الإسلام أو الجزية أو القتال فحاصرها مدة شهرين بعد أن نصب حولها عشرون منجنيقا.

ولما اشتد الحصار انسحب الفرس من بهر سير وعبروا دجلة نحو المدائن ولم يمهلهم سعد بن أبى وقاص لتنظيم صفوفهم. ودخل المدائن في نفس شهر صفر ١٦هـ/٦٣٧م. ولم يجد فيها أحدا بعد أن هرب الفرس إلى حلوان وفى مقدمتهم ملكهم يزدجرد الذى فر بعائلته وما استطاعوا حمله من الأموال والثياب. [١]

وجنى المسلمين غنائم كثيرة. ونزل سعد القصر الأبيض وجعل إيوان كسرى مصلى للمسلمين. ووزع الغنائم على المقاتلين فكان نصيب الفارس اثنى عشر ألف درهم. وقسم الدور في المدائن على الجند.

---

[١] عصام محمد شبارو: الدولة العربية الإسلامية، الطبعة الثالثة، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٥، ص ٢٩١، ٢٩٣.

م-موقعة جلولاء:

طارد سعد بن أبوقاص الفرس إلى جلولاء وأوقع بهم الهزيمة، وأسر إحدى بنات كسرى وقتل عدداً كبيراً من الفُرس. وترتب على فتح جلولاء دخل في الإسلام دهاقين الفلاليج والنهرين وأقرهم عمر بن الخطاب على ما بأيديهم من البلاد ورفع عنهم الجزية، وأرسل سعد بن أبى وقاص إلى عمر ليبشره بأمر الفتح فكتب إليه قف مكانك ولا تتبعهم. [١]

ن-موقعة نهاوند ٢١هـ/٦٤٢م:

دور الاستخبارات قبل معركة نهاوند:

كانت الأخبار قد وصلت إلى عمر بن الخطاب فى المدينة باجتماع أهل أصبهان وهمدان والرى وأذربيجان ونهاوند لقتال المسلمين وأقلق ذلك عمر وأخذ يبحث عن قائد لقيادة جيش المسلمين إلى هناك ودخل المسجد فرأى رجلاً يصلى صلاة خاشعة فامتلأ قلبه إعجاباً به وأمتلأت نفسه ثقة فيه، وكان الرجل مفتول الزراعين مرفوع القامة قوى العضلات، فسأل الخليفة عمر من هذا؟، فقيل له: النعمان بن مقرن فقال: علىَّ به فلما مثل الرجل بين يديه قال له عمر: لقد انتدبتك لأمر عظيم قال الرجل: يأمير المؤمنين إن كنت تريدنى لجمع الزكاة فإنى لا أصلح لذلك وإن كنت تريدنى لقتال العدو فإنى أصلح لذلك، قال عمر: أردتك للجهاد والقتال ثم ولاة إمارة الجيش.

كان اول عمل قام به النعمان قبل السير بجشيه نحو نهاوند وكان على مسافة بضعة وعشرين فرسخاً أن كلف كلاً من طلحة بن خويلد الأسدى وعمرو بن أبى سلمى العزى وعمرو بن معد يكرب الزبيدى بالتقدم أمام الجيش للإستطلاع للطرق الموصلة إلى نهاوند ومعرفة القوة الضاربة للأعداء وأنواع أسلحتهم ومعداتهم فصار ثلاثة مقدار يوم وليلة ثم عادوا يبلغوا القائد أن ليس بينهم وبين نهاوند شئ يعوق تقدمه مع إخباره بموصفات قوة الأعداء، الأمر الذى جعل النعمان يرسم خطة المعركة بناءاً على ما وصله من أخبار ومعلومات عن طريق دورية الاستطلاع، وكان النصر المؤذر والفتح الكبير لهذه البلاد. [٢]

بعد انتصار المسلمين في جلولاء وسقوط ما حولها من البلاد اضطر يزدجرد أن يغادر حلوان على إقليم فارس، فافتتح المسلمون حلوان ثم قرميسين في الشمال الشرقى منها، ثم جرت الموقعة

---

[١] حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى، ج١، ص ١٧٩-١٨٠.

[٢] نبيه عاقل وآخرون: تاريخ الدولة العربية الإسلامية الأولى، ط٣، دار الكتاب، دمشق، ١٩٩١م، ص١٣٤.

الكبرى التي يطلق عليها العرب فتح الفتوح في نهاوند جنوبى همذان سنة ٢١هـ، ودار قتال عنيف بين المسلمين والفرس أسفر اللقاء عن هزيمة الفرس وفتحت أمام المسلمين الطريق إلى مناطق إيران الداخلية.

وبلغ من اهتمام المسلمين بهذه الموقعة أن كاد يخرج إليها عمر بنفسه، وكانت هزيمة الفرس إيذانا بسقوط المقاومة المنظمة كلها وتشتت القوى الفارسية في جهود فردية متفرقة يقوم بها حكام القاطعات. وتابع المسلمون تقدمهم حتى غلبوا على أصفهان ثم أصطخر، ثم تتساقط مدن خراسان في يدى الأحنف بن قيس وقتل يزدجرد بعد سلسلة من التنقلات في مرو سنة ٣١هـ/٦٥١م.

٢-فتوح الشام:

أ- دمشق (١٤هـ/٦٣٥م):

لما انتصر المسلمون في موقعة اليرموك، قفل هرقل عائدا إلى حمص ليجعلها مقرا لأعماله الحربية فخرج أبو عبيدة حتى نزل بمرج الصفر وبعث الخليفة عمر بن الخطاب أوامره بتولية الأمراء على ما استعملهم عليه أبو بكر. فيما عدا عمرو بن العاص وخالد بن الوليد فإنه ضم خالدا إلى أبى عبيدة. وأمر عمرا بمعاونة غيره من القواد حتى تنتقل الحرب إلى فلسطين فيتولى القيادة فيها.

وشرع أبو عبيدة في تنفيذ عملياته الحربية للاستيلاء على دمشق فنزل عمرو بن العاص باب الفراديس، وخالد بن الوليد بالباب الشرقى وأبو عبيدة بن الجراح بباب الجابية، وشرحبيل بن حسنة بباب توما، وقيس بن هيبرة بباب الفرج. [١]

وشد المسلمون الحصار على أهل دمشق سبعين يوما، ومنعت وصول الإمدادات والمؤن من الدخول للمدينة، ودخل خالد بن الوليد عنوة من الباب الشرقى، وأذعن البيزنطيون لأبى عبيدة بن الجراح بالصلح والتقى مع خالد عند كنيسة المقسلاط ووافق أبو عبيدة على اعتبار أن فتح دمشق تم صلحا.

ب-فتح مدن الشام الشمالية:

سار المسلمون بعد فتح دمشق إلى فحل واستولوا عليها، ثم استولوا على بيسان وطبرية وسار أبو عبيدة إلى حمص سنة ٦٣٦/١٥م وفرض عليها الحصار وطلب الروم الصلح مع أبى عبيدة

---

[١] حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى، ج١، ص ١٨٧.

فصالحهم. ثم سار إلى حماة وخرج الروم يطلبون الصلح من أبى عبيدة فصالحهم على الجزية وفرض على الأرض ضريبة الخراج.

كما فتح أبو عبيدة اللاذقية وجبلة وقنسرين. وواصل أبو عبيدة فتح المدن والقلاع حتى بلغ الفرات وسير قواده في حملات إلى منبج ودلوك ورعبان وبالس، فافتتحوها صلحا، ثم عبرت جيوش المسلمين درب بغراس من أعمال أنطاكية إلى بلاد بيزنطة بقيادة ميسرة بن مسروق العبسى وهو أول من سلك هذا الدرب من المسلمين. [١]

ج-فتح بيت المقدس:

سار عمرو بن العاص وشرحبيل إلى بيسان فافتتحاها وصالحا أهل الأردن. واجتمع عسكر الروم بغزة وأجنادين وبيسان وسار عمرو وشرحبيل إلى الأرطبون ومن معه وهو بأجنادين. وكان الأرطبون من دهاة قادة الروم وحشد جنده في الرملة وإيلياء. ولما علم عمر بن الخطاب بذلك قال: رمينا أرطبون الروم بأرجلون العرب، وشكل معاوية أهل قيسارية عن عمرة وجعل عمرو كل من علقمة بن حكيم ومسروق العكى على قتال أهل إيلياء ليشغلوا عنه جند الروم. وجعل أبا أيوب المالكى على من بالرملة من الروم. وتدفقت الإمدادات على عمرو بن العاص من المدينة المنورة.

وعزم عمرو بن العاص على قتال الأرطبون في أجنادين وأنهزم الأرطبون وانسحب إلى إيلياء ونزل عمرو أجنادين. ولما دخل الأرطبون إيلياء (بيت المقدس) فتح عمرو غزة ونابلسى واللد وعموس، وبيت جبرين ويافا ومرج العيون.

ولما شدد أبو عبيدة بن الجراح الحصار على بيت المقدس طلب أهله منه أن يصالحهم على صلح أهل مدن الشام بشرط أن يحضر الخليفة عمر والتقى الخليفة عمر بأمرائه على جند الشام في الجابية.

وسلم أهل بيت المقدس المدينة إلى الخليفة عمر وصالحهم على الجزية وفى تلك الأثناء كان الأرطبون قد فر إلى مصر. [٢]

---

[١] أبو الفدا: المختصر فى تاريخ البشر، ج١، ص١٩٩؛ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى، ج١، ص ١٨٨.

[٢] ابن الأثير: الكامل، ج٢، ص ٣٤٩.

وكتب الخليفة عمر بن الخطاب كتاب الصلح والأمان لأهل بيت المقدس، ويعتبر هذا الكتاب أجمل صورة تاريخية لسياسية التسامح.

د-**فتح مدن ساحل الشام الجنوبى:**

سار يزيد بن أبى سفيان ومعه أخوه معاوية في فتح سواحل الشام الجنوبية فاستولى على عرقة، وجبيل، وبيروت، وصيدا، وصور، وعكا.

وسار عمرو بن العاص إلى قيسارية لملاقاة قسطنطين هرقل، ولكن هذا الأمير وجد أنه لا جدوى من القتال، فرحل سرا هو وأسرته إلى القسطنطينية.[١]

[١] السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، ص ٢١٢.

٣-فتح مصر (٢١-١٩هـ/٦٤٠-٦٤٢م):

لما قدم الخليفة عمر بن الخطاب إلى الجابية عرض عليه عمرو بن العاص فكرة فتح مصر مبينا له أهميتها كقوة للمسلمين وكثرة أرضها وخيراتها. ولكن عمر رفض هذه الفكرة في مستهل الأمر خشية على المسلمين من التوسع في عدة جبهات ولم تثبت أقدامهم بعد في البلاد التي فتحوها.

وكان فتح مصر أمرا تقتضيه طبيعة الوجود الإسلامى في بلاد الشام، فإن بقاء مصر في يد الروم، يهدد سلطانهم فيها بالزوال، كما أن موقع مصر الجغرافى يساعد الغرب على مواصلة الفتح غربا لضم المغرب والأندلس إلى حوزة الدولة الإسلامية. أضف إلى ذلك أن العرب بفتحهم لمصر يحققون أهم غرض من الفتوح العربية وهو نشر الإسلام في منطقة جديدة من أراضى الإمبراطورية الرومانية.

وبعد اقتناع الخليفة عمر بن الخطاب أذن إلى عمرو بن العاص بالمسير إلى مصر على رأس أربعة آلاف وقيل ثلاثة آلاف وخمسمائة مقاتل، وشرط عليه أنى مرسل إليك كتاباً، فإن أدركك وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو تدخل شيئا من أرضها فانصرف، وإن دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فأمض واستعن بالله واستنصره.

واختلفت الروايات حول وصول كتاب الخليفة عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص فقيل إنه وصل وهو في رفح فتخوف أن يفتحه وأن يجد فيه ما يحول دون تحقيق هدفه بدخول مصر. وقيل إنه لم يأخذ الكتاب حتى نزل فيما بين رفح والعريش. ولما علم أنه دخل مصر أمر بفتح الكتاب على جنده.[١]

---

[١] على إبراهيم حسن: مصر فى العصور الوسطى، ط٥، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٤م، ص ٣٥.

أ-العريش:

سار عمرو بن العاص في الطريق المحاذى للبحر المتوسط حتى وصل على العريش وفتحها بدون مقاومة من القوات الرومانية.

ب-الفرما:

واصل عمرو زحفه تجاه الفرما واصطدم بحامية رومانية، واستمر القتال بين الفريقين لمدة شهر حتى فتحها.

ج-بلبيس:

مضى عمرو بن العاص إلى بلبيس واشتبك مع المقاومة الموجودة وفتحها بعد حصار دام شهرا.

وكان بها أرمانوسة ابنة المقوقس "قيرس" وأرسلها عمرو بن العاص بأموالهم إلى أبيها معززة مكرمة واكتسب عمرو بن العاص بهذا الموقف محبة القبط. [١]

د-أم دنيين:

زحف عمرو بن العاص إلى قرية أم دنيين (جهة الأزبكية) والتقى مع الروم ودار بين العرب والروم قتالا عنيفا.

وكتب عمرو إلى الخليفة عمر بن الخطاب يطلب المدد فأمده بأربعة آلاف رجل وعليهم أربعة رجال أقوياء هم الزبير بن العوام، والمقداد بن عمر، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد، وقيل خارجة بن حدافة.

ولما وصل هذا المدد إلى عين شمس (هليوبوليس) سار عمرو بن العاص لملاقاته فتقدم لقتاله تيودور ملك الروم في عشرين ألفاً، فوضع له عمرو كمينا في موضع خفى من الجبل الأحمر (شرقى العباسية) وآخر في النيل بالقرب من أم دنيين واشتد القتال خرج كمين العرب من الجبل الأحمر وانقضت على الروم واختل نظامهم وذهبوا إلى أم دنيين، فقابلتهم قوة العرب التي على النيل فأصبحوا محصورين بين جيوش العرب التى أنزلت هزيمة ساحقة بالروم.

هـ-حصن بابليون:

---

[١] ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، تحقيق هنرى ماسيه ليدن، ص٥٦-٥٩.

فر الرومان من أم دنيين إلى حصن بابليون أقوى الحصون الرومانية في مصر وكان يعرف هذا الحصن "بقصر الشمع" فحاصره سنة ٢٠هـ/٦٤٠م. وطالت مدة الحصار إلى سبعة أشهر.

وطلب المقوقس التفاوض مع عمرو بن العاص.وبعث برسله إلى عمرو الذي عمد إلى إبقائهم عنده يومين، ليشاهدوا حالة الجيش الإسلامى، وبعث عمرو برسله معهم وحدد مطالبة المقوقس وهى الدخول في الإسلام أو الجزية أو القتال.

وسأل المقوقس رجاله عن حالة المسلمين فقالوا: "راينا رجالا الموت أحب إلى أحدهم من الحياة والتواضع أحب إليه من الرفعة ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة". (١)

ولما سمع المقوقس هذا الكلام رغب في عقد الصلح في أسرع وقت ممكن وأرسل إلى عمرو بن العاص أن يبعث رجالا للتفاوض معهم، ولبى عمرو دعوة المقوقس وأرسل عشرة رجال على رأسهم عبادة بن الصامت.

وجرت المفاوضات بين عبادة بن الصامت والمقوقس في مناقشات طويلة أسفرت في النهاية عن عقد صلح بين المقوقس وعمرو بن العاص نص على:

١-يلتزم الأقباط بدفع دينارين عن كل واحد ويعفى من دفعها الشيوخ والنساء والأطفال.

٢-من نزل من المسلمين على الروم فحق الضيافة ثلاثة أيام مفترضة.

٣-تبقى للروم أرضهم وأموالهم على ما هي عليه، لا يتعرض لهم العرب في شئ منها.

وكتب المقوس إلى الإمبراطور هرقل بأمر الصلح الذي عقده مع عمرو بن العاص أنكر عليه ملك الروم ذلك. واتهمه بالتقاعس وكره القتال. وكتب إلى قواد الروم الذين مع المقوقس.

وأخر المقوقس عمرو بن العاص برفض هرقل للصلح وأمر قواده من الروم بمواصلة القتال في حين أن المقوقس التزم بعهده ومن أطاعه من الأقباط مع المسلمين. (٢)

ولما طال حصار المسلمين لحصن بابليون صعد الزبير بن العوام إلى أعلى الحصن وكبر وظن الروم أن العرب اقتحموا الحصن فولوا هاربين ودخل الزبير وأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه واقتحم المسلمون الحصن.

و-الإسكندرية (٢١هـ/٦٤٢م):

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ٧١.

(٢) على إبراهيم حسن: مصر فى العصور الوسطى، ص ٤٢.

لما سقط حصن بابليون في يد عمرو بن العاص سار إلى الإسكندرية وخرج معه جماعة من الأقباط لإصلاح الطرق وإقامة الجسور. وعلمت الروم بخروج عمرو فاستعدوا لملاقاته واصطدم بحاميات رومانية في ترنوط، وكون شريك وسلطيس، والكريون كان النصر حليف عمرو في تلك الأماكن.

وصل عمرو بن العاص إلى الإسكندرية وفرض عليها الحصار لمدة أربعة عشر شهرا.

وتحصن الروم بالإسكندرية ودفعوا عنها بكل قوة. ووضع عمرو بن العاص خطة حربية نفذها رجاله بكل بسالة وعلى إثرها سقطت الإسكندرية في يد المسلمين وهرب الروم في البر والبحر وأرسل عمرو بن العاص بخبر فتح الإسكندرية مع معاوية بن حديج إلى الخليفة عمر بن الخطاب أن الله قد فتح علينا الإسكندرية عنوة.

ولما تم عمرو بن العاص فتح الإسكندرية ورأى بيوتها هم أن يسكنها وكتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في ذلك، فجا جواب الخليفة عمر أن لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم في الشتاء أو الصيف فقفل عمرو بن العاص عائدا إلى الفسطاط وشيد في هذا الموضع المسجد سنة ٢١هـ/٦٤٢م وهو أول مسجد بنى في مصر وعرف بجامع الفتح أو الجامع العتيق. وشيد عمرو بن العاص دارا له بجوار المسجد واختطت قبائل قريش، والأنصار، واسلم، وغفار وجهينة مساكنها. [١]

٤-فتح النوبة:

لما فتح عمرو بن العاص مصر بعث عقبة بن نافع إلى بلاد النوبة. ولقى المسلمون من أهل النوبة قتالا شديدا فكانوا يرشقونهم بالنبل وكانوا يعرفون برماة الحدق. [٢]

٥-فتح برقة وطرابلس (٢٣-٢٢هـ/٦٤٣-٦٤٤م):

سار عمرو بن العاص إلى برقة على الطريق الساحلى المحاذى للساحل واستولى على برقة سنة ٢٢هـ/٦٤٣م وأذعن أهلها لدفع الجزية ومقدارها ثلاثة عشر ألف دينار.

---

[١] ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ٦٦.

[٢] البلاذرى: فتوح البلدان، ج١، ص٢٨٠.

ورغب عمرو في مواصلة فتوحه فشرع في تجهيز جيشين: أحدهما يسير بحذاء الساحل للاستيلاء على طرابلس والثانى يتجه إلى الداخل للسيطرة على المراكز العمرانية في جوف الصحراء التي تمثل جيوبا للمقاومة يخشى من قطعهم خط الرجعة على المسلمين.

بعث عمرو قائده عقبة بن نافع بجلة إلى فزان ففتحها ثم واصل زحفه جنوباً حتى استولى على زويلة.

أما عمرو بن العاص سار بحملة إلى طرابلس وفرض عليها الحصار سنة ٢٢هـ/٦٤٣م لمدة شهر وسقطت في يد المسلمين ثم بعث عمرو جيشا لمفاجأة سبرت، وجيشا آخر بقيادة بسر بن أبى أرطأة لفتح ودان سنة ٢٣هـ/٦٤٤م ليقضى على أى محاولة مفاجأة من جانب البربر على المسلمين وليأمن ما تم فتحه.

وأرسل عمرو بن العاص بخبر الفتح إلى الخليفة عمر يستأذنه في مواصلة الفتح: "أن الله فتح علينا طرابلس وليس بينها وبين أفريقية إلا تسعة أيام فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزو ويفتحها الله على يديه فعل". (١)

ولكن الخليفة عمر بن الخطاب رفض فكرة الاستمرار في الفتح بقوله: "لا إنها لست أفريقية ولكنها المفرقة غادرة مغدور بها لا يغزها أحد ما بقيت".

وعاد عمرو بن العاص إلى مصر بناء على رغبة الخليفة عمر بعد أن ترك عقبة ابن نافع على ولاية برقة والمناطق الصحراوية يدعوهم للإسلام حيث نجح في كسب ود سكان البلاد من قبائل لواتة ونقزاوة وهوارة فدخلوا في الإسلام وأصبحت برقة قاعدة الجيش الإسلامى في غرب مصر.

استشهاد الخليفة عمر بن الخطاب:

طعن أبو لؤلؤة المجوسى غلام المغيرة بن شعبة الخليفة عمر بن الخطاب ثلاث طعنات في جسده أثناء تأديته لصلاة الصبح، وتوفى بعدها بثلاثة أيام.(٢)

---

(١) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب، مكتبة الآداب، القاهرة، د.ت، ص ٥٦.

(٢) صابر محمد دياب: تاريخ الدولة الإسلامية فى عصر الراشدين، دار الثقافة، القاهرة، ص١٣٣.

الخليفة عثمان بن عفان (٣٥-٢٣هـ/٦٤٤-٦٥٦م)

شخصية عثمان :

كان عثمان عندما اعتلى عرش الخلافة قد تقدم فى السن تقدماً كبيراً، فقد قيل إنه كان فى ذلك الحين فى السبعين من عمره، وشفع له فى الوصول إلى الخلافة ماضيه المجيد فى سبيل الدعوة الإسلامية، إذ كان أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد الستة الذين توفى رسول الله وهو عنهم راض.

كان عثمان غنياً انفق معظم أمواله فى سبيل نشر الدعوة الدينية، شديد الإيمان بصدق رسالة النبى صلى الله عليه وسلم، وقد تزوج ببنتين من بناته، كما كان طيب القلب خالص العقيدة سخياً، وذاع عنه الجود والكرم والبذل للقريب والبعيد حتى قلده عماله وكثير من أهل عصره فى طريقته واقتدوا بفعله. (١)

ومع ذلك لازمه سوء الحظ فى خلافته، فإنه لم يؤثر عنه مواقف تدل على شجاعته فى الحروب، ولذا كانت خدمته للإسلام بماله لا بسيفه، كما أنه تجرد من قوة الإرادة وبعد النظر والدهاء السياسى وهى مما اتصف به أبو بكر وعمر.

- **انتخابه:**

اختيار عثمان ﷺ :

عندما طعن عمر ﷺ على يد أبى لؤلؤة المجوسى قال الناس له: أوصى يا أمير المؤمنين أى استخلف كما فعل أبو بكر الصديق حتى لا يختلف المسلمون من بعده تدبر عمر رغم جراحة النازفة هل يتحمل المسؤولية حياً وميتاً؟ أم يترك الأمة عرضاً للاختلاف (٢) وقال من استخلف لو كان أبو عبيده حياً استخلفته، فإن سئلنى ربى سمعت نبيك يقول: إنه أمين هذه الأمة، ولو كان سالم مولى أبى حذيفة حياً استخلفته فإن سئلنى ربى قلت: سمعت نبيك يقول إن سالماً شديد الحب لله، وإن كان معاذ بن جبل حياً لاستخلفته، فإن سألني ربى قلت: سمعت نبيك يقول إن معاذاً أعلم أمتي بالحلال والحرام، ثم قال إن استخلف فقد استخلف من هو خير منى وإن اترك فقد ترك من هو خير منى ولن يضيع الله دينه فخرجوا، وأخيراً استقر رأيه على أن يجعل مسؤولية الأمة فى يدها ويد ممثليها، وفى نفس الوقت يقيها الشقاق والاختلاف وقال للمقداد بن الأسود: إذا وضعتموني فى حفرتى: فاجمع هؤلاء الرهط فى

---

(١) السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص ١٦٣.

(٢) الطبرى : تاريخ الطبرى ، ج٢،ص ٥٨٠-٥٨١

بيت، حتى يختاروا رجلا منهم، فأمر بتشكيل مجلس شورى يضم ستة من المرشحين هم عثمان وعلى والزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص، ويحضر معهم ابنه عبد الله على أن يكون رأيه شورياً فقط يلجأ إليه القوم للترجيح وليس له حق الترشيح وبنى عمر اختياره لهم على أنهم الستة الباقون من العشرة الذين بشرهم الرسولﷺ بالجنة، واعتبر ذلك تزكية لهم ومدعات للثقة فيهم. [١]

وحدد عمر مهمة المجلس ومدة انعقادة ونظام العمل داخله، فجعل لكل واحد من هؤلاء الستة حقين حق الترشيح، وحق الاختيار فعليهم أن يختاروا واحداً من بينهم وأمهلهم ثلاثة أيام بعد وفاته لايزيدون عنها ووضع الضمانات لحسم الخلاف منها:

- أمر صهيباً أن ينوب عن الخليفة في هذه المدة ويصلى بالناس ويتابع مجلس الشورى.
- إذا خرج أحدهم على رأى الأغلبية فعليه أن يضربه بالسيف.
- إن رضي ثلاثة رجلاً وثلاثة رجلاً فليحكموا عبد الله بن عمر فإن لم يرضوا رأيه فليكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، ويقتلون الباقين إن أصروا على الخلاف.
- أمر عمر بانعقاد المجلس عقب وفاته دون انتظار طلحة الذى كان غائباً عن المدينة فإن حضر نضم إليهم وان تأخر سقط حقه فى الترشيح.
- ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم ولا أظن أن يلى إلا أحد هذين الرجلين على وعثمان.
- إن اجتمع خمسة ورضوا رجلاً وأبى واحد فاضرب رأسه بالسيف.
- إن اتفقا أربعة فرضوا رجلاً منهم وأبى اثنان فاضرب رأسهما.
- ونهى كل واحد منهم إن صار خليفة عن تفضيل الأقارب وحملهم على رقاب الناس وأوصى من يصير خليفة من بعده بالأنصار خيراً وبالعرب.

تداول أهل الشورى الرأى:

استأذن عبد الرحمن بن عوف من معه فى الخروج من الشورى وترك حقه فى الخلافة ليرى رأى الناس والأمراء والوفود بالمدينة وعاهد أهل الشورى على الإنصاف والحياد وعاهدوه على الرضى وقالوا لقد قال فيه رسول اللهﷺ: "أمين فى السماء وأمين فى الأرض" طاف عبد الرحمن على الناس وخلى بكل واحد من أهل الشورى وطال النقاش داخل المجلس حتى طلعت شمس اليوم الثالث دون أن يصل المجتمعون إلى قرار، فاقترح أن يتنازل أحدهم عن حقه فى الترشيح وأن يكون له الحق فى

---

[١] ابن الاثير : الكامل، ج ٣ ، ص ٣٥

الاختيار: أيكم يخلع نفسه ويتقلدها، على أن يوليها أفضلكم؟ فلم يجبه أحد، فقال أنا أخلع نفسى، فوافق الباقون على ذلك فأصبح الاختيار موكلاً إليه وأخذ عليه باقى الأعضاء عهداً ألا يتبع الهوى ولا يخص ذا رحم ولا يألو الأمة.

وخطى الخطوة الثانية لتيسير المهمة فتنازل الزبير وسعد عن حقهما فى الترشيح بعد أن أحسا بضئآلة فرصتهما وأصبح الاختيار محصوراً فى عثمان وعلى رضى الله عنهما.

وقبل أن يحزم عبد الرحمن الأمر استشار الناس فوجد ميلاً عاماً نحو عثمانﷺ ولعل ذلك لأن الناس كانوا يتطلعون إلى لين عثمانﷺ وتسامحه بعد أن ضاق الكثير منهم بالقيود التى فرضها عليهم عمرﷺ .

ومن خلال هذه المشاورات بقى على عبد الرحمن بن عوف أن يجد السند القوى الذى يقنع به عامة المسلمين حتى يأيدوا هذا الترشيح ولا يختلفوا عليه فأعد سؤالاً واحداً ليوجهه إلى المرشحين على الملأ وهو سؤال يدل على درايته بطبيعة الشخصيتين فهو يعلم اعتداد على ﷺ برأيه واجتهاده وحرصه على استقلال سياسته ومنهجه، ويعلم مدى إعجاب الجماعة الإسلامية بسيرة أبى بكرﷺ وعمر وحبها لهما، ولذا كان سؤاله: "هل أنت مبايعى على كتاب الله وسنة رسوله وفعل أبى بكر وعمر؟، وكانت إجابة على المتوقعة أعمل بكتاب الله وبسنة رسولهﷺ وأرجوا أن أفعل وأعمل بمبلغ علمى وطاقتى، لأنه لايريد أن يعد بما لايستطيع أن يفى به ولا أن يقيد نفسه بقواعد محددة فى ظروف متجددة، بينما كانت إجابة عثمان اللهم نعم فبايعه عبد الرحمن بن عوف وتزاحم الناس على بيعته وفيهم علىﷺ الذى شق الصفوف إلى عثمان وبايعهﷺ محافظة على وحدة الأمة فسكت من كان يتحزب له وكان عثمانﷺ فى السبعين من عمره تقريباً.

وهكذا تمت بيعة عثمانﷺ بالشورى الحرة المحصورة فى نطاق ضيق وهو الستة فكانت وسطاً بين السقيفة وترشيح شخص واحد مثل عمرﷺ.

وجهت بعض الانتقادات لطريقة ترشيح أو مبايعة عثمان فالبعض وجه نقداً للمجلس لأنه كان مقصوراً على المرشحين الستة وكان الأفضل أن يكثر فيه المستشارون، وأن تحديد فترة عمله بثلاثة أيام ليست بكافية وكان الأفضل أن ينفسح الوقت للاختيار. [١]

---

[١] الطبرى: تاريخ الأمم، ج٢، ص ٥٨٣.

ولكننا نرى أن عمر رضي الله عنه كان أقرب للأمور وأبصر وكان حرصه الأول أن يحسم الخلاف ويمنع بوادر الفتنة، ولو وسع نطاق الشورى لتعددت الآراء والأهواء وقد أحس المرشحون برغم عددهم المحدود بهذا الخطر فضيقوا النطاق أكثر مما فعل عمر وجعلوا أمرهم إلى واحد منهم فقط مما يؤكد ملائمة الاتجاه الذى صار فيه عمر للظروف التى كانوا فيها.

أما تحديد الفترة الزمنية بثلاثة أيام فهى مدة كافية جداً لأن أشخاص المرشحين ليست مجهولة لأحد من المسلمين وليس بلاؤهم ومكانتهم فى حاجة إلى دراسة، ولو امتد الزمن لأنفسح مجال الشقاق بدليل أن بوادره ظهرت صبيحة اليوم الرابع عندما اجتمع المسلمون فى المسجد وكثر الجدال حتى صاح سعد بن أبى وقاص يتعجل عبد الرحمن بن عوف بنتيجة الترشيح: "أفرغ قبل أن يفتتن الناس". وإذا نظرنا إلى أسلوب اختيار عثمان برغم اختلافة الشكلى، وجدنا المبادئ التى التقت عليها الأمة فى اختيار سلفيه قد توفرت فيه، فالترشيح تم عن طريق أهل الحل والعقد، (مجلس الستة) الذين اختارهم عمر وفيما رجع إليهم عبد الرحمن بن عوف خارج المجلس، ثم أعطت الأمة بيعة عامة فى المسجد، وبايع أهل المدينة عثمان رضي الله عنه ولم يتخلف منهم أحد. [١]

اتساع الدولة العربية زمن الخليفة عثمان رضي الله عنه:

كان ميدان الفتوح الإسلامية فى زمن عثمان فى الشرق والغرب من الجزيرة العربية. ففى الشرق خرجت فارس بعد مقتل عمر على السيادة الإسلامية وهم الفرس باسترجاع ملكهم بقيادة يزدجرد بن شهريار آخر الملوك الساسانيين، فعهد عثمان إلى عبد الله بن عامر عامله على البصرة لقمع هذه الثورة، فقضى عبد الله على الفتنة فى فارس ثم تابع سيره إلى خراسان وفتحها بعد أن ترك لجنده أمر إعادة سلطان الدولة فى كرمان وسجستان:

وفى أثناء هذه الحروب طورد يزدجرد وتوفى وقيل إنه قتل سنة ٣١هـ على يد بعض الفرس المسيحيين، وبموته انتهت سلسلة ملوك الدولة الساسانية فى فارس. [٢]

وفى عهد عثمان بن عفان فتح سعيد بن العاص طبرستان، وقيل إن جيش المسلمين كان يضم الحسن والحسين ابنى على. وكذلك طلب ملك جرجان الصلح من سعيد بن العاص، وتعهد بأن يدفع له

---

[١] ابن الأثير : الكامل، ج٣، ص٣٦.

[٢] البلاذرى: فتوح البلدان، ج١، ص٢٣٤.

مائتى ألف درهم كل عام. وعبر الأحنف بن قيس نهر جيحون فصالحه أهالى بلاد ما وراء النهر، ثم توغل فى طخارستان وفتحها مدينة بعد أخرى حتى أرغم أهلها على مصالحته.

وكانت الشام فى عهد عثمان مقسمة بين الأمراء المسلمين، وكان معاوية يحكم جزءاً كبيراً منها وعرف بحسن السياسة والتدبير، وتمكن من جمع الشام كلها تحت حكمه وأصبح أشبه بملك مستقل، فقد مكث أميراً عليها مدة طويلة بلغت العشرين عاماً، وصار له فى قلوب أهل الشام مكانة سامية كان لها أكبر الأثر فى تعضيدهم له عندما عزله على ورفض معاوية أن يطيع ذلك الأمر.

وفى مصر عزل عثمان واليها عمرو بن العاص وولى عليها أخاه من الرضاعة عبد الله بن سعد بن أبى السرح، وكانت مصر إذ ذاك مهددة من الدولة البيزنطية، ومع ذلك فقد غزا ابن أبى السرح الإقليم المسمى إفريقية لتأمين حدود مصر الغربية.

كانت الدولة العربية حتى وفاة عمر دولة برية وليست بحرية: فكانت جيوشها تحارب براً، ولم نسمع إلى ذلك الوقت بواقعة بحرية أو بإنشاء أسطول، ولكن فى عهد عثمان ابتدأت الدولة الإسلامية فى تكوين قوة بحرية كبيرة. ويقال إن معاوية استأذن عمر فى إنشاء أسطول يغزو به الروم فى البحر، وذلك لأن معاوية وجد أن أساطيل الروم لا تبرح تهدد شواطئ الشام، إلا أن عمر امتنع عن ذلك لخوفه على المسلمين من ركوب البحر، ولكن الضرورة كانت ماسة لإنشاء أسطول، إذ أصبح العرب أمام البيزنطيين وجهاً لوجه، فلما جاءت خلافة عثمان عرض عليه معاوية الفكرة من جديد، فأذن له عثمان على شرط ألا يجبر مسلما على ركوب البحر، فجد معاوية فى إنشاء أسطول جعل رجاله من العرب اليمنيين، وأمر على الأسطول الإسلامى عبد الله بن قيس الحارثى فكان أول أمراء البحر، وقد حارب معاوية بهذا الأسطول البيزنطيين حتى وصل إلى عمورية فى آسيا الصغرى كما استولى على جزيرتى قبرص ورودس وفتح كثيراً من الحصون، وصار إلى أرمينية الصغرى حتى وصل إلى فاليقلا فصالحه أهلها ثم استمر فى فتوحه حتى بلغ تفليس. [١]

وفى سنة ٣٤هـ حدث بين العرب فى مصر بقيادة عبد الله بن أبى السرح وبين قسطنطين ملك الروم، موقعة بحرية هامة فى البحر الأبيض المتوسط، تعرف بموقعة ذات الصوارى بالقرب من مدينة الإسكندرية حين حاول الروم استرجاع مصر، وكان النصر فيها للعرب، وسميت بذلك الاسم لكثرة عدد

---

[١] ابن الأثير: الكامل، ج٣، ص٤٣.

السفن التى اشتركت فى المعركة، ومنذ ذلك الوقت بدأ الأسطول العربى يقوم بدور هام فى التاريخ الإسلامى.

وكان عمرو بن العاص قد غزا بلاد النوبة، فلما جاء ابن أبى السرح إلى مصر وتولى أمرها، وجه نظره نحو الجنوب فغزا بلاد النوبة من جديد وواصل سيره حتى بلغ دنقله، ولكنه لم يتمكن من فتحها، رغم ما بذله من جهود فى القتال، وكان ذلك سنة ٣١هـ، فاضطر إلى مهادنة أهلها وعقد الصلح معهم، وكان هذا الصلح أشبه بمعاهدة اقتصادية بين مصر وبلاد النوبة: فقد نصت على أن ترسل بلاد النوبة الرقيق إلى مصر، على أن تصدر مصر إليها الحبوب والعدس.

مقتل عثمان والأحداث التى أدت إليه:

إذا قارنا بين حال المسلمين فى زمن النبى وأبى بكر ﷺ وعمر وحالهم فى زمن عثمان، نجد هناك فرقاً شاسعاً: ففى الزمن الأول كان المسلمون فقراء لم يفتنهم المال والعقار وامتلاك العبيد، أما فى زمن عثمان فقد نشأ من تدفق الأموال على بلاد العرب بعد استقرار النفوذ العربى فى الأقاليم المفتوحة أن تغيرت حالة العرب الاجتماعية تغيراً ملحوظاً. كذلك تغيرت شخصية الخليفة، فهناك فرق كبير بين شخصية النبى وأبى بكر ﷺ وعمر وبين شخصية عثمان: فالنبى ﷺ كانت له مكانة خاصة ممتازة كما كان زعيماً سياسياً قديراً على تصريف أمور الدولة وحكم أصحابه من بعده حكما حازماً. وعرف أبو بكر وعمر بالعدل المقرون بالشدة، ولكن عثمان من سوء حظه أنه حكم الدولة العربية بعد أن تغيرت أحوالها واتسعت املاكها وكثرت أموالها وزادت مطامع رجالها، ولذلك لم يكن موفقا فى حكمه توفيق النبى وخلفائه الأوائل من بعده. ويمكن إرجاع الفتنة التى أودت بعثمان إلى الأسباب الآتية:

١- اعتراض الصحابة على سياسة عثمان:

غضب كثير من الصحابة على عثمان؛ لاشتطاطه فى جباية الأموال وإغداقها على أقاربه وإسراف ولاته فى سفك الدماء، وكان أبو ذر الغفارى من أشد الصحابة سخطاً عليه، فأخذ يحض الأغنياء على الرحمة بالفقراء، ودعا إلى عدم كنز الأموال، وإلى صرف الفائض من أموال الأغنياء على الفقراء. ممثلا بقوله تعالى (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لانْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ) (التوبة:٣٤-٣٥) .

وقد غضب عثمان على أبى ذر الغفار، فأرسله إلى معاوية بالشام، ولكن معاوية خاف على ولايته من دعوة أبى ذر، وخاصة أن ابن سبأ حينما وفد إلى الشام حرض أبا ذر على معاوية؛ فسيره معاوية إلى المدينة لما وجد فيه معارضة لسياسته، فلما دخلها أبو ذر وجد المجتمعات تعقد بها للتآمر على عثمان فنادى فى المجتمعين: بشر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار، وأخيراً نفاه عثمان إلى الربذة حيث مات سنة ٣١هـ. [١]

وكان عبد الرحمن بن عوف، وهو ممن بايعوا عثمان بالخلافة، من بين الغاضبين على عثمان، وأخذ فى بادئ الأمر ينصحه، فلما ضاق ذرعاً بسياسته قاطعه وابتعد عنه. لم يرض على بن أبى طالب عن عثمان واعترض علناً على سياسته وتصرفاته وأكثر من نصحه بدون جدوى، حتى ساءت العلاقات بينهما، وتدخل العباس بن عبد المطلب للتوفيق بين الرجلين ولكنه لم ينجح فى مسعاه. وغضب كذلك عمار بن ياسر على عثمان وناله منه أذى كثير بسبب معارضته له، وهدد بالنفى فذهب إلى مصر وانضم هناك إلى المعارضين. وكان من بين الذين غضبوا أيضاً على عثمان بسبب تصرفاته، عبد الله بن مسعود وطلحة بن عبيد الله الذى قبل إنه كان من بين الذين حاصروا عثمان فى داره.

كان هؤلاء المعارضون من كبار الصحابة الذين لم تتجاوز معارضتهم حد النصح. ولا شك أن موقفهم من عثمان، كان بسبب ما رأوه من تنكبه الطريق السوى الذى سلكه الرسول وأبو بكر وعمر.

الحالة فى الأمصار:

١-فى المدينة:

لم تكن المصلحة العامة وحدها هى التى دعت إلى الثورة على عثمان: حيث أن كبار الصحابة جميعاً كانوا خلال معالجتهم للحالة فى الأمصار يعتبرون أنفسهم حماة للمصلحة العامة، يمثلون النظم والتقاليد التى سار عليها النبى وأبو بكر وعمر. وأنتجت معارضة هؤلاء ظهور روح الثورة فى المدينة، وهى بلدة كانت فى حاجة ماسة إلى العون المادى والمدد العسكرى ولذلك عمد أهل المدينة إلى الاتصال بالمسلمين فى الأمصار، وخاصة البصرة والكوفة والفسطاط، فيما عدا بلاد الشام التى لم تثر على عثمان بفضل سياسة معاوية.

---

[١] ابن العربى: العواصم من القواصم، حققه محب الدين الخطيب، المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٨٦م، ص ٦١-٦٢.

٢-فى الكوفة والبصرة :

ابتدأت الفتنة فى الكوفة فى سنة ٣٤هـ، وكان والى الكوفة سعد بن أبى وقاص قد عزله عثمان، وولى مكانه الوليد، ثم عزله وولى سعيد بن أبى العاص الذى اشتدت فى عهده الحالة فى الكوفة حتى اضطر إلى الخروج إلى المدينة ليطلع الخليفة على حقيقة الحال، فانتهز أهل الكوفة فرصة غيابه ومنعوه من دخولها عند عودته إليها: وهنا يتضح ضعف عثمان، فقد رضى بعزل سعيد وولى مكانه أبا موسى الأشعرى، وهو رجل ضعيف لم يستطع كبح الثوار. وكانت الحالة البصرة مثلها فى الكوفة، غير أن الثورة فى الكوفة كانت أشد منها فى البصرة لكثرة عدد الجند بها. [١]

٣-فى الفسطاط:

أما الفسطاط، فإن عثمان لما تولى الخلافة: عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر وولى مكانه عبد الله بن سعد بن أبى السرح، فخسر بذلك صداقة عمرو وهو رجل من أدهى رجال عصره، فقد خرج من مصر بعد عزله وسار إلى المدينة ناقماً على عثمان، فلما اشتد الحال فى المدينة ذهب إلى فلسطين ولكن حنقه على عثمان كان فى ازدياد.

وفى مصر كان على رأس الثوار المصريين رجلان من كبار المحرضين على عثمان هما: محمد بن أبى بكر ومحمد بن أبى حذيفة، فقد حقد ابن أبى حذيفة على عثمان لأنه كان يأمل أن يوليه بعض أمور المسلمين، ولكنه رفض وظهر مسلكه العدائى لعثمان عندما شجر الخلاف بينه وبين ابن أبى السرح فى واقعة ذات الصوارى سنة ٣٤هـ، وابتدأت الثورة فى مصر على الخليفة فى أثناء الغزوة التى انتهت بتلك الواقعة، فقد خرج المصريون ومعهم محمد ابن أبى بكر ومحمد بن أبى حذيفة وانضم إليهما فريق ممن على رأيهما، ويظهر أنهما سخطا على عبد الله بن أبى السرح لأنه استأثر بالأموال والخزائن وعاونه الخليفة على ذلك. ولما وضعت الحرب أوزارها رجع ابن أبى حذيفة وابن أبى بكر إلى الفسطاط، حيث انضما إلى ابن سبأ.

وهكذا نجح ابن سبأ فى مصر فى تأليب الناس على عثمان، وانضم إليه كثير من ذوى النفوذ والسلطان، ولذا كانت معارضة الأقاليم لحكم الخليفة أقوى من معارضة المدينة.

١- سياسة عثمان فى تولية الولاة:

ثالثاً : مشكلة الثورة التي قامت ضد الخليفة عثمان بن عفان ﷺ:

---

[١] ابن الأثير: الكامل، ج٣، ص٧٨.

لم تكد تمضى سنوات قليلة على فتح مصر حتى حدثت الفتنة التي انتهت بمقتل الخليفة عثمان بن عفان ﷺ على أثر تضافر عوامل مختلفة أدت إلى وقوع هذه الفتنة.

تولى عثمان بن عفان ﷺ الخلافة (٢٣ . ٣٥هـ/٦٤٣.٦٥٥م) بعد موت الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ ، وسار عثمان ﷺ على نهج سلفه في أعمال الفتوحات الإسلامية ، ولم تكن تمضى سنوات قليلة على خلافته حتى حدثت الفتنة التي انتهت بمقتله على أثر تضافر عوامل مختلفة أدت إلى وقوع هذه الفتنة كان من أهمها :-

وجدت حالة من التذمر في الدولة الإسلامية مجالا فسيحا في خلافة عثمان وذلك بعد أن بدأت تتوقف الفتوحات الكبرى ، بجانب لين الخليفة وتسامحه ، وبدأت حركة التذمر تسرى في الولايات الإسلامية المختلفة ضد الخليفة ، ولم تمض ست سنوات على حكمه حتى ترأس هذه الحركة رجل يهودي من أهل صنعاء أسلم زمن عثمان بن عفانﷺ، وهو عبد الله بن سبأ ، وكان يعرف بابن السوداء ، ويبدو أن ابن سبأ كان من الذين أسلموا ليضلوا الناس عن الإسلام ويكيدوا لهذا الدين.

بدأ ابن السوداء دعوته بالحجاز ، ثم البصرة والكوفة والشام ، ولكنه لم ينجح في الحجاز أو الشام ، كما أنه طرد من البصرة والكوفة، فجاء إلى مصر ووجد بها مجالا لنشر تعاليمه ودعايته ، وإعلان الثورة ضد الخليفة(١).

وخرج ابن السوداء للناس بنغمة جديدة غير التي جاءهم بها في الشام ، فألف حزبا بها واتخذه شيعة له ، وكان مما يخاطب به أهل مصر الآتي:

قال العجيب: من يصدق أن عيسى يرجع ويكذب أن محمد لا يرجع، وقد قال الله عز وجل: "إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد"(٢)

١. فوضع لهم الرجعة ، فتكلموا فيها وقبلها بعض الناس من ضعاف الإيمان
٢. روج بين شيعته نظرية الحق الإلهي التي أخذها عن الفرس ، واستند إلى أن عليا ﷺ هو الخليفة بعد الرسول ﷺ وأنه يستمد الحكم من الله.
٣. قال إن لكل نبي وصيا ، وعليﷺ وصى محمد ﷺ، ونادى بأحقية على ﷺ بالخلافة بعد الرسولﷺ، وأن عثمان ﷺ قد اغتصب الخلافة من وصى الرسول ﷺ .

---

(١) سيدة كاشف: عصر الولاة ، ص٧٢.

(٢) سورة القصص: آية٨٥.

ولابد أن ابن سبأ كان شخصية قوية جذابة جعلته يؤثر على العامة ، بل استطاع أن يجذب إليه كبار الصحابة مثل عمار بن ياسر ، الذي كان عثمان ﷺ قد أوفده إلى مصر ليقف على حقيقة الثورة بها ، فبقى عمار بمصر ولم يعد للمدينة[1] ، وقد ساعد ابن السوداء في رواج أفكاره عدة أمور منها:

١. تبرم أهل مصر على عثمان ﷺ وعامله عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وانضمام كل من محمد بن أبى حذيفة ، ومحمد بن أبى بكر الصديق إليه ، فنجحت سياسته.
٢. أن المصريين كانوا أنصارا لعلى بن أبى طالب ﷺ .
٣. انشغال عبد الله بن سعد بن أبى سرح في حروبه الخارجية في إفريقية والنوبة وضد الروم في معركة ذات الصواري سنة ٣٤هـ/٦٥٤م[2].

على أن بعض المستشرقين مثل: فلهوزن وغيره شككوا فى دور ابن سبأ فى الفتنة التى حدثت ضد الخليفة عثمانﷺ ، ومن العجيب أن هؤلاء بنو شكوكهم على بعض الروايات الضعيفة التى كتبت حديثاً، ويسوق مستشرق آخر وهو الإيطالى "كايتانى" اعتبارات أخرى للتشكيك فى دور ابن سبأ بأنه يشك فى وجود ذاته ويذهب إلى أنه مجرد أسطورة واستند فى ذلك أنه لم يرد له ذكر فى المصادر المتقدمة على تاريخ الطبرى، استحالة حدوث ذلك النوع من المؤامرات فى عصر الراشدين وأن التوقيت الطبيعى لهذا النوع من المؤامرات هو العصر العباسى، كما نفى الأسباب الدينية المحركة للفتنة وأرجع ذلك إلى أسباب إدارية واقتصاديه.

ومن الملاحظ ان المستشرقين ليسوا على حق فى هذه الآراء لأن أخبار ابن سبأ قد وردت فى العديد من المصادر منها:

١- ابن أبى عاصم: كتاب السنة، جـ٢، ص٤٧٦.
٢- الكاشى: كتاب الرجال، ص٩٨.
٣- ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج١،٧.
٤- ابن تيمية: منهاج السنة النبوية، جـ١، ص٢٣.

إن قول المستشرقين بأن العصر العباسى هو الوقت المناسب لمثل هذه الأحداث قول غير صحيح، لأن ما لقيه النبىﷺ من المؤامرات والمكايد فى العهدين المكى والمدنى من قبل المشركين

---

١ () سيدة كاشف: عصر الولاة ، ص٧٣.

(٢) الكندى: ولاة مصر ص٣٦،٣٧ ، سيدة كاشف: عصر الولاة ، ص٧٣.

والمنافقين واليهود أعظم بكثير مما حدث فى عصر الراشدين، قال تعالى: ﴿ [illegible] ﴾[1].

أما نفى الأسباب الدينية المحركة للفتنة وإرجاع ذلك لأسباب سياسية وإدارية واقتصادية فإن هدف المستشرقين هو استبعاد الدور اليهودى فى الفتنة وهذا أمر بعيد عن الصواب لأن اليهود مازالوا يكيدون للإسلام والمسلمين من عصر الرسولﷺ حتى اليوم قال تعالى: ﴿ [illegible] ﴾[2]، علماً بأن هذه الآية مكية أى أنها نزلت فى وقت لم يكن النبىﷺ قد اصطدم بعد باليهود مثلماً حدث عندما هاجر إلى المدينة وتآمر هؤلاء عليه وأظهروا عداوتهم لدعوته.

أم بالنسبة لعبد الله بن سبأ فهو ليس شخصية أسطورية، بدليل أن كتب الرجال والجرح والتعديل فصلت فيه القول بما لا يدع للشك ليس فى معرفة عينه بل وفى عرفة حالة وأخباره فعلى سبيل المثال قال الذهبى فى ميزان الاعتدال جـ٢، ص٤٢٦ عبد الله بن سبأ من غلاة الزنادقة ضال مضل، وقال ابن حجر لسان الميزان، جـ٣، ص٢٨٩ عبد الله بن سبأ من غلاة الزنادقة هذا بجانب ما ذكرته كتب التاريخ والعقيدة.

كما أن التقاء وفود كل من البصرة والكوفة ومصر فى وقت واحد بالمدينة المنورة وقيامهم بمحاصرة بيت الخليفة لا يمكن أن يحدث بمجرد الصدفة ولا بد له من تدبير مسبق، وقد قام بهذا التدبير أشخاص مغرضون وسواءً كان عبد الله بن سبأ شخصية حقيقية أو أسطورية فهذا لا يهمنا فى كثير أو قليل ويجب أن ننظر إليه على أنه رمز لرأس كبير من رؤوس الفتنة التى دبرت مقتل الخليفة عثمانرضي الله عنه .

---

(١) الأنفال: آية٣٠.

(٢) المائدة: آية ٨٢.

إن محور الكلام فى الروايات المتعلقة بالفتنة يدور حول يد خفية كانت وراء هذه الفتنة تحركها فالروايات المفصلة للحادثة تجمع على قضية هامة هى وجود اليد الخفية.

وجهت بعض الاتهامات باشتراك الصحابة المذكورين أو اشتراك بعضهم فى هذا الأمر فهل يعقل أن طلحة والزبير وعائشة وعمرو بن العاص وعمار بن ياسر مشتركين فى إضرام الفتنة وهم الذين شددوا على الخليفة على بن أبى طالب فى المطالبة بدم عثمان.

وقد أقبل إلى المدينة سنة ٣٥هـ وفد من العرب المقيمين فى مصر وجموع من عرب البصرة والكوفة وقد ناقش هؤلاء الخليفة عثمانﷺ فى بعض المواقف والقرارات التى اتخذها بناءاً على اجتهاده ثم انصرفوا عن المدينة راجعين إلى أمصارهم، وخاصة بعد أن يئسوا من مساندة أهل المدينة لهم فضلاً عن ردود الخليفة المقنعة على طلباتهم.

وهناك قصة الكتاب الذى قيل بأن وفد مصر وجده وهو فى طريقه إلى مصر مع غلام للخليفة يأمر فيه عبد الله بن سعد بن أبى سرح والى مصر بأن ينكل بقادة هذا الوفد الذى عاد من عند الخليفة، مما حملهم على العودة إلى المدينة ومحاصرة الخليفة فى داره حيث انتهى الأمر بقتله.

وهذا الكتاب المزعوم يعتبره البعض من المآخذ على الخليفة عثمانﷺ لأنه فى زعمهم تظاهر بالاستجابة لمطالب وفد مصر ووعدهم بتحقيق ما يرضيهم، ثم ما لبث أن سير كتاباً مختوماً بخاتمه إلى والى مصر يأمره بالتنكيل بقياده هذا الوفد.

على أن هناك أدلة واضحة تثبت أن هذا الكتاب مزور، وأنه لم يصدر عن الخليفة عثمان ﷺ ولا عن كاتبه مروان بن الحكم منها:

- أن عبد الله بن سعد بن أبى سرح لم يكن موجوداً بمصر وقت قفول الوفد بالرجوع إلى المدينة، إذ كان فى طريقه إلى المدينة.
- أن محمد بن أبى حذيفة الذي تزعم الفتنة فى مصر ضد الخليفة عثمانﷺ كان قد تغلب عليها وقت ذاك، وكان كل من الخليفة ومروان يعلم بذلك، وكان محمد بن أبى حذيفة قد رفض الخليفة عثمانﷺ أن يوليه إحدى الولايات لعدم كفاءته رغم أنه ابن عم الخليفة [١].

(١) الطبرى: تاريخه، جـ٤، ص٣٧٨.

وقد تحدث ابن عبد ربه عن مسألة تزوير الكتب فى ذلك الوقت فقال: "لما قدم القواد (قواد الفتنة) قالوا لعلىﷺ: قم معنا إلى هذا الرجل (عثمان)ﷺ، قال: لا والله ولا والله لا أقوم معكم، قالوا فلما كتبت إلينا؟ قال: والله ما كتبت إليكم كتاباً قط فنظر القوم بعضهم إلى بعض وخرج على ﷺ من المدينة[١].

ومما يدل على تزوير هذا الكتاب والادعاء بأن الخليفة كتبه إلى واليه على مصر أن وفدى البصرة والكوفة التى كانت متابعدة فى الشرق عادت كلها إلى المدينة فى وقت واحد مع أن الكتاب المزعوم اكتشفته طائفة واحدة فقط هى القافلة المتجهة إلى مصر.

وأينما كان الأمر فمسرحية الكتاب المزور مثلت فى الطريق الغربى الذي كان المصريون فيه وحدهم وكان الراكب المستأجر لعمل هذا الكتاب يتعرض لقافلة المصريين ثم يفارقها مبتعداً عنها ويكرر ذلك المرة بعد المرة ليثير شبهتهم فيه، وكان المفروض لو كان صادقاً أن يختفى عن عيون رجال القافلة ولكنه لما ظهر لهم المرة بعد الأخرى قالوا له: ما لك؟ قال أنا رسول أمير المؤمنين إلى عامله بمصر أن يصلب قادة الوفد ويقطع أيديهم وأرجلهم فصدقوه ولم يعلموا أن الكتاب من تزوير الأشطر مالك النخعى وحكيم ابن جبلة زعيمي وفدى البصرة والكوفة اللذان تخلفا فى المدينة ولم يخرجا مع وفديهما حين تحرك فى اتجاه البصرة والكوفة مقتنعين برد الخليفة، وقد ابتكر هذان الرجلان وسيلة لاعادة الوفود الثلاثة إلى المدينة مرة أخرى لتجديد الفتنة فكان هذا الكتاب المزور هو الوسيلة المبتكره لتحقيق ذلك[٢].

فلما عادت قوافل الوفود الثلاثة إلى المدينة وصلت كلها فى وقت واحد كأنما كانوا على موعد، ولا عجب فى ذلك لأن الذين استأجروا الراكب الأسود ليمثل دور حامل الكتاب أمام قافلة الوفد المصرى استأجروا راكباً آخر خرج من المدينة على قافلة البصرة والكوفة ناحية الشرق، وذلك ليخبرهم بأن إخوانهم المتجهين حول مصر اكتشفوا كتاباً بعث به عثمان ﷺ إلى عبد الله بن سعد بن أبى سرح فى مصر للتنكيل بقادة الوفد المصرى.

ولما عادت الوفود إلى المدينة قال لهم على بن أبى طالبﷺ: "كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقى أهل مصر وقد سرتم مراحل من الطريق ثم طويتم نحونا؟ هذا والله أمر أُبرِمَ

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد، جـ٤، ص٢٩٢.

(٢) الطبرى: تاريخه، جـ٤، ص٢٧٠.

بالمدينة (يشير إلى تخلف الأشتر وحكيم فى المدينة وأنهما وراء تدبير ذلك الكتاب المزور"، فأجابه القوم قائلين: "ضعه على ما شئت، لا حاجة لنا إلى هذا الرجل (عثمان) فليعتزلونا" (١).

وعندما رجع والى مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح من حروبه رجع إلى الخليفة ، لأن الخليفة قد دعا الولاة جميعا أن يحضروا مؤتمرا بالمدينة ، وترك ابن أبى سرح نائبا عنه في مصر هو عقبة بن عامر الجهنى ، وفى ظل هذه الظروف اندلعت الثورة في مصر ، واغتصب حكم مصر محمد بن أبى حذيفة ، وأعلن الثورة والعصيان على الخليفة عثمانﷺ ، وطرد عقبة بن عامر الجهنى نائب الوالي في مصر ، ولم يستطع عبد الله بن سعد دخول مصر (٢).

وخرجت جماعة من المنحرفين على عثمان ﷺ من مصر والبصرة والكوفة إلى المدينة ، كما توالى الثوار بظاهر المدينة ، وراودوا عثمان ﷺ على أن يصلح من أمره أو يعتزل ، وكانوا قد وجهوا إليه اللوم في عدة أمور منها الآتي:

١. كان الخليفة عثمان بن عفان ﷺ شديد الحب لقرابته ، فاستغل ذلك البعض وتمكنت العصبية القبلية من السيطرة على المواقع السياسية والمناصب الكبيرة كالآتي:
   - أصبحت الشام خالصة لمعاوية بن أبى سفيان.
   - فى مصر ولى عثمان ﷺ أخاه في الرضاع عبد الله بن سعد بن أبى سرح.
   - فى الكوفة جعل أحد أفراد أسرته وهو الوليد بن عقبة بن أبى معيط ، وكان له ماض بغيض فنفر منه أهلها.
   - فى البصرة ولى عليها ابن خاله عبد الله بن عامر ، وكان حسن السيرة فهدأت أحوال البصرة.
   - فى المدينة كان الخليفة قد أسند أموره إلى وزير من أهله هو ابن عمه مروان بن الحكم.

ولنا تعليق على تولية عثمانﷺ أقربائه فإنه استند إلى أن الرسولﷺ استعان بقريش، وليس صحيحاً أن عثمانﷺ أطلق يد أقاربه الذين ولاهم على ولاية الدولة بسبب كبر سنة وأن هؤلاء كانوا يقطعون فى الأمور دون الرجوع إليه مما أثار سخط الناس عليهم وعلى الخليفة لأن هؤلاء الولاة من ذوى قرباه كانوا جميعاً أكفاء وكانوا عند حسن ظنه، حيث قام كل منهم بواجبه فى أداء الأمانة الملقاه على عاتقه، والدليل على ذلك أن معاوية بن أبى سفيان وهو من أقربهم إلى عثمان وأقواهم جميعاً لم

---

(١) الطبرى: تاريخه، جـ٤ ، ص٣٥١.

(٢) القلقشندى: صبح ، جـ١٤ ص٣٨٦.

يضرب بأى أمر للخليفة عرض الحائط ولم يقطع أمراً دون الرجوع إليه فعلا سبيل المثال عندما أراد معاوية أن ينشأ أول أسطول إسلامى طلب الإذن من الخليفة بذلك فأذن له شريطة أن يبدأ بنفسه وزوجته عند ركوبه البحر، وأن يكون العمل به تطويعاً وليس إجباراً وقد التزم معاوية بذلك، كما أن معاوية أراد تحصين المدن الساحلية وتشجيع المقاتلة على البقاء فيها بمنحهم إقطاعات فاستأذن الخليفة فى ذلك فأذن له(١).

ولو صح أن معاوية مثلاً كان يقطع الأمر دون رجوع للخليفة وأن عثمان تعرض بسبب ذلك لسخط الناس لطالب أهل الشام بعزل واليهم.

٢. اتباع عثمان ﷺ في حياته الخاصة منهجا مغايرا لسلفيه واستمر على حياة اللين ، والتمتع بالطيبات.
٣. اتجه إلى التوسعة على أقاربه ، وأغدق عليهم الأموال ، فاتهمه البعض بأنه ينفلهم من بيت المال.
٤. أن عثمان ﷺحمى الحمى (اتخذالمراعى) فثار عليه المعارضون مدعين أنه اتخذها لنفسه وأقربائه ، فأوضح لهم أنه اتخذها لأبل المسلمين التابعة لبيت المال.
٥. أمر بتوحيد القراءات ، فحصل الناس على مصحف واحد وأحرق ما دون ذلك من مصاحف ، فعارضه البعض بأن الرسول ﷺ أجاز عدة قراءات للقرآن.
٦. نفيه لأبى ذر الغفارى إلى الربذة ، وإن لم يفعل عثمان ﷺ ذلك ، فقد كان أبو ذر زاهدا ، وكان يجمع عمال عثمان ويقرأ عليهم :

﴿ [illegible] ﴾ (٢).

واستند عثمان ﷺ على قول ابن عمر: "أن ما أديت زكاته ليس بكنز" ، وكان أبو ذر يحملهم على الزهد والتقشف ، وكان لا يتحمل ذلك إلا بعض الناس ، فكتب عثمان إلى أبى ذر أن يأتي المدينة ، فلما قدم اجتمع إليه الناس، فطلب أبو ذر الأذن له بالخروج من المدينة، فقال لعثمان ﷺ : " أريد الربذة " ، فقال: "أفعل" ، وزوده الخليفة ببضع وعشرين من الإبل فاعطاه مملوكين فذهب أبو ذر

(١) البلاذرى: فتوح البلدان، ص٢١١.

(٢) سورة التوبة : من الآية ٣٤.

إلى الربذة ، فاعتزل ، وسكنها حتى توفى بعد عامين فى سنة ٣٢ هجريه، ولم يكن يصلح له إلا ذلك لطريقته .

حيث كان ينادى: "يامعشر الأغنياء واسو الفقراء" ومن الطبيعى أن تجد دعوة أبى ذر هذه تأييداً عظيماً من جانب الفقراء، لأنها صدى وتعبير حقيقى عما يجيش فى صدورهم فتحمسوا لها وتابعوا عليها وأوجبوا على الأغنياء هذه المشاركة .

٧. امتناعه عن قتل عبد الله بن عمر بن الخطاب الذي قتل الهرمزان وحفيده بسبب اتهامهما بقتل أبيه عمر ﷺ، فطالب المسلمون بالقصاص منه ، فقال عثمانﷺ : "يقتل عمر بالأمس ويقتل ابنه اليوم" ، فدفع دية المقتولين من ماله، فغضب بعض المسلمين ، ورأوا أن في ذلك تعطيلا لحد من حدود الله.[١]

وهناك العديد من الأمور التي وجه فيها المعارضون اللوم على الخليفة عثمان بن عفان ﷺ، الذي أخذ يرضى معارضيه بعزل عماله على الكوفة ومصر والبصرة أكثر من مرة[٢] ، وبدلا من أن يظهر الخليفة قوة وحزما أمام عرب الأمصار ضعف ولجأ إلى مفاوضتهم ووعدهم بإصلاح الأخطاء ، واعترف بأنه زل[٣] ، مما جعل أغلبهم يعود إلى الأمصار ، ولكنهم عادوا مرة أخرى كما ذكرنا.

ضرب المشاغبون الحصار على الخليفة وشددوا الحصار عليه وأساءوا معاملته، وبلغ عليا ﷺ أن عثمان ﷺ يراد قتله ، فقال للحسن والحسين "اذهبا بسيفكما حتى تقوما على باب عثمان ، فلا تدعا أحدا يصل إليه" ، وبعث عدد من الصحابة أبناءهم للدفاع عن الخليفة عثمان ﷺ[٤] ، وطلب الثوار من الخليفة أن يعتزل ولكنه رفض وقال: "لا أخلع قميصا ألبسنيه الله"[٥].

وكان محمد بن أبى حذيفة قد أرسل حوالي ستمائة رجل مسلح إلى المدينة كان من بينهم محمد بن أبى بكر الصديق ، ولما علم الثوار بأن الخليفة كتب إلى معاوية وعماله فى الأمصار يستنجدهم شددوا الحصار عليه وبعد أن دام الحصار أكثر من عشرين يوماً، اقتحموا بيت الخليفة وقتلوه ، وذلك

---

(١) أبو بكر بن العربى: العواصم من القواصم ، ص ١١٨.

٢ () ابن الأثير: الكامل في التاريخ ، جـ٣ ص٤٩.

٣ () ابن الأثير: الكامل ، جـ٣ ص٨٢.

(٤) السيوطى: تاريخ الخلفاء ، ص١٤٣.

(٥) ابن الأثير: الكامل ، جـ٣ ، ص٨٥.

فى اليوم الثامن عشرة من شهر ذى الحجة سنة ٣٥ هـ، وأثناء قتله كان جالسا في محرابه يقرأ القرآن ، فسال دمه على المصحف في حجره[١] ، فقامت زوجته نائلة لتتلقى عنه الضرب بيدها ، فأصاب السيف يدها فقطع إصبعين من أصابعها ، وأرسلت إلى معاوية بقميصه المخضب بالدم وأصابعها لتحريضه على الأخذ بثأر الخليفة المقتول ، فكان معاوية يعلقهما على منبر الشام ليرق الناس بذلك ودفن الخليفة عثمان رحمه الله قريبا من البقيع ، وكان ذلك سنة ٣٥هـ/٦٥٥م.[٢]، وقد وصفت السيدة عائشة رضى الله عنها قتلته بأنهم من الغوغاء الذين اقتحموا عليه الحرمات الثلاث: حرمة البلد الحرام، حرمة الشهر الحرام، حرمة الخلافة[٣]

وهكذا كان للمعارضين في مصر دور بارز ومؤثر في الفتنة التي وجدت في عهد الخليفة عثمان ﷺ ، حيث تمكن عبد الله بن سبأ من نشر أفكاره بين بعض الأهالي من مصر ولاقت دعوته قبولا ، حتى خرجوا واشتركوا مع الوفود المعارضة من الأمصار الإسلامية ، وانتهى الأمر بمقتل الخليفة عثمان ﷺ ، ويذكر أن الذي قتله رجل من مصر يقال له حمار[٤].

لا شك أن هذه القتلة البشعة للخليفة عثمانﷺ وهو شيخ وقور صدمة عنيفة تواجه كل باحث فى التاريخ الإسلامى فعلى الرغم من أن الفاروق عمر بن الخطابﷺ قتل قبله إلا أن مقتل عمر لم يكن صدمة فى تاريخ العقيدة الإسلامية لأن قتله غلام دخيل ومن ورائه عصابة تدين بغير دينه وتكره منه ما عمله لهذا الدين، أما تلك القتلة البشعة التى انتهت بها حياة الخليفة الثالث فشئ غير هذا، إذ لم يمض الجيل الأول ويقتل خليفة المسلمين هذه القتلة فماذا إذاً صنعت هذه العقيد بنفوس المحكومين وماذا تغير من فتكات الجاهلية بعد جهاد المؤمنين وإيمان الكافرين؟.

من المهم ألا ننظر إلى هذا الحادث على أنه ثورة شبيهة بتلك الثورات التى أطاحت بكثير من رؤساء الدول، لأن مقتل الخليفة عثمانﷺ لا يعدو أن يكون حادثة محلية تمت على أثر مشاغبة جامحة من مشاغبات الدهماء الذين وقعوا تحت تأثير المغرضين، ومن البديهي أنه ما كان ليقتل لو كانت داره محروسة بحراسة مثل التى كان يقيم فيها ولاة الأمور.

---

(١) ابن طباطبا: الفخرى ، ص٩٨.

٢ () ابن طباطبا: الفخرى ، ص٩٨، ٩٩ ، سيدة كاشف: عصر الولاة ، ص٧٥.

(٣) الطبرى: تاريخه، جـ٤، ص٣٦٥.

٤ () السيوطى: تاريخ الخلفاء ، ص١٤٤.

وعلى الرغم من ذلك كان ما يقرب من سبعمائة من المهاجرين والأنصار فيهم عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير والحسن والحسين ومروان وأبو هريره وخلق من مواليه ولو تركهم لمنعوه لكنه قال: "أقسم على من لي عَليه حق أن يكف يده وينطلق إلى منزله ولا شك أن الخليفة عثمانﷺ اختار أهون الشرين فآثر التضحية بنفسه على توسيع دائرة الفتنة وسفك دماء المسلمين، وبذلك افتدى الخليفة عثمانﷺ دماء أمته بدمه الزكى[1]، فنسأل الله تعالى أن يعلى مقامه فى دار الخلود.

خريطة توضح التوسع الإسلامي في عام ٢٣هـ/٦٤٣م

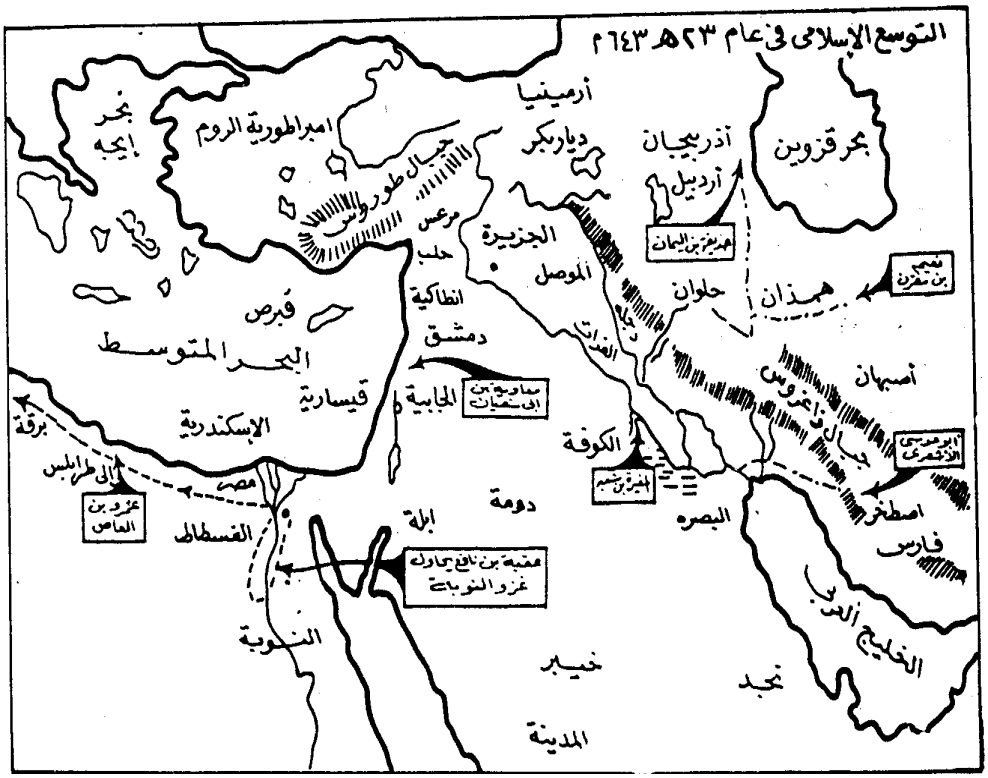

(١) ابن العربى: العواصم من القواسم، ص١٤٢.

خلافة سيدنا على بن أبى طالب رضي الله عنه (٣٥-٤٠هـ / ٦٥٦-٦٦١م).

نسبه:

على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى. كنيته أبو الحسن، وأبو تراب كناه بها النبى ﷺ. وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم.[١]

مولده:

ولد على بن أبى طالب رضي الله عنه قبل الهجرة بثلاث وعشرين سنة، وقيل إحدى وعشرين سنة. ونشأ في بيت النبوة وتربى تحت رعاية النبىﷺ، وذلك أن أبا طالب كان كثير العيال قليل المال، فاقترح النبى ﷺ على عمه العباس الذي كان من أثرياء بنى هاشم أن يشتركا في تخفيف العبء عن أبى طالب بأن يتكفل كل منهما بتربية واحد من بنيه، فكان على من نصيب النبى ﷺ، وجعفر بن أبى طالب من نصيب عمه العباس.

إسلامه:

كان على أول من أسلم من الصبيان. ولم يعبد الأوثان قط منذ صغره.

جهاده في الإسلام:

على أحد العلماء الربانيين، والمشهورين، والزهاد المذكورين، وأحد من جمع القرآن وعرضه على رسول الله ﷺ. [٢]

بات في فراش الرسول ﷺ في الليلة التي هاجر فيها حتى يؤدى عنه أمانة الودائع والوصايا التي كانت لأهل مكة وشهد على مع النبى ﷺ جميع الغزوات فيما عدا غزوة تبوك التي استخلفه النبى ﷺ على المدينة.

وروى عن الرسول ﷺ خمسمائة وستة وثمانين حديثا. وعلى أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى.

بيعة على بن أبى طالب رضي الله عنه بالخلافة:

بويع على بن أبى طالب بالخلافة في اليوم التالى لاستشهاد عثمان بن عفان. حيث وفد إليه أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار وفيهم طلحة والزبير فأتوا عليا فقالوا له: إنه لابد للناس

---

[١] ابن كثير: الكامل، ج٧، ص٢٤٩.

[٢] السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص١٨٥.

من إمام فرد قائلا: لا حاجة لى في أمركم فمن اخترتم رضيت به فقالوا: ما نختار غيرك وترددوا إليه مرارا.وكان إصرارهم على اختيار على يستند إلى سابقته في الإسلام وحسن بلائه وقرابته للرسول ﷺ.

ولما وجد على إجماع الصحابة على بيعته طلب أن تكون في المسجد فبايعه الناس وأولهم طلحة بن عبيد الله والزبير وقيل إنهما بايعا كارهين ثم بايعت الأنصار. [١]

ولقد وافق على على تحمل هذه المسئولية خشية من تفرق كلمة الأمة برغم عظم المهمة التي عبر عنها على بقوله: "دعونى والتمسوا غيرى فإنا مستقبلون أمرا له وجوه وله ألوان لا تقوم به القلوب ولا تثبت عليه العقول فقالوا: ننشدك الله ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى لإسلام ألا ترى الفتنة ألا تخاف الله؟ فقال: قد أجبتكم واعلموا أنى إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم وإن تركتمونى فإنما أنا كأحدكم ألا أنى من أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه.

خطبة البيعة:

كانت أول خطبة خطبها على بن أبى طالب رضي الله عنه حين استخلف: "حمد لله واثنى عليه ثم قال: إن الله أنزل كتابا هاديا بين فيه الخير والشر فخذوا بالخير ودعوا الشر الفرائض أدوها إلى الله تعالى يؤدكم إلى الجنة إن الله حرم حرمات غير مجهولة وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها وشد بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين، فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق، لا يحل دم امرئ مسلم إلا بما يجب بأدوار أمر العامة وخاصة أحدكم الموت فإن الناس أمامكم وإن ما خلفكم الساعة تحدوكم فخففوا تلحقوا فإنما ينتظر بالناس أخراهم".[٢]

لما تمت البيعة لعلى بن أبى طالب رضي الله عنه واجه مشكلتين أولهما قضية مقتل عثمان، والأخرى عزل الولاه السابقين.

قضية مقتل عثمان بن عفان:

طلب بعض الصحابة من الخليفة على القصاص من الذين اشتركوا في قتل الخليفة عثمان فطلب منهم إعطاءه بعض الوقت: "إنى لست أجهل ما تعلمون، ولكن كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم؟.

---

[١] الطبرى: تاريخ الأمم، ج٢، ص٦٩٧.

[٢] ابن الأثير: الكامل، ج٣، ص١٠٠.

وكان الخليفة على يقدر حقيقة الظرف الذي تمر به الدولة الإسلامية من تفرق الأمة وكل فرقة ترى رأيا غير الأخرى وكان يتمنى أن يحقق في قضية مقتل الخليفة عثمان بعد أن تستقر الأمور وتؤخذ الحقوق. [١]

كما أنه صرح بأنه لا يعرف القتلة "والله لوددت أن بنى أمية رضوا لنفلنا هم خمسين رجلا من بنى هاشم يحلفون: ما قتلنا عثمان، ولا نعلم له قاتلا".

ولم يكن على يجهل أن القصاص مسئولية الحاكم ولكن ممن يقتص والأيدى التى نفذت الجريمة لا يعرف لها صاحب والثوار بالآلاف يملئون المدينة وخلفهم آلاف أخرى فى الأمصار يقولون: " نحن مع علىﷺ إذا لم يقتص من إخواننا، وعندما طالبه بعض الصحابة بإقامة الحد قال لهم: " كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم ويرون ولا نراهم ويسمعوننا ولا نسمعهم، وقد صارت معهم عبدانكم، وثابت إليهم أعرابكم وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا فهل ترون موضعاً للقدرة على شئ؟ قالوا لا، فقال لا أرى إلا رأياً ترونه إن شاء الله.

فالمطلب مشروع، ولكن الطريق إلى تنفيذه لا يعرفه أحد، وقد عرف خصوم علىﷺ كيف ينفذون إليه من هذه الثغرة ولول صدق أصحاب المطالبة بدم عثمان ﷺ لتعاونوا مع على ﷺ وبينوا له سبيل القصاص أو حددوا له أسماء القتلة. [٢]

وما كان على من المشاركين ولا المحرضين، وقال عنه ابن سيرين ما علمت أن علياً اتهم بدم عثمان حتى بويع فلما بويع اتهمه الناس، وظهور الاتهام بعد البيعة يشير إلى أنه حجة مختلقة تختفى خلفها المآرب والأطماع.

كان معاوية قد تربى على حب الزعامة منذ طفولته حتى أبدى أحد العرب إعجابه به وقال حرا بهذا أن يسود قومه ولكن أمه كانت تعده لأكثر من ذلك فقالت: ثكلته أمه إن لم يَسُد إلا قومه، وشق

---

[١] أحمد إبراهيم الشريف: دور الحجاز فى الحياة السياسية فى القرنين الأول والثانى للهجرة، دار الفكر العربى، القاهرة، د.ت، ص٣٤٩.

[٢] إكرام ضياء العمرى: السيرة النبوية الصحيحة فى عصر الخلافة الراشدة، ط١، المدينة المنورة، ١٩٩٤م، ص ٤٠٣ .

معاوية طريقه فى الإسلام نحو الصفوف الأولى فكان من كتاب الوحى ومن قادة الفتوحات وصارت له إمارة دمشق ثم الشام كلها.[١]

بين على ومعاوية:

بعث الخليفة على إلى معاوية كتابا مع سبره الجهنى يأمره بأخذ بيعة أهل الشام، فلم يجبه معاوية بشئ. ولما مضى الشهر الثالث من مقتل عثمان دعا معاوية قبيصة العبسى بكتاب معاوية مختوما عنوانه من معاوية إلى على وأخبر قبيصة العبسى أهل المدينة بمعارضة معاوية. [٢]

ولما دخل قبيصة العبسى على على ففض الكتاب فلم يجد فيه كتابا فقال للرسول: ما ورائك؟ قال: أمن أنا قال نعم قال: تركت ورائى قوما لا يرضون إلا بالقود قال: ممن؟. قال: من خيط رقبتك وتركت ستين ألف شيخ تبكى تحت قميص عثمان وهو منصوب على منبر دمشق قال أمنى يطلبون دم عثمان ألست موتوروا كترة عثمان؟ اللهم أنى أبرأ إليك من دم عثمان.

وفى الواقع أن معاوية لم يكن ينكر فضل على واستخلافه. لكن اجتهاده أداه إلى أن رأى تقديم أخذ القود من قتلة عثمان على البيعة أولا، ورأى نفسه أحق بطلب دم عثمان، وتبنى معاوية نداء القصاص من قتلة عثمان وجعله شرطا لازما يسبق تقديم البيعة لعلى، وقد أصر معاوية على هذا الشرط برغم أنه يعلم أن الظروف الراهنة التي تمر بها المدينة يومذاك لن تمكن الخليفة على من تنفيذ هذا الشرط.

عزم على بن أبى طالبﷺ على السير إلى معاوية ليدخل في البيعة ومعه أهل الشام فيما دخل فيه المسلمون من البيعة حتى ولو أدى الأمر إلى القتال وكان هذا هو ما استقر عليه رأى على ووافقه معظم رجاله، فشرع في تجهيز جيشا واستخلف على المدينة قثم بن العباس، وكتب إلى عماله في الأمصار ينوب الناس للمشاركة في الحملة على الشام، لجمع كلمة الأمة وبينما كان على يستعد للمسير إلى الشام أتاه خبر خروج السيدة عائشة وطلحة والزبر بأهل مكة إلى البصرة. [٣]

خروج السيدة عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة:

---

[١] الطبرى: تاريخ، ج٢، ص٧٠٢.

[٢] البن الوردى: تاريخ ابن الوردى، ج١، ص ١٤٧-١٤٨.

[٣] ابن الأثير : الكامل، ج ٣، ص١٠٤، الطبرى: تاريخ الأمم، ج٣، ص٤.

خرجت السيدة عائشة إلى مكة أثناء حصار عثمان، وكانت تنكر على الخليفة عثمان سيرة ولاته على الرعية في مختلف الأمصار.

وعلمت بخبر استشهاد الخلفة عثمان وهى بسرف في طريق عودتها إلى المدينة فحزنت وقالت لقد قتل عثمان مظلوما والله لأطلبن بدمه.

فعادت إلى مكة واجتمع حولها الناس، وبنو أمية، وقدم عليهم عبد الله ابن عامر من البصرة بمال كثير، ويعلى بن أمية من اليمن ومعه ستمائة بعير وستمائة ألف درهم انضم إلى السيدة عائشة طلحة والزبير اللذين قدما من المدينة واستأذنا عليا بحجة أنهما يريدان العمرة.

سارت السيدة عائشة وطلبحة والزبير بهذا الحشد الذي قدر بثلاثة آلاف إلى البصرة.

وكان الحزن يخيم على قلوب قادة المعارضة، برغم مطالبتهم بإنفاذ الحكم الشرعى يقوى موقفهم إلا أن غموض المستقبل وما قد ينطوى عليه من ضياع الوحدة بين المسلمين وسفك دمائهم يبعث فيهم إحساسا أليما وأحيانا ترددا واضحا لكنهم مضوا إلى أقدارهم بنفوس مثقلة بالهموم.

ولم يكن من رأى أم سلمة زوج الرسول (ﷺ) أن تمضى عائشة في هذا السبيل فأرسلت إليها كتابا طويلا تحثها إلى العدول عن الخروج. واثناء مسيرة السيدة عائشة في الطريق إلى البصرة وصلوا إلى موضع الحوأب حيث نبحتهم كلابه. فقالت السيدة عائشة:أى ماء هذا فقيل هذا ماء الحوأب. فعزمت على العودة وقالت:أنى سمعت رسول الله (ﷺ) يقول لنسائه ليت شعرى أيتكن ينبحها كلاب الحوأب. وأخبرها عبد الله بن الزبير أن هذا الموضع ليس ماء الحوأب وأقنعها بذلك.

لما اقترب ركب السيدة عائشة من البصرة بعث إليهم رجلا يدعى عمران بن حصين يسألها عن سبب قدومها إلى البصرة فأخبرته بالقصاص لقتلة عثمان وتمكن جيش السيدة عائشة من التغلب على البصرة ووالياها عثمان بن حنيف، وساندتهم قبائل البصرة. وقد ألقى القبض على الوالى ثم أطلق سراحه ليلتحق بعلى واتجهوا إلى بيت المال ودار الرزق فأعترضهم حكيم ابن جبلة العبدى –أحد الثوار المشاركين في حصار الدار بالمدينة، ومعه سبعمائة من قومه– وجرت بينهم معركة قتل فيها جبلة وسبعون من قومه. [١]

موقعة الجمل (جمادى الآخرة ٣٦هـ/٦٥٦م):

---

[١] ابن الأثير : الكامل، ج ٣، ص١٠٥، الطبرى: تاريخ الأمم، ج٣، ص٦.

لما بلغ عليا مسير السيدة عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة سار على راس جيش مكون من أربعة آلاف من أهل المدينة. واستخلف تمام بن العباس على المدينة. وقثم بن العباس على مكة. وخرج معه من نشط من الكوفين والبصريين ولما قدم الخليفة على إلى الربذة سأله ابن لرفاعة بن رافع فقال: يا أمير المؤمنين أى شئ تريد. وأين تذهب بنا؟ فقال: ما الذي نريد وينوى فالإصلاح إن قبلوا منا وأجابونا إليه. فقال: فإن لم يجيبونا إليه قال: ندعهم بعذرهم ونعطيهم الحق ونصر. قال: فإن لم يرضوا. قال: ندعهم ما تركونا. قال: فإن لم يتركونا قال: منعنا منهم.

ولما وصل على بن أبى طالب رضي الله عنه إلى البصرة بعث القعقاع بن عمرو وسيطا بين الطرفين واتفقا على الصلح وخطب على في الناس. وقال إلا وأنى راحل غدا فارتحلوا فحين رأى ابن سبأ وأعوانه اتفاق الناس قال لأصحابه أن تصالح على وعائشة على دمائنا وأن عزكم في خلطة الناس فخالطوهم وإذا التقى الناس غدا فابدأوا القتال، ولا تتركوا الناس مجالا للتفاهم. [1]

وبدأ اتباع ابن سبأ القتال كل من في جهته فظن كل من الفريقين أن صاحبه قد نقض عهده ونشب القتال.

وهزم اتباع السيدة عائشة وطلحة والزبير، وكانت السيدة عائشة راكبة على جملها وقطعت على خطام الجمل أيد كثيرة. ولما كثر القتل على خطام الجمل. أمر على بن أبى طالب رضي الله عنه بعقر الجمل فضربه رجل وسقط على الأرض، وبقت السيدة عائشة في هودجها إلى الليل.

وقتل من الفريقين خلق كثير، ورمى مروان بن الحكم طلحة بسهم قتله وكلاهما كانا مع السيدة عائشة أخذا بثأر عثمان منه حيث اتهم بمعاونة من قتل عثمان. [2]

وانسحب الزبير من ميدان القتال وتبعه عمرو بن جرموز فقتله بوادى السباع.

وأمر على مناديا يحث أتباعه ألا يتتبعوا مدبرا ولا يجهزوا على جريح، كما أمر بحمل هودج السيدة عائشة وأن يضرب أخاها محمد بن أبى بكر عليه قبة ولما جن الليل انزلها في دار عبد الله بن خلف الخزاعى.

وقسم على الغنائم على جنده فأصاب كل رجل منهم خمسمائة درهم، ولم يخمس أموال مقاتلى لسيدة عائشة يقول الطبرى: "فقال قوم يومئذ: ما يحل لنا دماءهم ويحرم علينا أموالهم؟ فقال على: القوم

---

[1] أبو الفدا: المختصر فى تاريخ البشر، ج١، ص٢١٥.

[2] ابن الأثير : الكامل، ج ٣، ص١٢١، الطبرى: تاريخ الأمم، ج٣، ص٣٣.

أمثالكم، من صفح عنا فهو منا، ونحن منه، ومن لج حتى يصاب فقتاله منى على الصدر والنحر، وإن لكم فئ خمسة لغنى".

ويشير الدكتور أكرم ضياء العمرى إلى أن الطرفين أدركا خسارتهما، وحلت مراجعة النفس محل الغضب، وفتت الندم قلوبهم. وذابت نفوسهم حسرة على ما حدث حيث التقى المسلمان بسيفيهما في فتنة داخلية اتضحت معالمها، ولم يتمكنوا من تجنبها، فمضوا لا يغالبون أقدارهم حتى انجلت عن صرع من خيرة المسلمين من الطرفين، دون إنجاز لصالح دنياهم أو دينهم.

ولقد أسفا على ما حدث كل من على بن أبى طالب رضي الله عنه والسيدة عائشة، فقد قال على عندما اشتد القتال إلى ابنه الحسن: "يا حسن لوددت أنى مت قبل هذا بعشرين حجة – أو سنة". [1]

وعبرت السيدة عائشة عن حسرتها: "وددت إن كنت غضبا رطبا ولم أسر مسيرى هذا"

وتقدم محمد بن أبى بكر وعمار بن ياسر إلى هودج السيدة عائشة فحملاه وأمر على بتجهيزها لتعود إلى المدينة معززة مكرمة وخرج يودعها بنفسه فقالت: والله ما كان بينى وبين على فى القديم إلا ما يكون ما بين المرأة وأحمائها، وأنه على معتبتى من الأخيار، وقال على: أيها الناس صدقت والله وبرت ما كان بينى وبينها إلا ذاك وإنها لزوجة نبيكم فى الدنيا والآخرة.

وكانت هذه الواقعة هى المرة الأولى التى يشهر فيها المسلم سيفه فى وجه أخيه، وتتحول السيوف التى طالما تعانقت فى سبيل الله إلى صدور المسلمين ونحورهم.

وإنا لا نندهش أن يقابل على بن أبى طالب رضي الله عنه موقف السيدة عائشة بالعفو والإحسان، وبزورها في البيت الذي نزلت فيه، ويوفد أولاده ليشيعوها، ويودعها بنفسه ولقد حمدت السيدة عائشة هذا الموقف لعلى بن أبى طالب رضي الله عنه.

وفى حقيقة الأمر لم يكن هناك مبرر لخروج طلحة والزبير والسيدة عائشة، مادام للأمة إمام ينفذ الأحكام ويقيم الحدود. ولا سيما بعد أن وعدهم على بالنظر في أمر قتلة عثمان، والبحث عنهم والقصاص منهم عندما تستقر الأمور وتهدأ الفتنة.

واستعمل على على البصرة عبد الله بن عباس، وسار إلى الكوفة فنزلها، وانتظم له الأمر بالعراق ومصر واليمن والحجاز وفارس وخراسان، ولم يبق خارجا عنه سوى الشام التي تحت إمرة معاوية بن أبى سفيان.

---

[1] أمين القضاة وآخرون: محاضرات فى التاريخ الإسلامى، ط٢، دار عمار، الأردن، ١٩٩٢م، ص ٧٠.

وترجع الخصومة بين علىﷺ ومعاوية لأسباب منها:

- أن معاوية كان يتهم علياً ﷺ بشيء من دم عثمان ﷺ ، ويرى نفسه ولى دم عثمان.
- أن عليا آوى قتلة عثمان ﷺ في جيشه بدلا من أن يقيم عليهم الحد.
- أن عليا تسرع في عزله عن الشام ، وهذا أمر شديد على معاوية الذي اعتاد الحكم والرياسة زمنا طويلا [١] ، هذا بجانب أن عليا بدأ بأمرين ترجع إليهما الحروب التي وقعت فى عهده وهما:

١. أنه لم ينتظر حتى يبايعه أهل الأمصار ظنا منه أن مبايعة أهل المدينة والثوار كافية في جعل أهل الأمصار يعترفون بخلافته.
٢. قام باسترداد الإقطاعات التي كان عثمان ﷺ قد منحها لبعض أقاربه ، إلى بيت المال ، مما زاد حنق أولئك الذين كانوا قد استفادوا في عهد عثمان ﷺ عليه.

وعلى الرغم من انتهاء هذه المعركة بانتصار علىﷺ على معارضيه إلا أن المشاكل لم تنته بذلك حيث امتدت المعارضة وبلغت ذروتها حينما رفض معاوية أمير الشام بقوة وبإصرار الرضوخ لأمر الخليفة بعزله عن ولاية الشام ، بجانب إصراره على المطالبة بمحاكمة قتلة عثمان ﷺ [٢].

ولذا كان لا مفر من اشتباك الفريقين ليحقق كل منهما مطالبه ، وكانت المواجهة أشد بأساً لان الخصم كان أكثر دهاء وقوة وهو معاوية بن أبى سفيان الذي تمرس بالسياسة ودروبها وبلاد الشام تحت يديه بجندها المطيع وثرائها الوفير بجانب بعدها عن مركز الخلافة، وقد عرف كيف يجتذب القلوب بالعطاء ويكتسب الحروب بالدهاء فاكتسب إلى جانبه عمرو بن العاص مقابل وعد بتوليته مصر، وآوى إليه أبناء بيته الذين عزلهم على أو طليتهم سيوف الثوار، كما رحب بعبيد الله بن عمر الذي خاف أن يطبق عليه على ﷺ الحد فى مقتل الهرمزان، وبعقيل بن أبى طالب أخى على الذي رفض الخليفة أن ينفله من مال المسلمين فأغدق معاوية عليه وأرضاه.

---

١ () أبو زيد شلبى: الخلفاء الراشدون ، ص١٩٧.

(٢)ابن الأثير: الكامل ، جـ٣ ص٢٠٣ ، عبد العزيز الدورى: مقدمة في تاريخ صدر الإسلام ، بيروت ١٩٦٠ ، ص٦٠.

ويجب ألا ننساق للرأى القائل إن معاوية كان أدهى من علىﷺ فى كسب الأنصار، فمعاوية نفسه يقول: "كنت أحبل قريش منه لأنى كنت أعطيهم وكان يمنعهم، وكان علىﷺ يقول لا يزيدنى كثرة الناس حولى عزة ولا تفرقهم عنى وحشة لأنى محق والله مع المحق وما أكره الموت على الحق".

بدأ على بطرق أبواب السلم، فاختار ثلاثة من رجاله ليسافروا إلى معاوية ويدعوه إلى الطاعة هم بشير بن عمرو بن محصن، وسعيد بن قيس الهمدانى، وشبس بن ربعى التميمى، فلم يجدوا منه إلا الرفض فلم يكن من الصدام بد، واستمر الفريقان على المناوشة طوال شهر ذى الحجة سنة ٣٦هـ فلما أقبل المحرم تهادن وتجددت السفارات، ولكن الطريق كان يبدو مسدوداً تماماً واتخذ الحوار سور التهديد فقال سفير علىﷺ: انتهى يا معاوية لا يصيبك الله وأصحابك بيوم الجمل فرد معاوية: كأنك جئت مهدداً ولم تأتى مصلحاً، إنى ابن حرب ما يقعقع لى بالشنام وإنك لمن المجلبين على ابن عفان وإنى لأرجو أن تقول ممن يقتل الله عز وجل.

ومع بداية صفر سنة ٣٧هـ/٦٥٧م كانت لغة اللسان قد توقفت وبدأ لغة السنان وفى الثامن منه اشتبك الفريقان فى جولة حاسمة عرفت بموقعة صفين سنة ٣٧هـ/٦٥٧م[١]، واستمرت ثلاثة أيام كان أولها لأهل الشام ولكن الميزان ما لبث أن تحول إلى جانب على ﷺ وبدت بوادر النصر فى اليوم الثالث حتى فكر معاوية فى الفرار، وكاد النصر أن يتم لعلي ﷺ لولا مطالبة أتباع معاوية بتحكيم كتاب الله ، حيث رفعوا المصاحف على أسنة الرماح ، وقالوا: هذا كتاب الله بيننا وبينكم، من لثغور الشام بعد أهل الشام؟ من لثغور العراق بعد أهل العراق، وكان الذي أشار بذلك عمرو بن العاص الذي تمكن معاوية أن يستميله إليه ، وكان عمرو قد اشترط على معاوية أن تكون له ولاية مصر نظير مساعدته له ضد على ﷺ ، فقبل معاوية[٢].

وكان عمرو على علم بطبيعة تكوين جيش علي ونفسيته وحاله ، حيث كان يتكون من الحفاظ وبقية السلف الصالح من المؤمنين ، فكان معه من أهل بدر سبعون رجلا ، وممن بايع تحت الشجرة سبعمائة رجل ، ومن سائر المهاجرين والأنصار أربعمائة رجل ، وكل هؤلاء كانوا يتقبلون مبدأ التحكيم.

التحكيم ونتائجه:

---

(١)اليعقوبى: تاريخ ، جـ٢ ، ص١٨٨ ، المسعودى: التنبيه والإشراف ، ص٢٥٦ ، السيوطى: تاريخ الخلفاء ، ص١٥٥.

٢ () اليعقوبى: تاريخه ، جـ٢ ص١٨٨.

جدد على بن أبى طالب﵁ محاولاته لإقناع معاوية للدخول فى طاعته مستغلاً النصر الذي حققه على معارضيه فى معركة الجمل التى قتل فيها كل من طلحة والزبير، ولكن هذه المحاولات باءت كلها بالفشل لتمسك كل طرف منهما بموقفه، وقد أدى هذا إلى تصادم أهل العراق بزعامة على مع أهل الشام بزعامة معاوية فى موقعة صفين إلا أن الأمر انتهى بالاتفاق فيما بينهما على التحكيم.

لم يكن معاوية أول من طلب التحكيم، فقد سبقه إلى ذلك على فى حرب الجمل ولكن هدف على كان واضحاً لأنه طلب التحكيم قبل إنشاب القتال، أما معاوية فقد طلبه عندما رأى دفة القتال تجرى فى غير صالحة. (١)

ولم يكن على﵁ غافلاً عن هذه الحيلة فقال لأصحابه امضوا على حقكم وصدقكم، فإن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبى معيط ليسو بأصحاب دين ولا قرآن وأنا أعرف بهم منكم قد صحبتهم أطفالاً وصحبتهم رجالاً فكانوا شر أطفال وكانوا شر رجال... ما رفعوها إلا خديعة ودهاء ومكيدة، فقالوا ما يسعنا أن نُدعى إلى كتاب الله عز وجل فنأبى أن نقبله.

ولكن على﵁ كان مدفوعاً إلى النتيجة التي صار إليها ولم يكن له خيار في تجنب هذا المصير.

كان مدفوعاً إليه بطبيعة تكوين جيشه الذي يضم عدداً كبيراً من الصحابة والقراء الذين لا يسعهم أن يرفضوا كتاب الله إذا دعوا إليه، وقال احدهم وهو مسعر بن فدك التميمى أجب إلى كتاب الله إذا دعيت إليه و إلا ندفعك برمتك إلى القوم أو نفعل بك كما فعلنا بابن عفان وكان جيشه يضم أشتاتاً متفرقين جاءوا من بلدان متعددة، ولكل طائفة زعيم ولكل زعيم رأى ولم يتح له من الوقت ما يمكنه أن يسوسهم على طاعته، وفى ذلك يقول معاوية: "كان في أخبث جند وأشده خلافاً على وكنت فى أطوع جند وأقله خلافاً على".

كانت الحالة النفسية لجند على﵁ قد وصلت إلى درجة سيئة بسبب طول القتال والثورة على النفس لأن فيهم هذه المرة فريق من أهل البصرة الذين وقفوا ضده بالأمس، فلم تنعقد قلوبهم على طاعة خالصة له، ومنهم أهل الكوفة الذين تحنطهم الحرب واضطروا إلى رفع السيوف في وجه إخوانهم يوم الجمل وها هم يشربون ويلاتها في صفين، وقال أحد زعمائهم : "إن هذه الحرب قد أكلتنا وأذهبت الرجال والرأي والموادعة. (٢)

---

(١) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، ج١، ص٢١٩.

(٢) ابن الوردى: تاريخ ابن الوردى، ج١، ص ١٥١.

وكان في جيشه من يُشكُّ في خيانته وتواطئه وهو الأشعث بن قيس كان من المرتدين بعد وفاة الرسولﷺ وولاه علىﷺ على أذربيجان ثم عزله لأنه احتجز لنفسه من فيئها، فكان يبدى إصراراً غريباً على قبول التحكيم.

ووجد علىﷺ نفسه مهدداً بانقسام في جنده، فاستجاب مكرهاً لدعوة التحكيم وأرسل إلى قائدة الأشطر الذي كان يتقدم بالميمنة نحو النصر يأمره بوقف القتال.

وكما أكره علىﷺ أكره أيضاً على اختيار الحكم الذي يمثله، وأصر الأشعث بن قيس وقومه اليمانية على اختيار أبى موسى الأشعري، ولم يكن على راضياً عن اختياره، لأنه كان يُخذِّل أهل الكوفة عن نصرته في حرب الجمل ويدعوهم ألا يرفعوا السيوف في وجه مسلمين مثلهم، فقال لهم علىﷺ : " قد عصيتموني أول الأمر في تعصوني الآن، فأصروا على اختيارهم، فقال لهم أبيتم إلا أبا موسى قالوا: نعم، قال: فاصنعوا ما بدا لكم. [1]

ولا نكون منصفين إذا حملنا علياًﷺ مسئولية هذا التمرد فإن الخلافة لم يكن لها جندها الخاص ولا جيش يدافع عنها بل كان المجاهدون في الأنصار والثغور منذ عهد عثمانﷺ ولم يكن أمام علىﷺ سوى أن يستنفر من استطاع، وليس له بديل عن هؤلاء الأتباع، أما معاوية فقد استقر في ولايته أكثر من عشرين سنة يستعد لمثل هذا اليوم، وعبر علىﷺ عن حزنه العميق فقال: "كنت بالأمس أميراً، فأصبحت اليوم مأموراً، وكنت ناهياً فأصبحت اليوم منهياً.

وكتب الفريقان وثيقة التحكيم وحددوا فيه كل شئ إلا شيئاً واحداً نسوا تحديده وهو الموضوع الذي فيه يختصمان واتفق أن يلتقى الحكمان في دومة الجندل بعد ستة أشهر ولم يكن هذا الإنتظار الطويل مطلوباً إلا إذا كانت هناك ضرورة لاستقصاء بعض الحقائق أو استطلاع أراء القوم ولكن الحكمين لم يفعلاً شيئاً سوى الانتظار.

لم يكن مرور الوقت في صالح الخليفة علىﷺ فقد تحول الموقف كله لصالح معاوية فأخذ يجنى الثمار ويكسب الأنصار وأخذ على يفقد المؤيدين ولا يرى حوله إلا المتقاعسين المتخاذلين.

أوضحت هذه الوثيقة الهدف من وقف القتال واختيار الحكمين وموعد اجتماعاهما وتأمينيهما على أنفسهما وأموالهما مهما يكن حكمها، كما اتفقوا على حرب من يخالف نصوص هذه الوثيقة وقد وقّع على هذه الوثيقة من جماعة علىﷺ كشهود كل من: عبد الله بن عباس والأشعث بن قيس، وزياد

---

[1] السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، ص٢١٩.

بن كعب، وشريح بن هانئ، وعدى بن حاتم وغيرهم ومن جانب معاوية كل من: عتبة بن أبى سفيان، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، والحصين بن نمير، وحمزة بن مالك، وبسر بن أرطأة، والنعمان بن بشير وغيرهم[1].

كانت أولى النتائج التي ترتبت على التحكيم أن خرج على الخليفة علىﷺ فريق من أتابعة واتهموه بالكفر و رأوا في التحكيم خروجاً على **تعاليم الله حيث قال:** ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ ، وقالوا إنه لابد من قتال الفئة الباغية حتى تفئ إلى أمر الله، وأعلنوا شعارهم لا حكم إلا لله ولذلك سموا بالمُحَكِّمة وخرجوا على طاعة علىﷺ، وخرجوا إلى المدائن فعرفوا أيضاً بالخوارج، وفى مقابل ذلك ظهر فريق آخر متحمس لعلى وقالوا له: في أعناقنا بيعة ثانية، ونحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت وبذلك تكونت نواة الشيعة، وظهرت الأحزاب السياسية في الإسلام.

وفى الموعد المحدد اجتمع الحكمان ولم يكن مهماً بالنسبة لمعاوية أن يصل إلى قرار بل لم يكن من مصلحته أن يصل إلى قرار ولذلك كانت مهمة ممثله عمرو بن العاص أن يجهد هذا الاجتماع ويثير الزوبعة التي تأتى عليه ويذكر أن الخليفة علىﷺ كان قد حزر أبا موسى على ألا يقدمه عمرو على نفسه ولكن عمرو تمكن من استدراج أبا موسى وقدمه على نفسه بحجة أنه أكب منه سناً وأسبق منه في الإسلام ولا يليق به أن يتحدث قبله.

اتفق على ومعاوية على التحكيم فيما بينهما قال عمرو بن العاص نائب معاوية لأبى موسى الأشعرى نائب علىﷺ: ألست تعلم أن عثمانﷺقتل مظلوماً؟ قال: أشهد قال: ألست تعلم أن معاوية وآل معاوية أولياءه؟ فقال: بلى، قال: فإن الله عز وجل قال:﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾

---

١ () ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، جـ١، ص١١٤.

، وهذا يعنى أن معاوية له حق المطالبة بدم عثمانﷺ لأنه ولى دمه. يقول الغزالى: وقد ظن معاوية أن تأخير أمر قتلة عثمان مع عظم جنايتهم يوجب الإغراء بالأئمة ويعرض الدماء للسفك[1].

والرواية المشهورة أن عمراً خدع أبا موسى الأشعرى فجعله يعلن خلع علىﷺ ثم أعلن هو تثبيت معاوية فأثار بذلك حفيظة أبا موسى فتبادلا الشتائم وانفش الاجتماع وبناء على هذه الرواية يقول عمرو قد لجأ إلى مغالطة ماكرة، وهى انه جعل كلاً من الحكمين يصدر قراره منفرداً وكان من المنتظر أن يكون قراريهما واحداً، و إلا ففيما اجتماعيهما إذاً؟ وأنه ثبت معاوية فعلى أى شئ ثبته؟ إن معاوية لم يكن خليفة، ولم يزعم لنفسه هذا الحق بعد، ولا تتم الخلافة بقرار من الحكم ولكن ببيعة من الأمر وممثليها، ولكن عمراً أراد لذلك ان يثير شريكه في التحكيم وتنتهى الأمر إلى لا شئ. ويروى المسعودى الموضوع بسورة أخرى ويقول: "ووجدت في وجه آخر من الروايات أنهما اتفقا على خلع علىﷺ ومعاوية وأن يجعلا الأمر بعد ذلك شورى يختار الناس رجلاً يصلح لها، وإذا صحت هذه الرواية يكون عمرو قد نجح في اتخاذ قرار على أساس المغالطة نفسها لأن معاوية لم يكن خليفة وبذلك تعود الخسارة كلها على علىﷺ ويكون قد عزل وحدة[2].

موقف عمرو بن العاص في عملية التحكيم:

فى اعتقادنا أنه لم يحدث أى خداع من جانب عمرو بن العاص لأبى موسى الأشعرى وأنهما لم يتبادلا الشتائم على النحو الوارد في إحدى روايات التحكيم، فالحكمان اجتمعا ولم يتفقا على شئ وافترقا دون أن يوجه أحدهما أى شتائم للآخر حيث أن معاوية الذي كان نائبه في التحكيم عمرو لم يكن خليفة وقت ذاك وتثبيت عمرو بن العاص وحده له لايجعله خليفة إذ يلزمه موافقة الحكمين ولا يعقل أن يلجأ عمرو إلا خداع لا يفيد صاحبة معاوية في شئ علماً بأن معاوية لم يدع الخلافة وقت ذاك، فالثابت ان خلافته لم تبدأ إلا بعد الصلح مع الحسن بن على، وقد تمت مبايعة الحسن لمعاوية سنة ٤١هـ وهو عام الجماعة الأول، ومن ذلك اليوم فقط سمى معاوية أمير المؤمنين.

---

١ () الغزالى: إحياء علوم الدين، جـ١، ص١٠٢.

٢ () المسعودى: مروج الدهب، جـ١، ص٥٩٥.

إن هذه الرواية توهم بان هناك خليفتين أو أميرين للمؤمنين وأن الاتفاق بين الحكمين كان على خلعهما معاً وأن أبا موسى خلع الخليفتين تنفيذاً للاتفاق أما عمرو فقد خلع أحدهما وأبقى الآخر خليفة خلافاً للاتفاق وهذا كله كذب وافق وافطراء.

موقف عمرو في عملية رفع المصاحف على أسنة الرماح في صفين:

تصف رواية أوردها الطبرى فكرة رفع المصاحف على أسنة الرماح في صفين بأنها خديعة شيطانية لجأ إليها عمرو بن العاص لإحداث الوقيعة بين أفراد جيش علىﷺ وإنقاذ جيش معاوية من الهزيمة[١].

وذكر مؤرخ ثقة هو خليفة بن خياط أحد شيوخ البخارى يروى قصة رفع المصاحف في صفين دون أن يشير لا تلميحاً ولا تصريحاً إلا أنها كانت من قبيل الخداع[٢].

والحق أنه لما اشتد القتال بالطرفين لم يكن الفرار ممكناً من جانب أى منهما لأن كل طرف كان مؤمن بصحة موقفه، كما أن استمرار القتال كان يعنى المزيد من الفناء والهلاك، لذلك اقترحت فكرة رفع المصاحف على أسنة الرماح والدعوة إلى تحكيم كتاب الله تعالى.

ولم تكن هذه أول مرة تطرح فيه الدعوة إلى تحكيم كتاب الله بين المتحاربين المسلمين، فقد أورد ابن عساكر في ترجمته لطلحه بن عبيد الله أن السيدة عائشة قالت لكعب بن سور الأزدى وهو أول قاضٍ عينه عمر بن الخطابﷺ على البصرة، "خل ياكعب عن البعير، وتقدم بكتاب الله فادعهم إليه" ودفعت إليه مصحفاً وأقبل القوم وأمامهم السبئية يخافون أن يجرى الصلح بين الطرفين فاستقبلهم كعب بالمصحف، وعلى من خلفهم يزعهم ويأبون إلا إقداماً فلما دعاهم كعب رشقوه رشقاً واحداً فقتلوه.

ومن الواضح أن رفع المصاحف على أسنة الرماح في صفين لم تكن غير وسيلة للتعبير عما كان يشعر به الكثيرون في قراره أنفسهم من ميل للصلح، أى أن عمرو بن العاص لم يفعل غير التعبير عن فكرة كان يشاركه فيها الكثير.

ويشير الدينورى إلى هذه الحقيقة بقوله: لم يكن علىﷺ وحده يحاول تحاشى حرب مهلكة يتطاحن فيها المؤمنون وأعضاء القبيلة الواحدة بل الأقارب والآباء والأبناء، وربما كان هذا هو السبب

---

١ () الطبرى: تاريخه، جـ٥، ص٤٨.

٢ () خليفة بن خياط: تاريخه، ص١٤٩.

في مضى وقت طويل قبل أن يبدأ القتال الحقيقى وأنهم لجأوا بعد أن أعيتهم الحيل إلى عقد هدنة استمرت طوال شهر المحرم [١].

روى الإمام أحمد بن حنبل في مسنده عن رواة ثقات أنه لم استحر القتل بأهل الشام اعتصموا بتل، فقال عمرو بن العاص لمعاوية: أرسل إلى علىﷺ بمصحف فادعه إلى كتاب الله فإنه لن يأبى عليك. فجاء به رجل فقال: بيننا وبينكم كتاب الله فقال علىﷺ: " نعم أن أولى بذلك بيننا وبينكم كتاب الله، وهذا يتفق مع طبيعة علىﷺ إذ من المستبعد أن يرفض علىﷺ التحكيم والصلح ويكره حقن الدماء وهو الذي كان يرسل العديد من الوفود إلى خصومه قبل الاشتباك معهم وقد فعل ذلك قبل معركة صفين وفى أثنائها.

وفى نهاية الأمر كان القتال بين علىﷺ ومعاويةﷺ لأن علياً كان يأخذ على معاوية أن شق عصا الطاعة ولم يبايعه مثل سائر الولاة في الدولة الإسلامية بينما كان معاوية يتهم الخليفة بالتواطؤ مع الثوار على قتل ابن عمه عثمانﷺ، ولأنه لم يقتص منهم وأوى الكثير منهم في جيشه.

---

١ () الدينورى: الأخبار الطوال، ص١٨٤.

الموقف بعد التحكيم ونهاية حياة الإمام علي:

وقد اتفق الطرفان على اختيار حكم لكل فريق كما اشترطا على القائدين المتنازعين أن يقبلا نتيجة التحكيم ، ووقع اختيار أهل الشام أتباع معاوية على عمرو بن العاص ، ووقع اختيار أهل العراق على أبو موسى الأشعري ، واجتمع الحكمان بين العراق والشام في دومة الجندل سنة ٣٨هـ/٦٥٨م[١] ، واتفق الحكمان على خلع علي ومعاوية وترك الأمر شورى للمسلمين يختاروا ما يشاءون ، فتقدم أبا موسى الأشعرى وخلع عليا ، ثم صعد عمرو وثبت معاوية ، ورضيت جماعة معاوية بقرار التحكيم ، ورفضته جماعة علي الذي أصبح في نظر أهل الشام والخوارج خليفة غير شرعي ، فاكتسب معاوية بهذا القرار قوة إلى قوته ، وازداد علي ضعف على ضعفه باستفحال أمر الخلاف داخل أتباعه[٢].

بدأ أهل الشام حركة مبايعة معاوية بالخلافة ، ولكن معاوية لم يتعجل ذلك حتى لا يظهر أمام العامة وأمام المخدوعين من أتباع علي بمظهر من كان يسعى إلى الخلافة ، فنذر رفض طاعة الخليفة علي .

عاد الحال على ما كان عليه قبل صفين وضعف مركز علي ، وحقق معاوية مكاسب عديدة حيث أنه كان أميرا على إحدى ولايات الدولة الإسلامية ، وعمل معاوية على إضعاف مركز علي بضم مصر إليه ، وإثارة الاضطرابات ضد علي فى كل أرجاء الخلافة .

أعلن محمد بن حذيفة ولاءه لعلى بن أبى طالب وبدأ يحارب معارضي الخليفة حيث أعلنت القبائل العربية في مصر التابعة لعثمان بن عفان الأخذ بالثأر من قتلته وكان زعيمها معاوية بن حديج ، ودارت معركتان بين محمد بن حذيفة ، وشيعة عثمان فى الإسكندرية وخربتا انهزم فيها محمد بن حذيفة[٣].

وقد شجع انتصار شيعة عثمان على والى مصر محمد بن حذيفة . معاوية على ضم مصر لجانبه ، فأرسل عمرو بن العاص ، فقاد عمرو جيشا سنة ٣٦هـ/٦٥٦م ، ودخل مصر ووصل بالقرب من الفسطاط في منطقة عين شمس فتصدى له محمد بن حذيفة ، ودارت المفاوضات بينهما وانتهى

---

١ () اليعقوبى: تاريخه ، جـ٢ ص١٩٠.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى ، جـ٤ ، ص٧٨ ، البلاذرى: فتوح البلدان ، ص٥ ، ابن الأثير: الكامل ، جـ٣ ص١٦٧

٣() الكندي: ولاة مصر ، ص٤٢ ، أبو المحاسن: النجوم ، جـ١ ص٩٤-٩٨.

الأمر بحصول عمرو على رهائن من محمد بن حذيفة ، وكان ابن حذيفة ضمن هذه الرهائن وقتل مع الرهائن فى ذي الحجة سنة ٣٦هـ/٦٥٦م[١]

بعد مقتل محمد بن أبى حذيفة أرسل الخليفة علي ﷺ قيس بن سعد بن عبادة واليا على مصر سنة ٣٧هـ/٦٥٧م ، إلا أن معاوية أخذ يدس له الدسائس حيث تمكن قيس من كسب ود معارضي الخليفة علي ﷺ وأكرمهم وأحسن إليهم، وترتب على ذلك تحول موقف المعارضين بالانصياع لأوامر قيس ، فأحس معاوية بالخطر فبدأ يكيد لقيس عند الخليفة علي ﷺ .

ويذكر الكندي حديث معاوية عن كيده قيسا والقضاء عليه ، فقال : أن معاوية قال لأهل الشام: "لا تسبوا قيسا ، ولا تدعوا إلى غزوه . أي محاربته . فإن قيسا لنا شيعة ، تأتينا كتبه ونصيحته ، ألا ترون ماذا يفعل بأخوانكم بخربتا؟! يجري عليهم أعطياتهم وأرزاقهم"[٢] ، فسمع بذلك عيون علي ﷺ بالعراق والشام، فاتهم علي قيسا ، وبعث يأمره بقتال شيعة عثمان بخربتا ، فرفض قيس ، فعزله علي وهكذا تخلص معاوية من قيس بالدهاء والمكايدة[٣].

بعد عزل قيس أرسل علي ﷺ الأشتر النخعى واليا على مصر فسار إليها حتى نزل القلزم ، وهناك لم ينج من كيد معاوية حيث دس له سما أثناء نزوله منزل أحد رجال مدينة القلزم ، فمات مسموما ودفن بها[٤].

وفى رمضان سنة ٣٧هـ/٦٥٧م أرسل علي ﷺ محمد بن أبى بكر واليا على مصر ، فبدأ محمد ولايته بمعاداة شيعة عثمان ﷺ ، إذ اضطهدهم وخرب ديارهم ثم سمح لهم بالنزوح من مصر واللحاق بمعاوية في بلاد الشام ، مما أشعل نار الحرب بينه وبينهم ، وكان على رأسهم معاوية بن حديج ، وسانده في تلك الفترة عمرو بن العاص من قبل معاوية، والتقى الطرفان في منطقة المسناه بالقرب من الفسطاط[٥] في شهر صفر سنة ٣٨هـ/٦٥٨م ، وانتهت المعركة بهزيمة محمد بن أبى بكر ومقتله[٦] .

١() الكندي: ولاة مصر ، ص٤٣.

٢() الكندي : ولاة مصر ، ص١٩

٣() اليعقوبى: تاريخه ، جـ٢ ، ص١٩٤ ، الكندي: ولاة مصر ، ص١٦.

٤ () الكندي: ولاة مصر ، ص١٤٧، ١٤٨ ، السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية ، جـ٢ ص٣٢٢.

٥ () السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة ، جـ٢ ص٣٢٢.

(٦) الكندى: الولاة ، ص٥٢ ، أبو المحاسن: النجوم ، جـ٢ ص١٠٩.

وبمقتل محمد بن أبي بكر تمكن معاوية من القضاء على أتباع الخليفة علي ﷺ بمصر ، ومنذ ذلك الحين أصبحت مصر ولاية تابعة لمعاوية ، إذ ولى عليها عمرو بن العاص مكافأة له على وقوفه بجانبه في صراعه ضد الخليفة على ﷺ.

وهكذا كان لمصر دور بارز في الصراع الذي نشب بين الخليفة على بن أبى طالب ﷺ والأمير معاوية بن أبى سفيان ، إذ تجلى ذلك في موقف شيعة عثمان ﷺ المعارضين لسياسة ولاة علي ﷺ سوى قيس بن سعد بن عبادة ، الذي نجح في كسب ودهم ، ولكنه لم ينج من مكيدة معاوية التي انتهت بعزله.

وكانت مطالب العثمانية كشوكة في جانب ولاة علي ﷺ ، حيث حاربوا محمد بن أبى بكر الذي أساء معاملتهم ، وكان مقتله على أيديهم ، وقد رجح هذا الموقف كفة الأمير معاوية في صراعه مع الخليفة علي ﷺ ، إذا صارت مصر ولاية أموية فيما بعد.

مقتل الخليفة على بن أبى طالب ﷺ:

وهكذا كانت الأمور والأحداث تتلاحق إذ ازداد موقف معاوية قوة وازداد نفوذه خارج الشام بينما انحصر أمر الإمام على وتقلصت أطراف بلاده مما جعل أصحابه يتهيئون للقتال والقضاء على الخطر الماثل أمامهم، وبينما هم يتجهزون إذ بمؤامرة يدبرها الخوارج لقتل كل من على ومعاوية وعمرو بن العاص إلا أن الشخصين الذين كلفا بقتل معاوية وعمرو فشلا في مهمتهما بينما نجح عبد الرحمن بن ملجم المرادى في قتل الخليفة على ﷺ وذلك أثناء صلاة الفجر بمسجد الكوفة[١]، وقد حرص الإمام وهو يلفظ أنفاسه الأخيره أن يوصى ابنه الحسن بقوله: انظر ياجسن إذ أنا مت من ضربتى هذه فأضرب القاتل ضربة بضربة، ولا تمثلن بالرجل، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور[٢].

وقد هم على بالتحقيق في مقتل عثمان، وبدا بأقرب المتهمين وهو محمد بن أبى بكر، ولم يتركه إلا بعد أن شهدت امرأة عثمان بأنه لم يقتل. وكان جديرا بعد ذلك أن يجرى في تقصى الأمر والوصول إلى القتلة وإجراء حكم القانون، ولكن الأمور تغيرت بخروج الخارجين عليه.

---

(١) ابن طباطبا: الفخرى، ص٧٢.

(٢) إبراهيم الإبيارى: معاوية، ص٢٢٩.

وكأنما أراد منافسو على أن تبقى قضية مقتل عثمان بلا حل فتكون مثارا للجدل وموضعا للإحراج.

وكان أصحاب المصلحة في إبقاء القضية عند هذه الحدود هم طلحة والزبير ومعاوية.

مساعى الصلح بين على ومعاوية:

ولقد تبادلت الرسائل بين على ومعاوية من أجل التسوية بينهما. فبعث على بشير بن عمرو بن محصن، وسعيد بن قيس الهمدانى، وشبث بن ربعى التميمى لدعوة معاوية إلى الطاعة والدخول في الجماعة لتوحيد شمل الأمة.

ولكن الحل السلمى يتعثر كلما عرض معاوية قضية مقتل الخليفة عثمان ويمعن في هذا الأمر. وكان من الحرى عليه أن يتعاون مع الخليفة على وينضم تحت لوائه بدلا من المراوغة وإلصاق التهم على الخليفة على ورميه بأنه آوى قتلة عثمان.

وحدثت مناوشات خفيفة بين خيالة أهل العراق وأهل الشام، وكانوا يقتتلون ثم ينصرفون.

ولما أهل شهر المحرم سنة ٣٧هـ/٦٥٧م توادعا على ومعاوية على ترك الحرب فيه إلى انقضائه طمعا في الصلح وترددت بينهما الرسل ولكن لم يكتب لها النجاح.

وهكذا فشلت المساعى السلمية في تقريب هوة الخلاف، ولم يبق أمام الفريقين سوى اللجوء إلى القوة. (١)

بدء المعركة:

ولما دخل شهر صفر سنة ٣٦هـ/٦٥٦م نشب القتال، وكانت بينهم وقعات كثيرة بصفين. بلغت تسعين وقعة. وكانت مدة إقامتهم بصفين مائة وعشرة يوم. وقتل من أهل الشام خمسة وأربعين آلفا. ومن أهل العراق خمسة وعشرين ألفا.

وأمر على بن أبى طالب رضي الله عنه جنده أن لا يقاتلوهم حتى يبدءوا بالقتال وأن لا يقتلوا مدبرا ولا يأخذوا شيئا من أموالهم وأن لا يكشفوا عورة.

وانتدب على اثنى عشر ألفا وحمل بهم على جند معاوية واختلت صفوفهم. ودعا على معاوية لمبارزته، قائلا: فأينا قتل صاحبه استقامت له الأمور، فقال عمرى: أنصفك ابن عمك، فقال معاوية: ما أنصف إنك تعلم أنه لم يبرز أحد إلا قتله، فقال عمرو: وما يحسن بك مبارزته، فقال معاوية طمعت في الأمر بعدى". (٢)

التحكيم:

---

(١) الطبرى: تاريخ الأمم، ج٣، ص ٧٩.

(٢) أبو الفدا: المختصر فى تاريخ البشر، ج١، ص٢١٨.

ولما كثر القتلى في جند الشام فكر عمرو ومعاوية في وسيلة لوقف سير القتال فلجئوا إلى حقيقة تغير مجرى المعركة، فقالوا: "هلم نرفع المصاحف على الرماح ونقول هذا كتاب الله بينا وبينكم، ففعلوا ذلك" واثرت هذه الخدعة على أهل العراق وطالوا على بالاستجابة إلى كتاب الله، امضوا على حقكم وصدقكم في قتالهم وإن هذه خدعة دبرها عمرو ومعاوية وأنا أعلم بهم منكم، فقالوا: لا تمنعنا أن ندعى إلى كتاب الله فنأبى، فقال على إنى إنما قاتلتهم لدينوا بحكم كتاب الله.

ولقد وضعت هذه الحيلة على بن أبى طالب رضي الله عنه في موقف حرج، فإن قبل بتحكيم كتاب الله فإن جماعة من جنده يفترقون عنه، وإن واصل الحرب والقتال رغم المصاحف المرفوعة يكفره أصحابه، وفى كلتا الحالتين يتحول الموقف لصالح معاوية.

ولم يصع رجال على لنصحه لهم بمواصلة القتال، وإنما طالبوه بالكف عن استمرار القتال وعلى رأس هذا الفريق طائفة القراء بجيش على.

ولما كفوا عن القتل سألوا معاوية عن سبب رفع المصاحف وتعين حكما من أهل العراق وآخر من أهل الشام للعمل بما في كتاب الله.

وكان على بن أبى طالب رضي الله عنه يدرك أبعاد المؤامرة عندما طالبه الأشعث ابن قيس وهو من أكبر الخوارج باختيار أبو موسى الأشعرى. فقال على: قد عصيتمونى في أول الأمر، فلا تعصونى الآن لا أرى أن أولى أبا موسى، وكان على يرى أن أبا موسى ليس بثقة لأنه خذل الناس عن على لعدة أشهر، ولكن ابن عباس أولى منه، فأصروا على التمسك بأبى موسى ألشعرى برغم عدم رضا على بن أبى طالب رضي الله عنه. [١]

وأخرج معاوية عمرو بن العاص واجتمع الحكمان عند على وكتب بحضوره كتاب القضية (التحكيم) للنزول على حكم الله وكتابه في الثالث عشر من صفر سنة ٣٧هـ/٦٥٧م، على أن يوافى على معاوية موضع الحكمين بدومة الجندل فإن لم يتمكنا من الاجتماع يؤجل إلى العام المقبل بأذرح.

ومما لا ريب فيه أن قبول على التحكيم أول وهن أصاب مركزه كخليفة للمسلمين، وقد ترتب على ذلك ظهور حركة الخوارج.

---

[١] أبو الفدا: المختصر فى تاريخ البشر، ج١، ص٢٢٠.

ولقد عارض طائفة من جيش على التحكيم وعرفوا باسم الخوارج، وكان شعارهم: "لا حكم إلا لله" ورفضوا دخول الكوفة مع على وعسكروا في منطقة حروراء؛ وعرفوا باسم الحرورية. وبعث على بن عباس لهم وقارعهم الحجة بالحجة. فعاد قوم منهم إلى رشدهم.

وتمسك نفرٌ منهم برأيهم وساروا إلى النهروان وقتلوا كل من اعترضهم. كما قتلوا الصحابى عبد الله بن خباب.

وسار على بن أبى طالب رضي الله عنه على رأس جيش لتأديب الخوارج والتقى معهم سنة ٣٧هـ/٦٥٧م بالنهروان. وأسفر اللقاء عن قتلهم جميعا ولم ينجوا منهم سوى نفر قليل.

واجتمع الحكمان وبعد مشاورات استقر رأيهم على عزل على ومعاوية وأن يجعل الأمر شورى بين المسلمين. وتقدم أبو موسى الأشعرى ليخبر الناس بما اتفقوا عليه فقال: أيها الناس إنا لم نر أصلح لأمر هذه الأمة من أمر قد اجتماع عليه رأيى ورأى عمرو وهو أن نخلع على ومعاوية وتستقبل هذه الأمة هذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا. وإنى قد خلعت على ومعاوية. وأقبل عمرو ثم قال: إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه واثبت صاحبى. فرد عليه أبو موسى بأن ذلك خيانة لما اتفق عليه.

ولما دخلت سنة ٣٨هـ/٦٥٨م بعث معاوية جيشا بقيادة عمرو بن العاص للمسير إلى مصر وانتزاعها من على. وكتب واليها من قبله محمد بن أبى بكر يستنجد بعلى فأرسل إليه الأشتر. فلما وصل الأشتر إلى القلزم سقاه رجل عسلا مسموما فمات منه.

وسار عمرو بن العاص إلى مصر واشتبك مع محمد بن أبى بكر وهزمه وتفرق عن محمد أصحابه ثم فر هاربا إلى خربتا فقبض عليه وقتله معاوية بن حديج. وتمكن عمرو بن العاص من أخذ بيعة أهل مصر لمعاوية.

وأخذ معاوية يشن سراياه للغارة على أعمال على، فبعث النعمان بن بشير الأنصارى إلى عين التمر، وبعث سفيان بن عوف إلى هيت والأنبار والمدائن، وسير عبد الله بن مسعدة الفزارى إلى الحجاز فجهز إليه على خيلا فالقوا بتيماء هزم عبد الله بن مسعدة فعاد إلى الشام. [١]

وفى سنة ٤٠هـ/٦٦٠م بعث معاوية بسر بن وطأة بجيش استولى على الحجاز واليمن.

استشهاد على بن أبى طالب رضي الله عنه:

---

[١] ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٣، ص٢١.

اجتمع ثلاثة من الخوارج هم عبد الرحمن بن ملجم المرادى، وعمرو ابن بكر التميمى، والبرك بن عبد الله التميمى، وتذكروا أخوانهم المقتولين في موقعة النهروان، ودبروا فيما بعد بينهم خطة للتخلص من على ومعاوية وعمرو فتوجه عبد الرحمن بن ملجم إلى على، والبرك بن عبد الله إلى معاوية، وعمرو بن بكر إلى عمرو بن العاص. وتعاهدوا أن لا يفر أحد منهم من صاحبه الذي توجه إليه، وحملوا معهم سيوفا مسمومة واتفقوا على تنفيذ جريمتهم في السابع عشر من رمضان سنة ٤٠هـ/٦٦٠م.

ولم تنجح خطة الخوارج إلا في مقتل على الذي ترصده عبد الرحمن ابن ملجم أثناء خروجه لصلاة الصبح فطعنه عدة طعنات نافذة. أما البرك فوثب على معاوية وجذبه بالسيف ولكنه نجا. وأما عمرو بن بكر فإنه ترصد عمرو بن العاص في تلك الليلة فلم يخرج عمرو للصلاة وكان قد أمر خارجه ابن حذافة صاحب شرطته أن يصلى بالناس فشد عليه عمرو بمن بكر وهو يظن أنه عمرو بن العاص فقتله فأخذه الناس واتوا به عمرا. فقال من هذا قالوا: عمرا فقال: أى من قتلت، قالوا: خارجة، فقال عمرو: أردت عمرا وأراد الله خارجه وعقب وفاة على بن أبى طالبﷺ بايع الناس ابنه الحسن. [١]

[١] أبو الفدا: المختصر فى تاريخ البشر، ج١، ٢٢٦؛ ابن الوردى: تاريخ ابن الوردى، ج١، ص١٥٧.

خريطة توضح الصراع بين علي ﷺ ومعاوية ﷺ

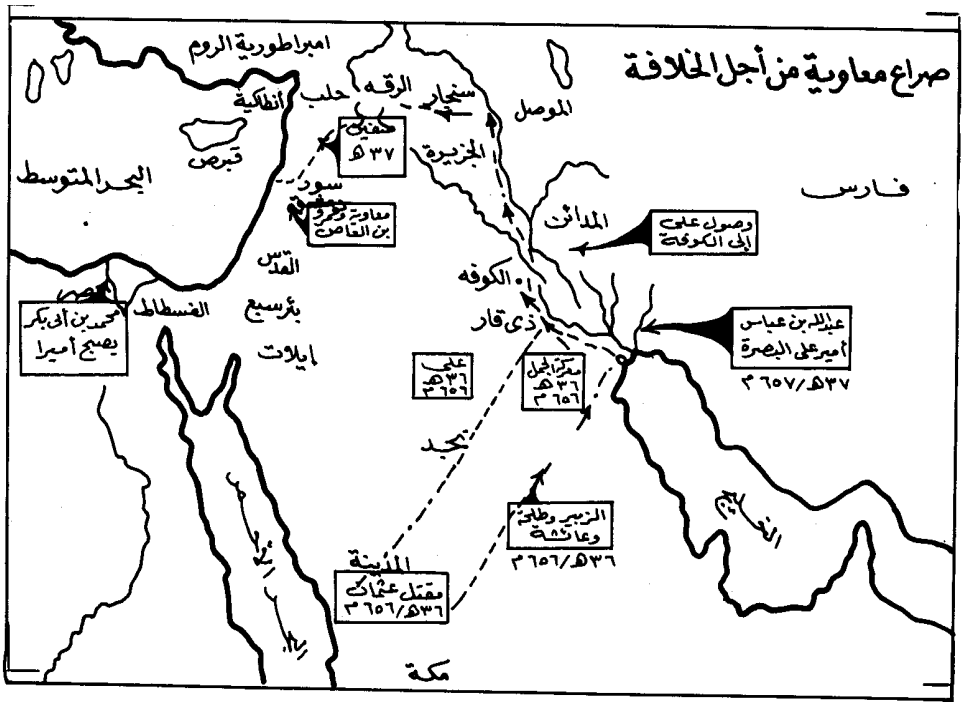

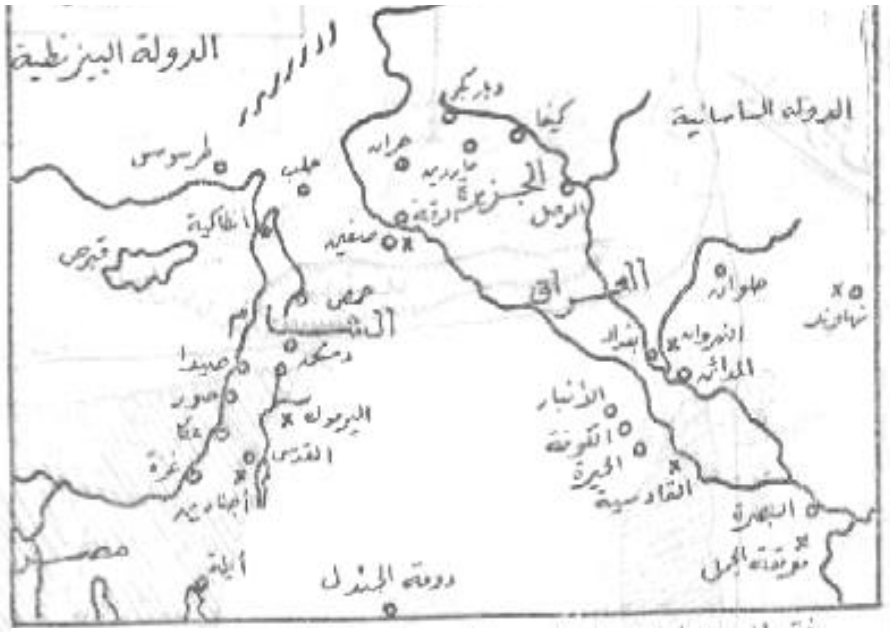

فتح العرب لبلاد العراق والشام في عهد الخلفاء الراشدين

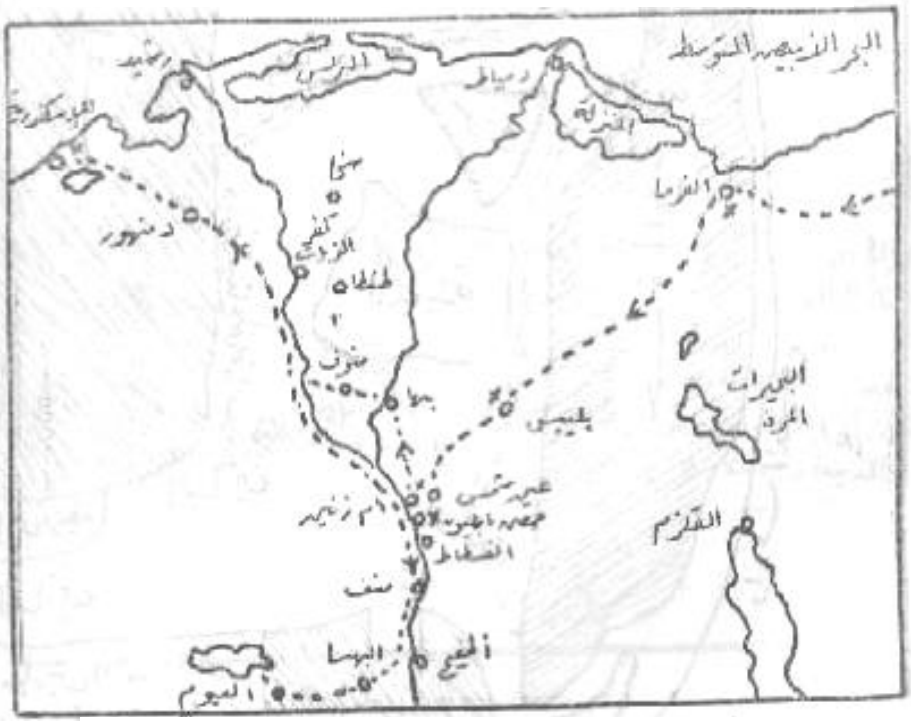

فتح العرب لمصر في عهد الخلفاء الراشدين

١-معاوية بن أبي سفيان

٤١-٦٠هـ / ٦٦٠ - ٦٨٠م

هو معاوية بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وأمـه عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، يكنى أبا عبد الرحمن

وقد دخل الإسلام في السنة الثامنة للهجرة عند فتح المسلمين لمكة ، وقد ولد معاوية قبل البعثة النبوية بخمس سنوات وكان عمره عندما دخل الاسلام وعمره ثلاث وعشرون عاما ، وقد اتخذه الرسول كاتبا لتوحي وروى الحديث عن ابي بكر وعمر وعثمان وأخته أم حبيبه (رملة) زوجة الرسول ﷺ . وكان لمعاوية بن أبي سفيان تاريخ حافل في سبيل الدعوة وانتشار العقيدة الاسلامية

ففي عصر الرسول ﷺ شارك معاوية في غزوة حنين والطائف وأعطاه الرسول من غنائم حنين مائة من الابل وأربعين أوقية

وفي عهد أبي بكر الصديق (١١ - ١٣هـ) كان أخو معاوية - يزيد – احد الأربعة الذين شاركوا في فتح بلاد الشام وقام عمر بن الخطاب بتوليـة يزيـد ولاية دمشق وتولية معاوية ما يليها من البلاد ، ثم تولى معاوية بعد وفاة أخيه ولاية دمشق

وعليه ظل معاوية على ولاية الشام في فترة خلافه عمر وعثمان .ثم استقل بها مدة خلافة على بن ابى طالب فدامت ولايته للشام عشرين عاما استطاع خلالها بسياسته ودهائه أن يجتذب قلوب أهل الشام ويكون بهم حزبا يناصرونه ،لذا سوف نجد أن أهل الشام سوف يظلون مخلصين للأمويين حتى أواخر عهدهم. وبانجذاب أهل الشام إلى معاوية علاوة على منطقه في أنه كيف يأوي علي بن أبي طالب قتلة عثمان بن عفان ؟ استطاع معاوية أن يحصل على الخلافة بعد صراع دام أربعة أعوام ، فقد وجه معاوية التهمة إلى على في أنـه لـم يثأر لقتل عثمان فوقف من على بن أبي طالب موقف المعارض ثم المنافس وقد أسفرت هذه المنافسة عن موقعة صفين ثم تبع تلك المعركة أحداثا وقلاقلا انتهت بمقتـل على وتولى الخلافة بعده ابنه الحسن الذي تنازل عنها إلى معاوية في عام ٤١هـ ،حيث

حصل معاوية على مبايعة الناس بالكوفة التي دخلها إثر تنازل الحسن بن على . وسمى ذلك العام عام الجماعة لاجتماع الناس على اختياره.

وتقول بعض المصادر التاريخية أن الحسن بن على اشترط على معاوية تكون الخلافة من بعده لأخيه الحسين وعندما أخذت البيعة لمعاوية في حضر الحسن والحسين أصبح معاوية خليفة للمسلمين وصاحب السلطان المطلق في الولايات الإسلامية كافة

وقد حرص معاوية منذ توليه الخلافة على مزج القبائل العربية التي وفدت إلى الشام بأهل تلك البلاد وبذلك استطاع أن يكون آمنا في ملكه.

وتصف المصادر التاريخية بعض السمات الخلقية والخلقية لمعاوية أبي سفيان ، فبالنسبة للسمات الخلقية : فقد كان معاوية طويل القامة أبيضا وسيما وعندما تقدم في العمر زاد وزنه بشكل كبير فكان يخطب الناس وهو جالس وقد عرف عنه نهمه الشديد للطعام .

أما صفاته الخلقية فقد عرف عن معاوية أنه حسن التدبير عاقلا حكيماً سبنا كريما وكان يقضي جميع مشاكله باللين والإحسان ، فقد قال عن نفسه : . أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ولا أضع سوطى حيث يكفيني لساني ولو أن يني وبين الناس شعرة لما انقطعت إذا مدوها خليتها وإذا خلوها مددتها " وهوالقائل أيضاً : " والله لا أتقدم حتى أرى التقدم ولا أتأخر حتى أرى التأخر حزماً .

وقد استعان معاوية بعدد من زعماء العرب الذين كان لهم أكبر الفضل في توئيد لخلافة وهم عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه.

الخوارج والشيعة فى عهد معاوية :

واجه معاوية معارضة قوية من قبل الخوارج وكان يسببون قلاقلا في كل من الكوفة والبصرة فثاروا على معاوية كما ثاروا من قبل على علي بن أبي مر حيث اعتبروا معاوية وعلى أعداء لهم وعليه وجب قتالهم وكان من بين الـ الخوارج فروة بن نوفل الأشجعي الذي اعتزل على

بن أبـى طـالـب وأقـام شهرزور فأرسل معاوية جيش من أهل الشام لقتال الثائرين ولكنه هـزم مـن فـل الخوارج مما دعا معاوية أن يستعين بأهل الكوفة لقتال هؤلاء الثائرين وبالفعل تول ما أراد

كذلك قامت ثورة خارجية بقيادة حيان بن ظبيان ومعه مائة من أصحابه وقد خلوا الكوفة في عهد الوالي المغيرة بن شعبة وذلك في عام ٤٣هـ ، وعندما علـم المغيرة بأمرهم قبض على حيان وبعض الرجال معه ووضعهم في السجن فلسم بكسل أمام بقية الثائرين إلا مغادرة الكوفة بعد أن ضيق المغيرة الخناق عليهم وألب عليهم الشيعة حيث وجه إليهم جيشاً منهم قوامه ثلاثة آلاف فقضى عليهم

أما في البصرة فقد ثار الشيعة ضد معاوية في زمن ولاية زياد بـن أبيـه وذلك في عام ٥٨ هـ ولكنه استطاع أن يقتل عددا كبيرا منهم ولـم تـكـن مقاومة الشيعة قويه مثل مقاومة الخوارج خاصة بعد أن تنازل الحسين بن على لمعاوية عن الخلاقة وغادر الكوفة

وقام الشيعة مرة أخرى في الكوفة عندما قام المغيرة بن شعبة – واليها - بلعن علي بن ابي طالب على المنابر وفي الخطب بالمساجد وكان زعيمهم وقتذاك هر عدو الذي قام هو الآخر بدوره مع مجموعة مؤيديه بسب معاويـة نتبع - والي البصرة بعد وفاة المغيرة - سياسة الشدة والحزه تجاه الشيعة رفيه شي حجر واصحابه وارسل الى معاويه فقرا أما من ترك التشيع لعلي ـــ طلب فقد عفا عنه الخليفة الأمور وتم ذلك في عام ده "

<u>الفتوحات الإسلامية في عهد معاوية</u>:

توقفت الفتوحات الإسلامية منذ مقتل عثمان بن عفان وعندما وقعت الحـرب بين علي ومعاوية فانشغل المسلمون بالتقاتل فيما بينهم عن قتال أعدائهم بل اضطر معاوية - حسب ما تروري بعض المصادر التاريخية - قيل أن يدخل الصراع مع علي على عقد هدنة مع البيزنطيين وقبل أن يدفع لهم أتـاوة ليضمـن سلامة اراضيه ،وعندما تم له أمر المسلمين في عام الجماعة ، وقد التزهم معاوية بدفع ألـف دينار كل يوم –أو كل أسبوع- للبيزنطيين

وعادت أرمينية وقبرص إلى النفوذ البيزنطي

ولم يكد معاوية ينتهي من مشاكل الفتنة حتى عاد إلى رغبة المسلمين ورغبته الشخصية في التوسع على حساب أملاك البيزنطيين وقد حدث التوسع على جانبيين متوازيين: برا على الساحل الشمالي الأفريقيي حتى المحيط الاطلنطي ، وبحراً في القسم الشرقي من البحر المتوسط حتى القسطنطينية

وبالنسبة للبحر المتوسط ، فقد أخذ معاوية في تقوية الأسطول البحري ،حتى ان المصادر التاريخية تصدر ان اسطول الشام بلغ في عهده الف وسبعمائة سفينة مزودة بالعتاد والسلاح فقد هدد الامويون الأساطين البيزنطية حيث احتلوا جزيرة رودس التي اتخذوها مركزا لمهاجمة السفن البيزنطية كما احتلوا جزيرة أرواد القريبة من القسطنطينية .

وفي الشرق : توغل المسلمون في بلاد الهند والسند وقد احتلها عبد الله بن سوار ثم غزا المهلب بن أبي صفرة هذه البلاد وتوغل فيها حتى مدينة لاهور ثم اندفع قيس بن الهيثم أمير خراسان في عام ٤٢ هـ إلى فتح هراة و بلغ عدد من المدن الاخرى الأخرى، وقد اشتهر عبد الله بن حازم في فتح هذه البلاد وهو احد قادة عبد الله بن عامر امير البصرة وثبت حكم المسلمين في هذه البلاد في عهد زياد بن ابيه الذي خلف عبد الله بن عامر على البصرة وعين الولاة على مدنها وأقاليمها.

وفي ولاية عبيد الله بن زياد الذي تولى البصرة بعد أبيه وصلت فتوحاته الى بخاري وأرغم خاتون أميرة بخاري على طلب الصلح بعد أن هزم جيش كبيرا لمساعدتها ثم دخل عبيد الله بن زياد بلاد بيكند ثم تولى سعيد بن عثمان قيادة هذة المناطق فدخل بخاري بعد أن نقضت الصلح ثم احتل سمرقند بعد قتال عنيف.

والاستعدادات الحربية سراء البرية أو البحرية والتي قام بها معاوية كان الهدف من ورائها هو السيطرة على القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية فقد تولى معاوية الخلافة في عام ٤١ هـ / ٦٦١م وبعدها بعام سارت حملة بقيادة بسر بن أرطاة التقت بالروم عند قاليقلا وألحقت بهم الهزيمة وكان المقصود بهذه الحملة منع عودة الروم إلى أرمينية بعد أن استعادها العرب ومن ثم توجه اهتمام العرب العسكري نحو آسيا الصغرى فعمل معاوية على بناء خط منيع للحدود يكون حاجزا بين بيزنطة وأرمينية ويستخدم مع الجبهة الشامية قاعدة للحملات الموجهة الى آسيا الصغرى.

وكان معاوية قد قاد من قبل الحملات في آسيا الصغرى واستأنف ما عرف بالصوائف والشواتي . وهي الحملات الفصلية التي كانت تخرج من قواعد محصنة وتتوغل في أرض الروم وكان الغرض من هذه الحملات هو أن ينشغل البيزنطيون بها وأن تكون هذه الحملات مدرسة للجيش الإسلامي يتدربون فيها على الحرب تمهيدا لتنفيذ هدفهم وهو الاستيلاء على منطقة آسيا الصغرى ثم الاستيلاء على القسطنطينية ومن ثم انهيار الدولة البيزنطية .

وكان حصار القسطنطينية الاول عام ٤٩-٥٠ هـ / ٢٦٩ : ٦٧٠م : -

ففي عام ٤٩ هـ أعد معاوية جيشاً كبيراً عين عنيه ابنه يزيد للسير نحو القسطنطينية وانضم إلى هذا الجيش أسماء لامعة مثل ابن عباس وابن الزبير والصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري

وقد تحرك هذا الجيش في خريف عام ٤٩ هـ ليصل تحت أسوار القسطنطينية عام ٥٠هـ ولم يشترك الأسطول العربي في عملية الحصار سوى بنقل القوات الإسلامية على ضفاف البسفور حيث اجتاز الجيش المضايق عن طريق القوارب.

ولكن هذا الحصار يقدر له النجاح وذلك لموقع المدينة الجغرافي ، فقد قامت القسطنطينية على ارض ثلاثية على شكل مثلث رأسه تقابل الشاطئ الأسيوي ،ولها ميناء في القرن الذهبي وهو خليج عظيم يبلغ طوله سبعة أميال على شكل قرن داخل الشاطئ الأوربي يحمى أساطيلها والمدينة تتمتع بحصانة عالية حيث تحيط بها المياه تقريبا من ثلاث جهات : الشمالية والشرقية والجنوبية

وقد أخذ المسلمون بهجوم المدينة من الناحية الشرقية حتى القرن الذهبي ولكنهم لم يستطيعوا الاقتراب من أسوارها وأبراجها المنيعة وقد أظهر المسلمون الكثير من مظاهر الشجاعة والإقدام وكان على رأسهم يزيد بن معاوية نفسه الذي أطلق عليه لقب " فتي العرب"

وقد مات أبو أيوب الأنصاري على أبواب القسطنطينية فدفن بـــالقرب من سورها وعادت القوات العربية وانسحبت دون أن تلحق بها خسائر مادية كبيرة . وفشل حصار القسطنطينية الأول مما حذا بمعاوية أن يوجه اهتماما نحو تدعيم وتقوية الاسطول العربي وهو ما استعد مدة أربعة سنوات ليبدأ الحصار الثاني للقسطنطينية في عام ٥٤ هـ

ويسمى الحصار في المراجع باسم حرب السنوات السبع (٥٤ -٦٠ هـ) (٦٧٤ - ٦٨٠م) ولم يتوقف معاوية قبل ذلك عن حملاته الفصلية أو ما يعرف بالشواتي والصوائف برا وبحراً فقد استمرت وتتابعت هذه الحملات تحت قيادة بسر بن أرطأة وسفيان بن عوف وفضالة بن عبيد الأنصاري في سنوات ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ،٥٣هـ.

كذلك استمرت الحملات البحرية حيث استعاد المسلمون ما فقدوه أثناء الفتنة الكبرى فتم استعادة جزيرة رودس في عام ٥٢ هـ/٦٧٢م واستعيدت جزيرة قبرصعام ٦٦٩م وتمكن الأسطول العربي من الاستيلاء على جزيرة كيزيكوس ،لتكون مقرا لإدارة الحملة على القسطنطينية كما تم مهاجمة جزيرة كريت .

وفي عام ٥٣ هـ قام معاوية بتجهيز حملة بحرية - بقيادة عبد الرحمن – بن خالد بن الوليد وصلت في العام التالي على ساحل كليكيا واتخذت من جزيرة كيزيگوس قاعدة ينتقل منها الجنود إلى البر لمحاصرة القسطنطينية ،واستطاع الاسطول العربي أن يكمل حلقة الحصار عن طريق الانتشار بين رأس هيبدمون Hebdomon التي تبعد مسافة سبعة أميال عن أسوار المدينة وبين رأس كيكلوبيوس Kiklobios الواقعة قرب أحد أبواب العاصمة المعروف باسم باب الذهب

وقد استمر الحصار البري والبحري للمدينة من شهر أبريل حتي شهر سبتمبر وظلت المعارك على الجبهة البرية والبحرية دون أن ترجح كفة دون أخرى وبحلول فصل الشتاء رفع العرب الحصار عن المدينة وعادوا إلى قاعدتهم في جزيرة كيزيكوس وبحلول فصل الربيع عادوا إلى فرض الحصار من جديد .

وعلى هذا النحو تكرر حصار القسطنطينية على مدى سبع سنوات متواصلة إذ كان الأسطول العربي ينقل الجنود عند مطلع كل ربيع إلى أسوار القسطنطينية لفرض الحصار عليها في حين يكمل هو الحصار من البحر ، وفى الشتاء يعود الجنود إلى قاعدتهم في جزيرة كيزيكوس

ولكن هذا الحصار فشل للمرة الثانية رغم شجاعة واستبسال الجنود المسلمين وكان من أهم عوامل هذا الفشل هو النار الإغريقية وهي من ابتكار شخص سوري سكن القسطنطينية يدعى كالينوكوس وقد استخدمتها السفن البيزنطية ضد المسلمين وكانت هذه النار لا تنطفى بالماء بل تزداد اشتعالا .

كذلك كان من أهم عوامل فشل العرب في هذا الحصار هو ما تتمتع به المدينة من موقع جغرافي حصين وفريد ،وطبيعة التيارات المائية التي تحيط بجهاتها الساحلية علاوة على الطقس السيئ من أمطار وثلوج دائمة لم يتحملها العرب المسلمون وقد فقد في هذا الحصار نحو ثلاثين ألف رجل من قبل الجيش الإسلامي.

ونتيجة لما استنزفة الجيش من خسائر مادية وأرواح كثيرة عمل معارية على الدخول في مفاوضات مع البيزنطيين لسحب قوات الحصار وارسلن الدولة البيزنطية سفيرا لها هو البطريك يوحنا وتم توقيع صلح بين الدولتين لمدة ثلاثين عاما وبهذا انتهى حصار القسطنطينية الثاني وانسحبت الأساطيل العربية من مياة البوسفور وبحر ايجة.

أما في الغرب :

بعد أن حسم الموقف السياسي لصالح معاوية بن ابى سفيان اعيد عمرو بن العاص واليا على مصر وافريقية للمرة الثانية ، فقد عزله الخليفة عثمان بن عفان وولى بدلا عنه أخاه في الرضاعة عبد الله بن ابي السرح .

وكانت هذة الولاية الثانية لعمرو تعتبر مكافأ ة من قبل معاوية لعمرو بن العاص لما أبداه من دهاء وحيلة في سياسة التحكيم بن معاويه و علي.

واستأنف عمرو بن العاص في ولايته الحملات الاستطلاعية ضد قبائل البربر وذلك بفضل قائد آخر الى جانبه هو عقبه بن نافع الفهري

وعدما توفى عمرو بن العاص في ٤٤ هـ تولى ولاية افريقية بعده معاوية بن خديج الكندي وكانت حملته على أفريقية في عام ٤٥هـ إلى المغرب استطاع فيها التصـد ي للبيزنطيين بقيادة نقفور وهاجم معاوية بن حديج منطقة سوسة وبعض المدن في الشمال .

وقد عزل معاوية بن ابي سفيان القائد معاوية بن حديج الكندي عام في عام ٤٨ هـ / ٦٦٩م وعين بدلا عنه عقبة بن نافع الفهري وهو أحد القادة الشغوفين والمقاتلين في سبيل إعلاء كلمة الله في بلاد المغرب منذ صغره وهو يعتبر رائد الحملات المنظمة في المغرب وقد بدأت ولايته ٤٩-٥٠هـ .

واستطاع عقبة بن نافع أن يستولي على كثير من المناطق في المغرب الادنى مثل منطقة غدامس وفزان وكان له أكبر الفضل في نشر الإسلام على ارض المغرب .

كما كان له الفضل في إنشاء عاصمة للمسلمين في إفريقية وهي مدينة القيروان حيث اختار موقعها إلى الجنوب من قرطاجنة وقد استغرق بناء هذه لمدينة أربع سنوات وبنى فيها المسجد الجامع ودار الإمارة فضـلا عن الاسوار ومساكن الجنود ولقد نمت المدينة بسرعة مدهشة بفضل موقعها الجغرافي في منطقة من الاشجار والمراعي ووقوعها على امتداد الخط البري الذي يصـل بينها وبين الفسطاط.

وقد عزل عقبة بن نافع في عام ٥٥ هـ / ٦٧٤م وتولى بدلا عنـه القـائد أبو المهاجر دينار وكان له الفضل في التوغل نحو المغرب الأوسط واحتـلال أكبر مدينة فيه وهي مدينة تلمسان والتصدي لقبائل البربر الكبرى وأولهم قبيلـة أوربـة بقيادة زعيمها كسيلة بن لمزم وإخضاعه كذلك كان أبو المهاجر دينـار مـن أوائـل القواد الذين هاجموا عاصمة البيزنطية على الساحل الأفريقي وهي مدينة قرطاجنـة وحاصرها فترة من الزمن ثم رجع عن حصارها وظل أبو المهاجر مسيطراً علـى

المغربين الأدنى والأوسط طوال فترة حكم معاوية بن أبي سفيان حيث ساد الـــهـدوء فترة ولايته في تلك المناطق.

ولاية العهد ليزيد :

اتبع الأمريون في أمر الخلافة مبدأ الوراثة وقد اتبع معاوية بن أبي سفيان هذا مخالفا سنة الخلفاء الراشدين الذين تولوا الخلافة إما عن طريق الانتخـاب أو العهد أو الشورى فاستطاع أن يورث الخلافة لابنه يزيد كما استطاع أن يحصل علـى موافقة أكثر زعماء الأمصار الإسلامية معتقدا أن هذا بمقدوره أن يجنب الدولة الإسلامية المخاطر التي سوف تنجم عن الاختلافات والانقسامات والحروب .

وقد استخدم معاوية كلأساليب الحيلة والدهاء فتح له أخذ البيعة لابنه مـن بعده من أهل الشام والعراق.

وقد ذهب معاوية إلى المدينة المنورة كي يأخذ البعة لابنه فقابله الحسين بن علي ،وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وعندما عرض عليه الأمـر طلبـوا منه أن يتخير أمرا من أمور ثلاثة سار عليها المسلمون في تولية الخلفاء الراشدين من قبله والرسول الكريم من قبلهم جميعا

فتم تخييره بين ترك الأمر للمسلمين مثلما تركه الرسـول فـاختـار الـناس ابو بكر ولكن معاوية رفض ذلك بدعوىانه لايوجد مثل ابي بكر ، وانه يخشي الاختلاف بين الناس وعادوا فعرضوا عليه ان يفعل كما فعل ابو بكر الصديق عدد عهد إلى رجل من قريش أو يصنع مثلما صنع عمر في أنه قد جعل الأمر شورى بين المسلمين في ستة أشخاص يتخيروا منهم واحدا وليس فيهم أحد من ولده ولا من اقاربه .

ولكن معاوية رفض كل ذلك مهددا الحاضرين بالقتل ودعا قائد حرسه بـان يقوم على كل رجل من الحاضرين رجلين مع كل واحد منهما سيف وإن حـاول أي منهم منأوته يكون جزاؤه القتل بالسيف

وتم أخذ البيعة ليزيد بن معاوية وقد تدخل في إنهاء هذا الأمر لصالح معاوية وابنه يزيد تحمس والي الكوفة المغيرة بن شعبة لتعيين يزيد .

فقد كان المغيرة يخشى ان يعزله معاوية عن ولاية الكوفة، فأراد ان يتقرب اليه بهذة الوسيلة ،فذهب إلى الشام وقابل يزيد بن معاوية وأوضح له أنه من أفضل أبناء قريش وليس هناك ما يمنع امير المؤمنين من أن يعقد له البيعة واستطاع المغيرة أن ينجح في نشر هذة الفكرة .

ولم يبق معارضا لفكرة توريث الخلافة سوى أهل الحجاز ،غير أن معاوية لم يهتم بهذة المعارضة ، وتمت البيعة ليزيد وبذلك انتقلت خلافة المسلمين من خلافة اسلامية إلى ملكية اسلامية وراثية.

وتجدر الإشارة إلى أن أن الأمويين قد ساروا على هذه الخطة وزادوها تعقيدا وتأكيدا بأن جعلوا ورائة الخلافة إلى أكثر من وريث واحد .

غير أنهم كانوا حريصين على الحصول على إجماع المسلمين بأي الطرق سواء بالرغبة أو بالرهبة . لذا فقد احتاج الأمويون دائما إلى تاييد جماعى او حزبى أو قبلي لتثبيت بيعة خلفائهم من بعدهم.

وقبل أن يتوفى معاوية بن أبي سفيان خطب في الناس وخطبته يذكرها ابن خلدون في كتابه العبر ومن نصوص هذه الوصية :

" إنى كزرع مستحصد وقد طالت إمارتي عليكم ، مللتكم ومللتموني وتمنيت فراقكم وتمنيتم فراقي ولن يأتيكم بعدي إلا من أنا خير منه كما أن من كان قبلى خير منى ".

وقد أوصى ولده يزيد قبل وفاته قائلا :

"يا بني إني قد كفيتك الرحلة والترحال ووطأت لك الأمور وأخضعت لك رقاب العرب وجمعت لك ما لم يجمعه أحد ، وإني لا أخاف عليك أن ينازعك هذا الأمر الذي انتسب لك إلا أربعة نفر من قريش : الحسين بن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، فأما ابن عمر فرجل قد وقذته العبادة وإذا لم يبق غيره بايعك ، وأما الحسين فإن أهل العراق لم يدعوه حتى بخرجوه فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه فإن له رحما ما فيه وحق عظيم ، وأما ابن أبي بكر فإن رأى أصحابه صنعوا شيئا صنع مثله وليس له همه

إلا في النساء،وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك روغان الثعلب وإذا أمكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبير فإن هو فعلها بك وقدرت عليه فقطعه إربا إربا ".

ويعتبر معاوية بن أبي سفيان هو أول من اتخذ ديوان الخاتم وكان السبب في ذلك أنه أوصى لاحد الأشخاص بمائه ألف درهم وكتب بذلك إلى والى العراق وقتها زياد بن أبيه ، غير أن هذا الشخص فتح الرسالة وزاد من قيمة هذه الأموال ،و عندما علم معاوية بذلك حبس هذا الشخص والزمه بدفع الأموال واستحدث ديوان الخاتم في لا يستطيع أحد تغيير وتزوير مكاتباته إلى عماله في كافة الأمصار

2-يزيد بن معاوية

(60-63)هـ / ٦٨٠-٦٨٣م)

هو يزيد بن معاوية ويكنى أبو خالد ، ولد في عام ٢٥ هـ ويختلف المؤرخون في سرد صفاته الخلقية فمنهم من وصفه بأنه كان أسمر اللون أجعد الشعر أحور العينين بوجهه أثر من مرض الجدرى ، ومنهم من يصفه بأنه أبيض اللون ذو لحيه حسنة ، وقد كان مثل أبيه في ضخامة البنية ، ونشأ في البادية فكان لهذا تأثيره عليه حيث أصبح فصيحاً ماهراً فى الشعر والأدب علاوة على كرمه(١.(

وقد تولى الخلافة بعد وفاة أبيه معاوية وامتنع عن بيعته : الحسين بن على وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر أما عبد الله بن الزبير ، فقد فر إلى مكة هو والحسين وأخذ يعمل على بث الدعوة لنفسه ولكنه وجد في الحسين بن على منافسا قويا ، فلم يجرؤ على مناوأته على اعتبار أنه أحق بالخلافة منه ، لذلك عمل ابن الزبير على إخراج الحسين من الحجاز حتى تفرغ له

الساحة السياسية لطموحاته لذا كان على يزيد أن يواجه خصمين يتوقان إلى الخلافة هما:

الحسين بن على وعبد الله ابن الزبير

ففيما يخص الحسين بن على : فعندما أرسل إليه أهل الكوفة بكتاب يحثونه فيه على أن يأتى إليهم ليولوه عليهم حيث ذكروا في هذا الكتاب أسماء كل الشيعة الذين حضروا الاجتماع في عام ٦٠هـ ، مما كان من الحسين إلا أن يرسل ابن عمه مسلم بن عقيل إلى الكوفة لكي يقف على حقيقة

الأمور فأرسل مسلم من الكوفة إلى الحسين يستدعيه للقدوم إليها والتف الشيعة حول مسلم ولكن والى الكوفة من قبل الأمويين النعمان بن بشر الأنصاري " لم يقف موقفاً حازما تجاه التفاف الشيعة حول مسلم وعليه عزل يزيد النعمان وعين بدلا عنه عبيد الله بن زياد أمير البصرة وأظهر عبيد الله من الشدة والحزم ما استطاع به أن يقبض على كبار الشيعة بالكوفة وعلى رأسهم مسلم بن عقيل وهكذا قضى ابن زياد على بوادر الفتنة ويروى أبو الفدا صاحب كتاب - المختصر في كتاب البشر - مقتل الحسين بن على فيقول : " ولما سار الحسين مع الحر ورد كتاب من عبيد الله بن زياد

إلى الحر يأمره أن ينزل الحسين ومن معه على غير ماء ، فأنزلهم في الموضع المعروف بكربلاء وذلك يوم الخميس ثاني المحرم من هذه السنة (أي سنة إحدى وستين) ، ولما كان من الغد قدم من الكوفة عمر بن سعد بن أبي وقاص بأربعة آلاف فارس أرسله ابن زياد لحرب الحسين ، فسأله الحسين في أن يمكن إما من العود من حيث أتى وإما أن يجهز إلى يزيد بن معاوية وإما أن يلحق بالثغور ، فكتب عمر إلى ابن زياد يسأل أن يجاب

وقد ساعدت الظروف في مقتل الحسين بن على فقد قامت الخلافة باستعدادات للتصدى لخطر الحسين فقد قام ابن زياد والي الكوفة والبصرة بمراقبة الطرق المؤدية بين الحجاز والكوفة وجهز قوة قوامها ألف فارس ولما اقترب الحسين بن على من الكوفة منع
من دخولها وقد طلب قائد القوة الأموية ابن يزيد التميمى من الحسين أن يرجع عن الكوفة ، وعندما أراد الحسين الرجوع إلى الحجاز والذهاب إلى الخليفة الأموي بدمشق منعه قائد القوة الأموية التي تولاها بعد ابن يزيد التميمي وهو عمر بن سعد بن أبي وقاص ، كما أن أخوة مسلم بن عقيل صمموا على أخذ ثأر أخيهم فاستجاب الحسين لمطلبهم ونشب القتال في ١٠ محرم ٦١هـ في كربلاء. وقد اختلف في موضع قبر الحسين فقيل أنه جهز إلى المدينة
المنورة ودفن عند أمه - فاطمة - وقيل أن خلفاء مصر نقلوا رأسه من عسقلان إلى القاهرة ودفنوها به وبنوا عليها مشهدا يعرف بالمشهد الحسيني ، وقد اختلف في عمره حين وفاته وأرجح الروايات تذكر أنه قتل وعمره خمس وخمسون عاما وقد بلغ من التقوى والورع - حسبما تروى الروايات التاريخية - بأنه حج خمساً وعشرين حجة ماشياً على قدميه وكان يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة .

وقد أحدث مقتل الحسين صدعاً في قلب الدولة الإسلامية كما أدت إلى ازدياد انتشار المذهب الشيعي وخاصة بين الفرس.

وبقى عبد الله بن الزبير : بعدما قتل الحسين بن على رأي عبد الله بن الزبير أنه أحق الناس بالخلافة واستطاع أن يجمع حوله كثير من المناصرين لـه وحاول يزيد بن معاوية أن ينهي الأمر بالصلح ولكـن ابـن
رفض ذلك

غير أن الأحوال في المدينة المنورة قد ساءت حيث ثار أهلـها وخلعوا طاعة الخليفة الأموى وطردوا عامله عليها وولوا عليهم عبد الله بن حنظلة
عندها أمر الخليفة الأموى بتوجيه جيش إلى المدينة بقيـادة مسلم بن عقبة المرى وعندما وصل الجيـش إلـى وادى الحـرة - الواقع شمال المدينة المنورة - خرج أهل المدينة إليه ودارت معركـة الحرة التي انتهت بهزيمة أهل المدينة وقتل عدد كبير منهم حيث قتل في هذه الموقعة ألف وسبعمائة من قريش والأنصار والمهاجرين من بينهم ثمانين من صحابة الرسول ﷺ
كما قتل عشرة آلاف من سائر الناس من الموالـى والـعرب
سوى النساء والصبيان - يجعلهم البلاذرى ستة آلاف وخمسمائة - وبعد هذه الهزيمة استباح جيش مسلم بن عقبة المدينة ثلاثـة أيـام وأسرف هو وجنده في السلب والنهب والاعتداء على أهلها .

وهكذا انتهت خلافة يزيد بن معاوية الذي قضى أيام حكمه في القضاء على المعارضة التي اصطدم بـها ، تلـك المعارضـة التـى انصبت على شخص يزيد الذي تولى بموجبه خلافة المسلمين وهـو مبدأ الوراثة الذي لم يقبله المسلمون . وقد أجمل البـــلاذرى فـترة خلافة يزيد بن معاوية وما كان يتسم به من صفات وما ابتـدع فـي عهده وما جرى في أيامه من أحداث سياسية واجتماعية فيما نصه : " كان يزيد بـن معاويـة أول مـن أظـهر شـرب الشـراب والاستهتار بالغناء والصيد واتخاذ القيـان والغلمـان والتفكـه بمـا يضحك منه المترفون من القرود والمعاقرة بالكلاب والديكة ثم جـرى على يده قتل الحسين وقتل أهل الحرة ورمى البيت وإحراقه" .

٣-معاوية الثاني (٦٣هـ / ٦٨٠م)

تولى معاوية الثاني الخلافة بعد أبيه يزيد وكان صبياً ضعيفاً ولم تزد مدة خلافته على أربعين يوماً وتذكر روايات تاريخية أخرى أنها دامت حوالي ثلاثة أشهر وقد تنازل عن الخلافة وترك الأمر في اختيار من يخلفه شورى للناس ، وقد اعتزل الناس بالمكوث في بيته

ومات بعد أيام وقيل أنه مات مسموماً وقيل أنه مات بالطاعون وباعتزال معاوية الثاني وتنازله عن الخلافة ، اضطرب أمر بني أمية ولكنهم استطاعوا أن يسيطروا على الموقف وعقدوا إجتماعاً في الجابية في عام ٦٤ هـ بايعوا فيه مروان بن الحكم بالخلافة وجعلوا ولاية الحكم من بعده لخالد بن يزيد ثم لعمرو بن سعيد على أنه بنهاية عهد معاوية الثاني ينتهى حكم الفرع السفياني لينتقل كما سنرى إلى الفرع المرواني حتى زوال ملك بنى أمية ، فكيف انتقل الحكم لمروان بن الحكم وبنيه من بعده ؟ وكيف استطاع مروان بن الحكم أن يمسك بزمام الأمور لئلا تنقلت من سيطرة بنى أمية حتى استمر الحكم في بني أمية رغم اختلاف الأسرة التي تولت الخلافة بعد تنازل معاوية الثاني ، وما هي مجهودات الفرع المرواني على الجبهتين الداخلية والخارجية ؟

٤-مروان بن الحكم

(٦٥-٦٤ هـ/ ٦٨٤- ٦٨٥ م)

التعريف بمروان

هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي، أبو عبد الملك ولد في حياة النبي ﷺ، وكان ابن ثماني سنوات حين توفي الرسول.

عمل مروان كاتباً لابن عمه عثمان بن عفان وكان صاحب سره وحمله الناقمون على عثمان مسؤولية ما زعموا أنها أخطاء وقعت من الخليفة ، كما اتهموه بأنه هو الذي كتب الكتاب الذي زعم الثوار المصريون أنهم وجدوه مع غلام عثمان . لكن مروان أنكر علمه بالكتاب كما أنكر عثمان نفسه ذلك (٨) وقاتل مروان في الدار أثناء حصار عثمان ، ثم انضم إلى عائشة وطلحة والزبير

وحارب معهم يوم الجمل وأمنه علي بعد ذلك ، فبايعه مروان وعاد إلى المدينة يحضر صفين مع معاوية ورغم ذلك فقد ولاه المدينة بعد أن أضحى خليفة .

***الأحداث السياسية في عهد مروان**

١ـ مؤتمر الجابية (٦٤ هـ/ ٦٨٤ م)

اجتمع بنو أمية في دمشق في ظل انقسام العالم الإسلامي لإنقاذ خلافتهم المهددة بالسقوط، وكانوا أسرى القوى القبلية المتنافسة والمتصارعة سياسياً وعسكريا التي تعاظم نفوذها ، مع انهيار الحكم المركزي وتفرق الأسرة الحاكمة

فالحزب اليمني بقبيلكه كلب النافذة في البلاط الأموي، وهي عصب الدولة وقوتها بزعامة حسان بن مالك كان متشدداً في الحفاظ على امتيازاته، فقد تمسك بالأمويين، وخشي مناصروه من انتقال الخلافة إلى الحجار بين بعد أن ظلت في الشام منذ أن نقلها معاوية إليها

أما الحزب القيسي الذي استاء من محاربة يزيد لأهل المدينة "، وقد وصل مع زعيمه الضحاك بن قيس الفهري إلى مكانة كانت شافي الحرب اليمني ومنحته الأحداث السياسية، بعد وفاة معاوية الثاني، مركزاً متقدماً من خلال منصبه ؟ ، كأمير البلاد الشام، حيث أنبح له أن يملأ الفراغ بصورة غير رسمية وفي الوقت نفسه، وجد

بالا مويين، وحشي مناصروه من انتقال الخلافة إلى الحجازيين بعد ان ظلت الشام منذ أن نقلها معاوية إليها .

أما الحزب القيسي الذي استاء من محاربة يزيد لأهل المدينة، وقد وصل مع زعيمه الضحاك بن قيس الفهري إلى مكانة كادت تنافس الحزب اليمني. ومنحته الأحداث السياسية، بعد وفاة معاوية

الثاني، مركزاً متقدماً من خلال منصبه كأمير لبلاد الشام، حيث أتيح له أن يملأ الفراغ بصورة غير رسمية وفي الوقت نفسه، وجد القيسيون في ظل تضعضع الأسرة الأموية ، في الزبير لهم فرصة أخرى تمكنهم من التغلب على الكلبيين وانتزاع مواقع القوة من أيديهم ، وهي المواقع التي اكتسبوها من تحالفهم مع معاوية ، فأعلن الضحاك ولاءه لابن الزبير الذي عينه ممثلاً له في بلاد الشام . وتفرقت كلمة الأمويين وتنافسوا على منصب الخلافة، فتوزعت ولاءاتهم بين

ثلاثة مرشحين :

فقد أيد حسان بن مالك ، خالد بن يزيد بن معاوية ومال بعض القادة) إلى مروان بن الحكم. وساند فريق ثالث عمرو بن سعيد بن العاص . وأخيراً اتفقت عدول بني أمية على عقد مؤتمر في الجابية ليتداولوا فيمن يولونه الخلافة، ترأسه حسان بن مالك وكان مروان الأوفر حظاً نظراً لشيخوخته وتجربته حيث اعتبر مؤهلا للحكم في ظروف استثنائية وانتهى المؤتمر لمصلحة هذا الأخير حيث اختير خليفة بإجماع الحاضرين وخرج الكلبيون ممن أيدوا خالد بن يزيد بترضبة حيث اختير مرشحهم ولياً للعهد، على أن تكون الخلافة من بعده لعمرو بن سعيد وبذلك انتقل الملك من الفرع السفياني إلى الفرح المرواني، واتحدت كلمة اليمنيين، ونجح التحالف الأموي - اليمني في إعادة توحيد الموقف السياسي من مشكلة الحكم

ب - معركة مرج راهط

كان اختيار مروان بن الحكم خليفة خطرة موفقة من وجهة النظر الأموية لكن ما زالت تعترضه صعوبة تذليل عقدة القيسيين. فقد اسناء الضحاك بن قيس من خروج الأمر من يد ابن الزبير، فعادر دمشق إلى مرح راهط ، إلى الشرق منها، وعسكر هناك وانضم إليه النعمان بشير والي حمص

وزفر الحارث أمير قسرين. وكان واضحاً أنهم يستعدون للحرب فكان على مروان أن يثبت أنه أهل لحمل عب

المسؤولية والدفاع عن الخلافة وهكذا توضحت المواجهة بين الطرفين، وأسفر الصراع عن وجهه القبلي وظهرت بوادر حرب أهلية

وحقق مروان أول نجاح سياسي له عندما استولى على دمشق وطرد عامل الضحاك منها، ثم عبا أنصاره وخرج إلى مرج راهط لمواجهة جموع القيسيين" ، وجرت بين الطرفين مفاوضات بهدف تسوية الموقف صلحاً استمرت عشرين يوماً، وصلت خلالها أنباء استيلاء المروانيين على دمشق وإخراج عامل الضحاك منها وإعلان خلافة مروان فيها، فتوقفت المفاوضات .

وأخيراً كان المواجهة لتقرير المصير . وفي الموقعة الشهيرة التي جرت بين الطرفين في (شهر ذي القعدة عام ٦٤ هـ/ شهر حزيران عام ٦٨٤ م) تم تدمير قوة القيسيين الذين انهزموا أمام اليمنيين، وقتل الضحاك في المعر مع عدد كبير من أشراف فيس في الشام وهرب زفر بن الحارث الكلابي بعد المعركة إلى قرقيسياء وغلب عليها وتحضن بها، فلما . خيل مروان، عداد فر النعمان بشير إلى حمص فتبعه جماعة من أهلها فقتلوه، وفر نائل بن قيس من فلسطين واستتب الأمر لمروان في الشام وفلسطين . بالعراق. كما

جـ ـ نتائج معركة مرج راهط كان لمعركة مرج راهط ، التي انتصرت فيها العصبية اليمنية على القيسية، آثار خطيرة في تجديد العداء التقليدي بين العصبيتين، وإشعال نار الفتنة، في سائر أنحاء العالم الإسلامي، فقامت الحرب بين اليمنية والقيسية في مناطق عديدة من الدولة الإسلامية

استخلص مروان الشام كلها وبسط نفوذه عليها ، كما خضعت له فلسفين . وكانت خطوته الثانية مصر ععل أهميتها الكبيرة إذا عليها سيدعم موقفه في مواجهة ابن الزبير، والمعروف أن معظم

المصرين كان هواه. بني أمية وأن بيعتهم لابن الزبير لم تكن ثابتة ، لذلك لم يجد مروان صعوبة في الاستيلاء عليها بعد تعله على واليها من قبل ابن الزبير، عبد الرحمن بن جحدم في(شهر جمادى الآخرة عام ٦٥ هـ/ شهر كانون الثاني عام ٦٨٥ م) .

وبعد أن أقام فيها مدة شهرين رئب خلالها أوضاعها الإدارية وعين ابنه عبد العزيز واليا عليها عاد مروان بن الحكم إلى الشام ليواجه خطر ابن الزبير حيث أعد جيشين سير أحدهما إلى الحجاز بقيادة حبيش بن دلجة ، والآخر إلى الجزيرة بقيادة عبيد الله بن زياد لمحارية زفر بن الحارث بقرقيسياء، فإذا فرغ من الجزيرة توجه إلى العراق للسيطرة عليها" .

ويبدو أن جيش الحجاز فشل في دخول المدينة، واستطاع الزبيريون القضاء عليه، أما ابن زياد فقد تحرك باتجاه الجزيرة ووافته فيها أنباء نعي مروان . وهكذا عاجلت المنية مروان بن الحكم في مستهل (شهر رمضان عام ٦٥ هـ/ شهر نيسان عام ٦٨٥ م) دون أن يحقق هدفه بإعادة الحجاز والعراق إلى الحكم الأموي، وكان قد عهد بالخلافة لابنيه عبد الملك وعبد العزيز بعد أن أقنع الكلبيين ممن ساندوا خالد بن يزيد بعدم قدرته على التصدي لابن الزبير، واعتبر ما تم في الجابية من العهد لخالد بن يزيد بعد مروان ومن بعده لعمرو بن سعيد، اعتبر هذا أمر ضرورة، وقد زالت الضرورة الآن.

ه - عبد الملك بن مروان

(٦٥-٨٦هـ / ٦٨٥-٧٠٥م)

تولى عبد الملك الخلافة في عام ٦٥هـ / ٦٨٥م والأمور لا تزال مضطربة في كثير من أنحاء الدولة الإسلامية ، فقد كان ابن الزبير يتحكم في كل من الحجاز والعراق كما ثار المختار بن

أبـى عبيد الثقفي في الكوفة كما أن أهل دمشق بايعوا عمرو بـن سـعيد الاشدق ولكننا في الصفحات التالية سوف نجد أن عبـد الملـك قـد استطاع أن يجابه كل هذه الثورات والاضطرابات الداخلية علاوة على أنه كان من الخلفاء الأمويين القلائل الذيـن توسـعت فـى عـهدهم مساحة الدولة العربية الإسلامية مما جعله يؤسس دولة ثابتـة مـن جديد بعد أن تحول الحكم من الفرع السفياني إلى الفرع المرواني .

وابن سعد صاحب كتاب الطبقات يعرفنا على عبد الملـك بـن مروان ، فقد ولد في المدينة المنورة عام ٢٦ هـ في خلافة عثمـان بن عفان (٢٣-٣٥هـ) وكانت كنيته أبو الوليد كمـا كـان يكنـى برشح الحجر لبخله الشديد

وقد تولى المدينة المنورة في خلافة معاوية بن أبـى سـفيان (٤١-٦٠هـ) وكان عمره آنذاك ستة عشر عاماً ، ، وقد اتصف عبد الملك بالتدين الشديد ، حيث حفظ القرآن الكريم عن عثمان بن عفان وسمع الحديث النبوى عن أبي هريرة حتى غد من فقـهاء المدينـة حمامة المسجد لمداومته على تلاوة القرآن. وقد عاش عبد الملك في المدينة المنورة حتى ثار أهلها علـى يزيد بن معاوية وأخرجوا من بها مـن بنـى أميـة ، ولكنـه عـاد للاستقرار في المدينة مع أهله وعشيرته بعد انتصار جيش يزيد بـن معاوية على أهل المدينة في موقعة الحرة.

وقد واجهت الخليفة عبد الملـك بـن مـروان العديـد مـن الصعوبات ممثلة في عدة فتن وثورات في مناطق كثيرة من الدولـة الإسلامية أهمها :

١- ثورة المختار بن أبي عبيد الثقفي:

بعد وفاة يزيد بن معاوية ظهرت دعوة في الكوفة تدعو للأخذ بثأر الحسين ابن على من قاتليه ، وقد نادى بهذه الدعوة التوابون بقيادة سليمان بن صرد وكان عددهم أربعة آلاف شيعي ، وقد التقى التوابون بالجيش الأموى بقيادة عبيد الله بن زياد عند عين الوردة في عام ٦٥هـ . وقد انتهت المعركة بهزيمة الشيعة ومقتل زعيمهم سليمان بن صرد وفر المنهزمون إلى بلادهم .

سليمان بن صرد :

سليمان صرد الجون أبي الجون بن عمرو ويكنى مطرف أسلم وصحب الرسول وكان يسار فلما أسلم سماه الرسول ﷺ سليمان وكانت له سن وشرف قومه فلما مات الرسول الكوفة مع على أبي طالب وصفين وكان فيمن كتب إلى الحسين يأتي للكوفة فلما قدمها لم يشترك في القتال معه فقد كثير والوقوف ، فلما الحسين ندم هو وجميع من يقاتل فقالوا ما المخرج والتوبة مما صنعنا ؟

فخرجوا فعسكروا بمكان يطلق عليه اسم النخيلة في ربيع الآخر سنة هـ وولوا أمرهم سليمان صرد الخروج على الشام للثأر قتله الحسين ولذلك سموا بالتوابين وكان اربعة آلاف فخرجوا حتى وصلوا عين الوردة بناحية قرقيسياء فلقيهم أهل الشام – الأمويين - وهم فى ألف مقاتل زعامة الحصين نمير وقد يزيد بن عامة أصحابه وحملت على مروان بن سليمان حين يبلغ العمر ثلاث وتسعون عاماً).

وبعد اندحار وهزيمة التوابين خرج المختار بن أبي عبيد الثقفي و هو أحد قواد الجيش الإسلامي في العراق زمن خلافة عمر بن الخطاب وكان يتوق إلى السلطة وقد حاول الانضمام إلى الحسين بن على بعد تخليه عن الخلافة لمعاوية، وبعد مقتل الحسين في مذبحة كربلاء حاول الانضمام إلى عبد الله بن الزبير ، ولكن المختار تركه عندما لم يجد لديه ما يرجوه من إرضاء لطموحاته

السياسية وقد وضعه والى الكوفة فى السجن وعندما أطلق سراحه استمال كثيراً من أهل الكوفة والعجم وكون جيشاً من العرب والموالي وقاد ثورة ضد والى الكوفة عبيد الله بن زياد فاستطاع أن يسيطر على الكوفة وقتل عدداً كبيراً من أهلها من الذين شاركوا في قتل الحسين بن على . كما أرسل جيشاً بقيادة إبراهيم بن الأشتر لملاقاة الجيش الأموى بقيادة عبيدالله بن زياد

وقد التقى الطرفان عند نهر الخازر أحد فروع نهر دجلة وكانت الهزيمة من نصيب الجيش الأموى حيث قتل ابن زياد وكثير من أشراف أهل الشام ، ولكن الهزيمة التي مني بها الأمويين لم تحل دون سقوط المختار ودعوته ، خاصة وأن محمد بن الحنفية بن على بن على بن ابى طالب وعبد الله بن الزبير اللذين طالما زعم المختار أنه من أنصارهما وأتباعهما قد تخلوا عنه

فقد عمل أهل الكوفة خاصة عندما قتل المختار عدداً كبيراً منهم وبعد أن ساوى في العطاء بين العرب والعجم على الاتصال بأمير البصرة وقتذاك : مصعب بن الزبير – أخو عبد الله - وطلبوا منه أن يتصدى للمختار الثقفي ، وبالفعل وقعت بينهما معركة كبيرة بالقرب من الكوفة سنة ٦٧هـ انتهت بهزيمة المختار ومقتله هو وحوالي سبعة آلاف من أتباعه وهكذا انتهت حياة ذلك المغامر الذي أراد أن يصل إلى ما وصل إليه أقرانه في السلطة مثل عبد الله بن الزبير وعبد الملك وعبد الملك بن مراون وغيرهم واتخذ الثأر من قتلة الحسين بن على مستغلاً وفاء أهل الكوفة وحبهم لآل البيت وبذلك تخلص الخليفة من المختار بصورة غير مباشرة.

٣ – فتنة عمرو بن سعيد الأشدق :

عمرو بن سعيد الأشدق هو أحد زعماء البيت الأموى وكان له دور مهم في إبقاء الخلافة في البيت الأموى ، وهو عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية وكان أبوه سعيد والياً لعثمان بن عفان

علـى الكوفة وقد أخرجه أهل الكوفة فعزله عثمان عنها وقد نشـأ عمـرو مثل أبيه كريماً شجاعاً وقد تلقب بالأشدق لميل في شدقه أو لفصاحته اللغوية ، وكان يكنى أبا أمية وأمه أم البنين بنت الحكم بـن أبـى العاص وهي أخت مروان وعمة عبد الملك بن مروان. وقد ولاه الخليفة الأموى يزيد بن معاوية على المدينة المنورة

فقتل الحسين ابن على وهو على المدينة فبعث إليه برأس الحسـين ،فكفنه ودفنه بالبقيع إلى جوار قبر أمه فاطمة وقد عزل عـن ولايـة المدينة لعدم إخلاصه ، وقد كان له دور مهم في نجاح مـروان بـن الحكم في الوصول إلى الخلافة ، فقد أيد عبيد الله بن زياد الذي أشار على مروان بطلب الخلافة لنفسه والعدول عن مبايعة عبـد الله بـن الزبير ، كما كان على ميمنة مروان بن الحكم في معركة مرج راهـط ، كذلك قام عمرو باسترجاع فلسطين التي استولى عليه نـــــاتـل بـن قيس المؤيد لعبد الله بن الزبير لذا كان أحب الناس إلى أهل الشام. كان عمرو يتوق للخلافة مكافأة له على الجهود التـى بذلـها والتي اعترف بها مروان بن الحكم وأن الأمويين وأنصارهم كانوا قد اتفقوا على أن يتولى مروان ثم يتولى بعده خالد بن يزيد بن معاوية، وبعد خالد يتولى عمرو الأشدق الخلافة ، إلا أن مروان بـن الحكم نقض هذا العهد بعد أن سيطر على الموقـف السياسـى ، ، وأوصـى بالخلافة من بعده لابنيه عبد الملك وعبد العزيز . ، وانقسم أهل الشام تبعا لذلك إلى فريقين: عبد فريق مع عبد الملك وفريق مع عمرو الأشدق

وعندما تولى عبد الملك الخلافة لم يلق اعتراضا من خالد بـن يزيد لانشغاله عن أمور الخلافة والسياسة إلـى الاهتمـام بـالعلوم وخاصة علم الكيمياء ، ولكن عمرو الأشدق أعلن معارضته لخلافـة عبد الملك

غير أن بني أمية تدخلوا للصلح بين الطرفين حتى لا تضيع دولتهم ، فتم الانتهاء من هذا الصلح على أن يكون الرجلان شريكين في الملك وأن يكون لكل منهما مجال من المجالات السياسية يتولاها ويختص بها ولكن الخلافة تكون باسم عبد الملك فإن مات فالخلافة من بعده لعمرو الأشدق.

واستمر هذا الحال مدة خمس سنوات وفي سنة ٧٠هـ ، شعر عمرو بتغيير نوايا عبد الملك وسوء نيته ، فانتهز عمرو فرصة خروج عبد الملك من دمشق لمحاربة مصعب بن الزبير وطلب منه أن يجعل له العهد من بعده كما فعل أبوه ، ولكن عبد الملك لم يجب طلبه فرجع عمرو الأشدق إلى دمشق وتحصن بها ، فرجع عبد الملك إلى دمشق واستطاع عمرو بدخوله دمشق مؤكداً ولايته الخلافة من بعده استجابة لمطلبه وتنفيذا لوعود الأمويين له

ولم يستمر الوقت كثيراً على هذا الموقف ، فقد طلب عبد الملك من أخيه عبد العزيز أن يقتل عمرو ولكن عمرو ذكر عبد العزيز بصلة الرحم بينهما فلم يقتله – كان عمرو ابن عمه عبد الملك – ولكن عبد الملك قرر أن يقتله بنفسه وتم له ذلك ، وعندما افتقد الناس عمرو وسألوا عنه حاول أخاه ي يحيى أن ينقض على قصر الخلافة هو وأصحابه وعبيده ولكن عبد الملك استطاع تفريقهم مدعياً السبب في مقتله وقائلاً لأبناء عمرو الأشدق : " أبوكم خيرني بين أن يقتلني أو أقتله واخترت قتله على قتلتى".

وهكذا تخلص عبد الملك من منافس خطير مهدداً كل من يفكر في الخروج عن طاعته من أهل بيته بأن تكون نهايته مثل نهاية عمرو بن سعيد الأشدق

٤ - القضاء على آل الزبير :- (مصعب بن الزبير - عبد الله بن الزبير)

نجح عبد الملك بن مروان في القضاء على الفتن والثورات السابقة ولم يبق إلا آل الزبير : عبد الله في الحجاز ومصعب في العراق ، وقد عمل عبد الملك على التخلص من مصعب أولا

لأهميـة العراق حيث أنه مفتاح الشرق ، فسار نحو العراق بنفسه حيث أتتـه الرسائل من أشراف العراق يدعونه للقدوم ، والتقـى عبـد الملـك ومصعب في أرض مسكن قرب الأنبار وغدر أهل العـراق بمصعـب فانحازوا إلى عبدالملك وبقي مصعب في مكة من الرجـال - يعدهـم ابن خلدون في سبعة أشخاص فقط – وحاول عبد الملك أن يعطى أي ولاية لمصعب في مقابل أن يتوقف عن الثورة ضده وأن يترك أخـاه عبد الله غير أنه رفض ذلك

وانتهى الأمر بمقتل مصعب حيث قطع رأسه عبيد الله بن زياد بن ظبيان زعيم أهل العراق وجيئ برأسه إلى عبد الملك الذي أمـر بدفنه هو وابنه عيسى بدار الجاثليق عند نهر دجيل وذلك فـى عـام ٧١هـ

وتورد المصادر التاريخية ما ذكره عبد الملك لجلسـائـه عنـد مقتل مصعب بن الزبير حيث قال فيما نصه :

" من أشجع الناس ؟ فلم يعرفوا فقال : أشجع الناس مصعـب بن الزبير ، جمع بين عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين ، وأمة الحميد بنت عبد الله بن عاصم ، وولى العراقين (الكوفة والبصـرة) ثم زحف إلى الحرب ، فبذلت له الأمان والحباء والولاية والعفو عمـا خلص في يده فأبي قبول ذلك واطرح كل ما كان مشغوفاً به من مالـه وأهله وراء ظهره وأقبل بسيفه يقاتل وما بقى معه إلا سبعة نفـر حتى قتل كريماً ".

وبذلك خضع العراق لعبد الملك وأرسل الحجاج بـن يـوسـف الثقفي لمحاربة عبد الله بن الزبير في مكة ثم رجع إلى دمشق ولم يتبق غير عبد الله بن الزبير الذي استقل ببلاد الحجـاز ، وقد حاول الخليفة الأموى منذ تولية الخلافة أن يرسل قـوات إلـى المدينة على فترات متقاربة يتزعمها أحد القواد فقـد أرسـل قـوة قوامها ستة آلاف من أهل الشام بزعامة عروة بن أنيف وأمـره ألا يدخل المدينة

وأن يعسكر خارجها ، وقد نجح عروة فى أن يطرد عامل ابن الزبير على المدينة ، ثم أرسل عبد الملك قائداً آخر هوعبد الملك بن الحرث بن الحكم في قوة قوامها أربعة آلاف فنزل وادي القرى(وهو واد بين المدينة والشام من أعمال المدينة ويتميز بكثرة القرى فيها) ونشب النزاع بينهم وبين قوات عبد الله بن الزبير ، ثم أرسل عبد الملك بعدها قوة بزعامة طارق بن عمر وأمره أن ينزل بين أيلة ووادي القرى وأن يحاول الانتشار في المنطقة مثلما يفعل عبد الله بن الزبير وعماله.

وعندما قتل عبد الملك مصعب ودخل الكوفة أرسل منها الحجاج بن يوسف الثقفي في ثلاثة آلاف من أهل الشام لقتال ابن الزبير وكتب بالأمان لابن الزبير ومن معه أطاعوه ، وكان سر الحجاج إلى الحجاز في عام ٧٢هـ ، ولم يتعرض الحجاج للمدينة المنورة وقد نزل بجيشه بالطائف وكان الحجاج يرسل فرسانه بالخيول إلى عرفه ليتقاتلوا مع فرسان ابن الزبير ودائماً ما كان يعود فرسان الحجاج بالنصر ، وبذلك كتب الحجاج إلى الخليفة الأموى يخبره بضعف ابن الزبير وتفرق أصحابه ويستأذنه في دخول الحرم لحصار ابن الزبير فأرسل عبد الملك إلى طارق ابن عمر يأمره بأن يلحق بالحجاج الذي سار إلى مكة في قوة قوامها خمسة آلاف وضرب الحجاج الحصار حول مكة وضربها بالمنجنيق حتى تصدعت جدرانها ، وغلت الأسعار في مكة وأصاب أهلها مجاعة شديدة وعندما أجهد الحصار مناصري عبد الله بن الزبير أرسل إليهم عبد الملك ابن مروان ثم أمر بكنس المسجد من الحجارة التى رميت من المجانيق وأن يكنس من آثار الدم الناتج عن القتال ثم هدم - الحجاج – بناء الكعبة الذي بناه ابن الزبير وأخرج الحجـ وأعاده إلى البناء الذي أقره الرسول ﷺ - منه

الحجاج بالأمان فخرج إليه منهم نحو عشرة آلاف وكان من الخارجين على طاعة ابن الزبير وابنيه حمزة وحبيب في حين فضل ابنه الزبير الإقامة معه وظل عبد الله يقاتل حتى خر صريحا وكان

مقتله وصلبه سنة ٧٣هـ ، وأرسلت رأسه إلى عبد الملك وقد انتهت بذلك خلافة عبد الله بن الزبير بعد أن قضى بالحجاز عشر ســـــنوات وكان عمره حين مقتله ثلاث وسبعون عاماً. وعندما تخلص الحجاج من ابن الزبير دخل مكة فبايع أهلـها

وقد خطب عبد الملك في مكة بعد مصرع ابن الزبير :

" أما بعد .... فإنه كان من قبلى الخلفاء يأكلون من المـال ويوكلون ، وإني والله لا أداوى هذه الأمة إلا بالسيف ولست بالخليفة المستضعف (عثمان) ولا الخليفة المداهن (معاويـة) ولا الخليفـة المأفون (يزيد) . أيها الناس إنا نحتمل منكم كل الغرمة مالم يكن عقد رأية أو وثوب على منبر هذا عمرو بن سعيد حقته حق قرابته وابنـه قال برأسه هكذا فقلنا بسيفنا هكذا ... وقد أعطيت الله عـهداً أن لا أضعها في رأس أحد إلا أخرجها الصعداء فليبلغ الشاهد الغائب ".

وعندما دخل الحجاج المدينة قام بأعمال يستهدف من ورائـها الحط من شأن أشرافها فمن بين هذه الأعمال أنه قـام بختـم أيـدى جماعة من الصحابة بالرصاص استخفافاً كما كان يفعـل بـأهل الذمة بدعوى أنهم قتلة عثمان بن عفـان ومـن هـؤلاء الصحابـة وأبنائهم : جابر بن عبد الله ، وأنس بن مالك وسهل بن سعد وقد تجمعت العديد من الأسباب لهزيمة وسقوط عبد الله بـن الزبير منها أنه اتخذ الحجاز مقراً له بعد ما فقـد الحجـاز مكانتـه السياسية والعسكرية خاصة بعد ما انتقلـت القـوى العربيـة إلـى الأمصـار الإسلامية المختلفة ، كذلك ضعف دعاية عبد الله في البلدان الإسلامية في مقابل الدعاية القوية للأمويين ، علاوة على ذلك انشغل عبد الله بن الزبير بالصراع والقتال على أكثر من جبهة وأكثر مـن خصم : الأمويون والخوارج والمختار الثقفى مما كان له أكبر الأثـر في إضعاف قوته

وقد كان السبب المباشر في هزيمة ابـن الزبـيـر هـو ذلـك لحصار الطويل الذي فرضه الحجاج على مكة والذي استمر نحـو ستة أشهر فلم تعد المؤن والغذاء يكفى أهلها .

كانت رغبة عبد الملك بن مروان أن يجعل ابنه الوليد وليا للعهد بدلا من أخيه عبد العزيز وقد ساعدت الظروف والأقدار في ذلك حيث توفى عبد العزيز بن مروان في حياة أخيه عبد الملك وبذلك تمكن عبد الملك من أخذ البيعة لابنه الوليد.

وقد عمل الوليد على توسيع رقعة الدولة العربية فسارت الجيوش في اتجاهاتها السابقة فى الشرق والغرب وضرب الامبراطورية البيزنطية التي كانت دوما تستغل الفرص لتهديد الدولة العربية .

وعليه تم في عهد الوليد عدة فتوحات حيث تم فتح إقليم ما وراء النهر وحوض نهر السند واستكمال الفتوحات واستقرارها فى شمال إفريقية علاوة على فتح الأندلس أضف إلى ذلك ما يمتز به

عصر الوليد من نهضة معمارية فقد بنى مسجد دمشق ومسجد لمدينة . لذا فإن عهد الوليد يتسم بحركة فتوحات واسعة في شتى لاتجاهات ونهضة عمرانية واضحة تميز عصر عن العصور سابقة.

- الفتوحات الإسلامية فى عصر الوليد بن عبد الملك :

- فتح بلاد الترك :

تولى قتيبة بن مسلم الباهلي بلاد خراسان في عام ٨٦هـ - ويطلق عليه ابن خلدون لقب فحل الدولة الأموية في حين يطلق على الحجاج لقب فرعون الدولة الأموية - وقد اتخذ قتيبة مدينة مرو عاصمة خراسان مركزا له وبدأ في تثبيت الحكم العربي في المناطق الواقعة شرق نهر جيجون والتي

كانت قد خضعت للمسلمين ولكنها اشتغلت فترة انشغال الدولة بالفتن الداخلية فثارت وخلعت عنها سلطان المسلمين

وصل قتيبة إلى " بلخ " واحتلها عام ٨٦هـ ثم قام بغزو ليكند في إقليم بخاري في عام ٨٧هـ ويذكر ابن خلدون أنه عند غزو هذه المدينة استنجد أهلها بالصغد وبمن حولهم من الترك وساروا إليه في جموع عظيمة ولكن قتيبة استطاع هزيمتهم وقتل عدداً كبيراً منهم وأسر كثير وأراد أن يهدم سور المدينة عندها طلب الترك الصلح فاستجاب لمطلبهم غير أنهم عادوا لقتال المسلمين فرجع إليهم قتيبة وهدم سورهم وقتل وسبي كثير من أهلها واستطاع أن يجمع الكثير

من الغنائم . وفي سنة ٨٦هـ غزا بلدة نو مكثت ورامسة.

وفي عام ٨٩ غزا قتيبة بن مسلم بخارى ولم يكتب له النصر ولكن الحجاج الثقفي أرسل إليه في العام التالي يونجه على رجوعه من بخاري فعاد إليها وقام بمحاصرتها فطلب ملكها - وردان أخذاه المدد من الصغد والترك حوله وكان الجيش الإسلامي في فتح بخارى يتكون من عدة قبائل عربية هي الأزد وبنو تميم واستطاع قتيبة الاستيلاء على بخارى بعد عناء شديد ، وواصل الفتح العربي حتى مدينة سمرقند وبلاد الشاش وفرغانة حتى بلاد خوارزم وفى عام ٩٥ هـ استولى على خوقند وكشغر.

- فتح السند :

كان الحجاج قد ولى على ثغر السند ابن عمه محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل وجهز معه ستة آلاف مقاتل ونزل مكران فأقام بها عدة أيام ثم أتى فيريوز وقام بفتحها ثم سار إلى إقليم الدبيل فحاصره وقد فتحت المدينة عنوة ونزل بها نحو أربعة آلاف من المسلمين وبنى بها مسجد

جامع واستكمل فتوحاته بعد ذلك حيث سار إلى مدينة النيروز وكان أهلها قد أرسلوا للحجاج بالصلح وأدخل النيروز المسلمين مدينتهم وواصل محمد بن القاسم فتوحاته حتى بلغ نهر مهران ووقتها استعد ملك السند لمواجهته ولكن المسلمون استطاعوا أن ينتصروا على أهل السند ويذكر ابن خلدون أن محمد بن القاسم استولى على مدائن السند واحدة بعد الأخرى واستطاع أن يغنم الكثير من الذهب والأموال أرسل منها إلى الخلافة الأموية حوالي مائة مليون

بلاد الروم :

كانت حملات الشواتي والصوائف قد توقفت منذ وفاة معاوية بن أبي سفيان وكذلك عند تعرض عصر عبد الملك بن مروان للعديد من الثورات والفتن وقد استغل ملك الروم هذه الفرصة فقام عبد الملك بعقد الصلح معهم على أن يؤدي إليه ألف دينار كل أسبوع وذلك في عام ٧٠هـ .

وعندما قضى عبد الملك على مصعب ابن الزبير أرسل الجيوش في عام ٧١هـ. فتم فتح مدينة قيسارية وقام بتولية أخاه

محمد بن مروان على الجزيرة وأرمينية في عام ٧٣هـ. وقام بحملة صيفية على بلاد الروم فهزمهم وقد تكررت حملات الصوائف في عصر عبد الملك بن مروان في نواحي أرمينية ومرعش وملطية وقاليقلا وعمورية ولم تكن تلك الغزوات التي استطاعت النيل -إلى حد ما - من الجانب البيزنطي إلا محاولات لوقف تهديدات هذه الدولة واستغلالها لظروف الأحداث الداخلية المضطربة داخل الدولة الأموية كما أنها كانت استعداداً من قبل الأمويين لحصار مدينة القسطنطينية للمرة الثالثة في عهد الخليفة التالي سليمان ابن عبد الملك..

- استكمال الفتوحات في بلاد المغرب :

كان القائد العربي الذي استكمل لفتوحات الاسلامية في بـــلاد المغرب هو موسى بن نصير حيث قام ببعض الفتوحات في المغرب الأدنى منها مدينة زغوان وهي تبعد عن مدينة القيروان بيوم واحد

ثم سار نحو فتح المغرب الأقصى الذي لم يكن قد وصله أحد من ولاة المسلمين قبله سوى عقبة بن نافع واستهدف موسى مدن المغرب الأقصى الحصينة مثل طنجة وسبتة ، ومعروف أن عقبة بن نافع في ولايته الثانية على المغرب قد استطاع الوصول إلى طنجــة دون أن ينتجها نظراً لدهاء حاكمها يوليان ولكن موسى بن نصير أصر علـى الاستيلاء على تلك المدينة ذات الموقع الإستراتيجي المـهم علـى المضيق الفاصل بين القارتين الأفريقية والأوربية وتم لموسـى بـن نصير فتح طنجة في عام ٨٩هـ/٧٠٨م . أما مدينة سبتة فقد تكرر حصارها عدة مرات دون أن يـأتى

بنتائج إيجابية للطرف العربي وعاد موسى بن نصير إلى القـــروان وفي تلك الأثناء اتصل يوليان حاكم سبتة بموسى يعرض عليه فتـح الأندلس.

- فتح الأندلس :

رغب المسلمون في فتح الأندلس تحقيقـاً لحمايـة الحـدود الشمالية للدولة الإسلامية في إفريقية فبـدأ الفتـح بعـدة حمـلات استطلاعية تقوم قوة الأندلس وحكامها من القـوط فبـدأت بحملـة يوليان حاكم سبتة الموالي للمسلمين في عام ٩٠هـ ثم تبعتها حملـة مالك بن طريف أحد قواد الجيش الإسلامي في عام ٩١ هـ ثم كـانت حملة القائد البربري العظيم طارق بن زياد الذي تولى قيادة الجيـوش

الإسلامية المضيق الذي سمى باسمه بعد مواجها الجيش الأسباني بقيادة لذريق رودريكو وكان الجيش الإسلامي مكوناً من سبعة منهم ثلاثمائة رجل فقط العرب والباقي من شتى القبائل البربرية دخل الطرفان في معركة عظيمة وادي لكة وادى بكة رمضان هـ/٧١١النصر فيها للمسلمين

وبعد انتصر المسلمون في هذه المعركة قاموا بالاتجاه نحوالشمال فاستطاعوا فتح مدن طليطلة وقرطبة وقد لحق موسى بن نصير بجيش طارق زياد في عام ٩٣هـ في قوة قوامها ثمانية

عشر مقاتل ويضم أعداداً من وجوه العرب والموالي والبربر وقد جيش موسى بن نصير بفتح مدن شذونة وقرمونة وإشبيلية وقام ابنه عبد العزيز بفتح مدن رية وغرناطة ومرسية وذلك عام هـ/٧١٣م

وقد انضم القائدان موسى بن نصير وطارق بن زياد ليستكملا فتح الأندلس فتم لهما فتح مدينة سرقسطة ومواجهة الممالك المسيحية في الشمال في بلاد البشكنس وجليقية وتم لموسى بن نصير احتلال مدينة برشلونة وعاد موسى بن نصير إلى دمشق تاركاً ولده عبد العزيز واليا للمسلمين على الأندلس وبولايته يبدأ عصر الولاة في الأندلس من عام ٩٥هـ حتى عام ١٣٨هـ حينما يستولى عبد الرحمن بن معاوية على الأندلس لتعود الدولة الأموية من جديد على أرض الأندلس بعد انتهائها على يد العباسيين في المشرق عام ١٣٢هـ

وتذكر المصادر التاريخية أن موسى بن نصير عاد إلى دمشق ولقبه الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك بالترحاب وكافأه على حرص على جمع الأموال للدولة الأموية وظل موسى بن نصير مكرماً في قصر الوليد حتى وفاته ، ولكن معاملة الخليفة اللاحق سليمان بن عبد الملك له كانت معاملة سيئة لأن هذا الخليفة قبل أن يتولى الخلافة أرسل إلى موسى بن نصير قبل قدومه إلى دمشق يستحثه على أن يبطئ سيره حتى يستأثر بالأموال والغنـــــائم نفسه دون أخيه الوليد وعندما لم ينفذ

موسى طلبه كان مصيره الحبس والتغريم ولكن يزيد بن المهلب دفع لسليمان مبلغاً كبيراً يقدر بمليون دينار وانتهى الأمر بأن أدى موسة فريضة الحج مع الخليفة سليمان أثناء تأدية الفريضة بعد أن أبلى بلاء حسنا فى فتوحاته سواء بالمغرب أو الأندلس وقد توفى موسى

أهم الأثار المعمارية فى عصر الوليد :

المسجد الأموي بدمشق :- (٨٨-٩٦هـ) (٧٠٧ - ٧١٤م)

يعتبر المسجد الأموي بدمشق من أهم العمائر التي تنسب إلى الأمويين ، فقد شيده الخليفة الوليد بن عبد الملك ما بين عامى ٨٨ ، ٩٦ هـ وقد شيد على أنقاض كنيسة القديس يوحنا أو المسجد الأموى عبارة عن بناء مستطيل وله ثلاثة مداخل محورية كما توجد

في أركانه أربعة أبراج تعتبر المآذن الأول في الإسلام وباقي منها واحدة في الركن الجنوبي الغربي للمسجد.

ويتوسط المسجد صحن مكشوف مستطيل التخطيط تحيط أربعة أروقة أكبرها رواق القبلة الذي يتكون من ثلاث بلاطات مغطاة بثلاثة جمالونات تجرى موازية لحائط القبلة ، ويحمل السقف بائكات محمولة على أعمدة رخامية ومكونة من صفين من العقود وهناك بلاطة معترضة تتجه من الصحن إلى محراب المسجد عمودياً على حائط القبلة وتعرف بالمجاز وسقفها أعلى من باقى سقف رواق القبلة وهي مغطاة بجمالونات تتوسطة قبة حجرية أضيفت إلى المسجد في عصر متأخر .

وقد كان هذا المسجد مفروشا بالرخام كما أن جدرانه من الرخام أيضاً يلى ذلك على الجدران زخارف من الفسيفساء الملونة والمذهبة وفي المسجد بضع نوافذ من الرخام.

وتعتبر الأبراج الأربعة الموجودة في أركان المسجد ، المـآذن الأولى في الإسلام وكان لها أكبر الأثر فـى تصميـم المـآذن التـ شوهدت بعد ذلك في أغلب المساجد في شمال إفريقيـة والأندلـس ، كما كان لتصميم المسجد الأموى أكبر الأثر في تصميم مسجد قرطبـة الكبير وغيره من مساجد بلاد المغرب

ولم يقتصر اهتمام الوليد على بناء مسجد دمشق فقد أمـر عامله على المدينة عمر بن عبد العزيز في عام ٨٨هـ بهدم مسـجد رسول الله ﷺ وأن يضم إليه حجرات الرسول والأراضي المحيطة به على أن يعوض أصحابها مالياً وقد أرسل إلى المدينة العمال والأموال وتم بناء المسجد في عام ٩٠هـ

كذلك اهتم الوليد بالكعبة فأرسل إلى خالد بن عبد الله القسـوى في مكة ثلاثين ألف دينار فعملت صفائح من ذهب جعلت علـى بـاب الكعبة والأركان وفي داخلها أيضاً لذا كان الوليد بن عبد الملـك أول من ذهب البيت في الإسلام ، وفي عهده أيضـاً تـم بنـاء المسـجد الأقصـى في بيت المقدس الذي بدأ العمل فيه علـى عـهد الخليفـة السابق عبد الملك بن مروان.

كذلك أمر الوليد عامله على المدينة (عمر بن عبد العزيـز) بحفر الآبار والعيون في كل من المدينة المنورة ومكة المكرمة . وقد توفى الوليد بن عبد الملك في عام ٩٦هـ ، وقد حـاول قبل وفاته نقل الخلافة إلى ابنه عبد العزيز وإقصاء أخيـه سـليمان عنها غير أنه فشل في ذلك فتولى بعده أخاه سليمان

وقد عرف عن الوليد تواضعه وحرصه على قراءة القـرآن ، ذكر ابن خلدون أنه كان يختم القرآن في ثلاثة ايام ويختمـه فـي هر رمضان في يومين.

وقد اشتهر الوليد بعده ألقاب منها اللحان بمعنى أنه كان لحاناً لا يحسن النحو وهذا لأنه لم يتربي في البادية مثل عادة الخلفاء فى أن يربوا ابناءهم في البادية حتى يحسنوا اللغة ويكتسبوا فصاحة وبلاغة وبيان.

وقد أجمل المؤرخ ابن الأثير فضائل وأعماله في كتابه الكامل في التاريخ فيما نصه : " كان الوليد كان عند أهل الشام من أفضل خلفائهم فقد بني المساجد في دمشق والمدينة والمسجد الأقصى ووضع المنابر وأعطى المجذومين فأصبحوا لا يسألون الناس وفتح فى ولايته الأندلس وكاشغر والهند وكان صاحب بناء واتخاذ المصانع والضياع فكان الناس يلتقون في زمانه فيسأل بعضهم بعضاً عن البناء وكان سليمان صاحب طعام ونكاح فكان الناس يسأل بعضهم بعضاً عن النكاح والطعام وكان عمر بن عبد العزيز صاحب عبادة فكان الناس يسأل بعضهم بعضاً عن الخير ما وردك إليه وكم تحفظ من القرآن وكم تصوم من الشهر

٧- سليمان بن عبد الملك

- (٩٦ ــ ٩٩هـ / ٩١٥ ــ ٩١٨م)

يكنى بأبي أيوب وقد تولى الخلافة بعد وفاة أخيه الوليد ويقول عنه صاحب البدء والتاريخ : " كان حبراً فصيحاً نشأ بالبادية .. فافتتح بخير واختتم بخير ورد المظالم وأوى المسيرين وأخرج المحبسين واستخلف عمر بن عبد العزيز ".

وفي سنة توليته الخلافة (٩٦هـ) قتل قتيبة بن مسلم والى خراسان وذلك لأنه عزله مما جعل قتيبة يخلعه فرغانة فحرض سليمان من يثور عليه هناك وقتل في نزاع بين اليمنية والمصرية بعد

أن تولى خراسان ثلاثة عشر عاماً وكان عدد من قتل من أهلـ كما يروى ابن خلدون إحدى عشر رجلاً.

وقد قام سليمان بن عبد الملك بسلسلة من أوامر عزل الـولاة من قبل أخيه المتوفى الوليد لأن الوليد كان غير راضياً عـن تولـيـة

سليمان بعده وذلك بناؤ على توصية ابيه عبد الملك وكان يريـد أن يولي عهده لابنه عبد العزيز ولكن سليمان رفض أن يتنحـى عـن تولية الخلافة بعد أخيه وقام بالتشنيع على الوليد وقد سـاعده فـي فشل محاولة الوليد لتولية ابنه أن كثيراً من الناس لم يحبذوا فكـرة تولية عبد العزيز بن الوليد الخلافة لذا فقد بويع سليمان بالخلافة في جمادى الآخرة من عام ٩٦هـ وهو نفسه يمتلئ بالرغبة في الانتقـلم من هؤلاء الذين وافقوا الوليد على تنحيته.

ثم أمر بعزل محمد بن القاسم فاتح بلاد السند لأنه كـان مـن أقرباء الحجاج ابن يوسف الثقفى وعزل ولاة الحجاج عـن العـراق فولى يزيد بن المهلب وعزل عنها يزيد بن أبي مسلم

وقد استكمل سليمان بن عبد الملك سلسلة عزل ولاة الأمصـار بأن نكب بآل موسى بن نصير قائد المسلمين بـالمغرب والأندلـس ابتداء من موسى بن نصير نفسه حتى ولاية عبد الله الوالـى علـى المغرب وعبد العزيز الوالي على الأندلس

.

فقد استدعى سليمان موسى بن نصير وونجه واتهمه بإخفـاء بعض مغانم الأندلس كما اتهمه بالخروج عن طاعته ، وأمر سليمان أن يوقف موسى في يوم شديد الحر وكان موسى يعاني من مـرض الربو فسقط موسى مغشياً عليه ولم ينجيه من هذا العقاب إلا يزيـد

موسى بن المهلب الذي وافق على أن يضمنه ويفتديه بثلاثمائة ألف دينـار وقد عفى عنه بعد ذلك وأدى فريضة الحج مع الخليفـة فـى عـام ٩٨ هـ ومات في هذه السنة وقبل وفاته قتل سليمان ابن موسـى : عبد العزيز ووضع رأسه التي جيئ به من الأندلس إلى أبيه مو بن نصير وهو في محبسه ، وكذلك عزل سليمان ، عبـد الله بـن موسى الذي تركه أبوه على المغرب في نفس العام الذي قتل فيه عبد العزيز ٩٧هـ / ٧١٦م وأمر عامله محمد بن يزيد أن يعذبه ويسجنه

ثم يقتله .

وتجدر الإشارة إلى أن سليمان عندما تولى الخلافة تحول عـن سكنى دمشق وذهب إلى الصحراء فأخذت لـه البيعـه فـي الرملـة ويذكر الدكتور عبد المنعم ماجد أن هذه الظاهرة - ظـاهرة الذهـاب والاستقرار في البادية قد ظهرت منذ بداية العصر الأموى ، فقد كـان معاوية بفضل الإقامة بجانب بحيرة طبرية وكذلك ابنه يزيـد وبنـى الوليد قصورا صحراوية حيث ينسب إليه قصر المشتى قرب البحـر الميت أما سليمان فأنشأ الرملة.

وقد توفي في زمن خلافته (٩٩هـ) زين العابدين علـى بـن الحسين بن علي ابن أبي طالب وعمره ثمان وخمسون سنـه وكـان يسمى سيد العابدين وذا النفثات لما كان في وجهـه مـن علامـات واضحة من أثر السجود وقد كان عابدا متواضعا يدور بـالليل علـى دور الفقراء يحمل لهم الطعام على كتفيه ، لذا فعندما غسل وجـدوا على كتفه علامات تشير إلى حملة تلك الأحمال الثقيلة من الطعام إلى الفقراء.

وقد كان الخليفة سليمان ملقباً بفتى العرب حيث عرف بغروره فكان إذا نظر إلى المرأه قال :

" أنا والله الملك الشاب "

. وكان الناس يقولون : سليمان إن مفتاح الخير فقد ذهب عنهم الحجاج.

وقد كان الحجاج يتمنى موته قبل ولاية سليمان وقد توفى الحجـاج عام ٩٥ بعد أن ولى العراق قرابة العشرون عاماً

- فتح بلاد قزوين :

استطاع سليمان بن عبد الملك أن يقوم بفتـح بـلاد ناحيـة المشرق لم تكن قد فتحت من قبل وذلك على يـد القـائد يزيـد بـن المهلب الذي ولاه العراق والمشرق بعد أن عزل يزيد بن أبي مسلم في عام ٩٧هـ / ٧١٥م وعندما ولاه سليمان خراسان سار منطقـة جرجان إليها في مائة ألف من أهل العراق والشام وخراســـان

ولـم يدخل في هذا العدد الموالي والمتطوعين ولم تكن جرجان إلا جبــال فبدأ غزوة بقوستان وهي تعنى بالفارسية : موضع الجبال كما يذكـر البغدادي - صاحب مراصد الاطلاع - وتقع جنوب شرقى بحر قزوين وهذه المنطقة أغلبها صحـارى أو جبـال ولا توجـد بـهـا أنـهار وعاصمتها قاين وقد كان يسكنها العجم إلى جوار عنصر مغولي مـن الهون " الهيارطلة " يطلق عليهم كل من ابن الأثير وابن خلـــدون : الترك .

ولم تكن هذه الغزوة لمنطقة جرجان بالغزوة الأولى فقد غزيت قوهستان أثناء فتح خراسان حيث فتحت عنوة وهزم الهياطلة زمـن خلافة عثمان بن عفان في ٣٠هـ / ٦٥١م وتم غزوها مرة أخـرى في عهد معاوية بن أبي سفيان في ٥١هـ/٦٧١م وضمت قوهسـتان إلى خراسان .

وقد استطاع يزيد بن المهلب أن يتسلم مدينة قوهستان حيـث أخذ ما فيها من الأموال والكنوز والسبي وقتل أربعة عشر ألفا مـن الترك.

وبعدما تم الاستيلاء على منطقة قوهستان سار يزيد إلى منطقة جرجان وهي تقع إلى جوار خراسان جنوبى شرق بحر قزوين وهذه المنطقة عبارة عن سهول ذات أنهار عديدة وتوجد حولها سلسلة جبال البرز الشاهقة وجرجان تنقسم إلى مناطق منها دهستان

وبكر أباد أما سكانها منهم من الفرس ويحكمهم قائد يسمى مرزبان والترك ويجتمعون في منطقة دهستان ويحكمهم ملك يطلق عليه صول.

ويذكر ابن خلدون أن منطقة جرجان كانت قد غزيت من قبل سعيد بن العاص في زمن خلافة عثمان عام ٣٠هـ وصالح أهلها على الجزية وهي مائة ألف في السنة ولكنهم امتنعوا عن تأدية الجزية فلم يدخلها غاز مسلم إلا يزيد الذي استطاع أن يفتتحها بفضل استغلال الخلاف الذي وقع بين الحاكم الفارسي المرزبان والحاكم التركي صول ، فدخل يزيد مع المرزبان جرجان وحاصر صول وقتل عدداً كبيراً من الترك ولكن لم يلبث أهل جرجان أن ثاروا على المسلمين الذين تركهم يزيد فيها وقتلوهم عن آخرهم فقرر يزيد الرجوع مرة أخرى إلى جرجان وأخمد فيها ثورات أهلها وقتل عدداً كبيراً فيما عده المؤرخون بالفتح الثاني لمنطقة جرجان واختط يزيد مدينة جرجان في واد كبير يطل على البحر والجبال.

ودخل يزيد بعد ذلك بلاد طبرستان . ولم تكن هذه هي المرة الأولى في غزو طبرستان ، فقد استعصت هذه المنطقة عن الفتح لحصانتها وعليه لجأ المسلمون إلى عقد الصلح مع أهلها عندما تم لهم فتح بلاد فارس وفي عهد عثمان سار نحوها سعيد بن العاص

في عام ٢٩هـ/٦٥٠م وقام بفتح سهولها وجبالها الواقعة ناحية خراسان ، وفي عهد معاوية سار إليها القائد مصقلة بن هبيرة ولكن سكان المنطقة استدرجوه إلى ممرات بين الجبال وألقوا عليه وعلى جيشه الصخور فقتل هذا الجيش عن آخره ويذكر المؤرخون أن عدده كان عشرة أو عشرين

ألفا من الجند). وعندما غزا يزيد المنطقة لم يجد غير مصالحه أهلها بزعامة الاصبهذ الذي أرسل إليه المال ويفضل ذلك ابن خلدون حيث يقول : " صالحه على سبعمائة ألف درهم وأربعمائة وقرر حمل زعفران وأربعمائة رجل على يد كل رجل منهم ترس وطيلسان وجلم من فضة وحرير وكسوة .

٣-حصار القسطنطينية الثالث :

لم يصرف الفشل الذي منى به الأمويون في حصار القسطنطينية الأول عام ٤٩هـ/٦٦٩م ثم فشل الحصار الثاني المعروف بحرب السنوات السبع من عام ٥٤ إلى ٦٠هـ عن أن يقوموا بالتفكير مرة ثالثة في غزو هذه المدينة . وجاء هذا الحصار الثالث بعد ثلاثين عاماً من الحصار الثاني ، ففي ذلك الحين كانت الدولة الأموية وقد بلغت ذروة مجدها الحربي .

وقد دخلت الدولة العربية في مناوشات وصدامات مع الدولة البيزنطية تمهيداً لهذا الهدف وهو فتح القسطنطينية فقد عهد الوليد إلى أخيه مسلمة بن عبد الملك والى ابنه العباس بن الوليد قتال الروم فأخذت الغزوات تتوالى من عام ٨٦ حتى عام ٩٦هـ .

وقد استطاع العرب بهذه الحملات التوغل فى أرض الدولة البيزنطية تدريجيا ففي عام ٩٦ كان جيش مسلمة يتوغل إلى أبعد مدى في آسيا الصغرى وفي عام ٩٤ تحرك الأسطول العربى فى حملة على قبرص بسبب عدم استقرار الأمر في الجزيرة كما تعرضت كريت أيضاً للهجوم من نفس الجملة وهكذا كان التدريب على غزو القسطنطينية يتم بغزوات حقيقية .

في ذلك الحين كانت أحوال الدولة البيزنطية تشجع العرب على القيام بغزوهم الثالث لعاصمتها لأن الصراع على العرش كان قد اشتد حتى عزل عن قياصرتها ستة في نحو عشرين عاماً وتعاقب على عرشها ثلاثة من القياصرة المغتصبين في ستة أعوام فقط.

بينما اقتحم البلغاء والصقالبة أقاليمها الشمالية وأشرفوا على أسوار العاصمة واقتحم العرب آسيا الصغرى وامتدت غزواتهم إلى البوسفور وقد قام الوليد بن عبد الملك بإعداد حملة ضخمة بحرية وبرية لغزو القسطنطينية وعليها أخاه مسلمة بن عبد الملك ولكنه

توفى فخلفه سليمان بن عبد الملك وأخذ يستعد لحملته استعداداًهائلا.

فلتكوين أسطول ضخم يستطيع نقل هذا الجيش وفرض الحصار عن سليمان إلى عمل التنسيق اللازم بين أسطول الشام وأسطول مصر فأبحر أسطول من مصر إلى الشام لجمع أخشاب من سواحل لبنان لتصنع منها سفن جديدة في دور الصناعة بمصر

واستكمل سليمان استعداداته الحربية فكون جيشاً من أضخم الجيوش الإسلامية من أهل الشام والجزيرة والموصل وبنى أسطولا من أهل مصر وإفريقية وزحف سليمان بن عبد الملك من القدس إلى دمشق ثم إلى مرج دابق وبنى معسكره فيه واتخذه قاعدة لتدبير أمور الحملة الكبيرة الموجهة إلى العاصمة البيزنطية .

وفي سنة ٩٨هـ/٧١٦م تحركت الجيوش العربية من الشام تحت قيادة مسلمة بن عبد الملك وعبد الله البطال وسليمان بن موضح الأنطاكي وسلكت الحملة طريق مرعش من ناحية الشام وأخذت في اختراق هضاب الأناضول فاتحة في طريقها المدن والمواقع الحصينة ودارت المعارك الحربية في عمورية وبرجاس وساردس.

بينما كان الأسطول العربي ينقل المقاتلين ويتوجه بهم إلى بحر مرمرة وفي أغسطس ٧١٧م وصلت قوات مسلمة بن عبد الملك إلى أسوار القسطنطينية وبعد ستة عشر يوما وصل الأسطول العربي إلى مياه البوسفور

وكان الجيش العربي قد عبر البحر عند أبيدوس إلى ضفة ان ردنيل الأوربية وسار على ضفاف بحر مرمرة حتى القسطنطينية وأمر مسلمة جنوده بحفر خط من الخنادق يمتد من البحر حتى القرن كما أمر الأسطول بأن يلقى مراسيه على مقربة من أسوار المدينة في بحر مرمرة ومضيق البوسفور ، لأن القرن الذهبي كان الذهبي : مغلقا بالسلاسل

وهكذا فرض مسلمة بن عبد الملك الحصار على القسطنطينية من البحر والبر ويروى ابن خلدون في كتابه العبر ما حدث بعد ذلك

حيث يقول :

" لما دنا - مسلمة – من القسطنطينية أمر أهل المعسكر أن حمل كل واحد قدين من الطعام ويلقوه في معسكرهم فصار أمثال لجبال واتخذ البيوت من الخشب وأمر الناس بالزراعة وصاف وشتى هم يأكلون من زراعتهم وطعامهم الذي استقاقوه مدخراً ". وقد ضاق أهل المدينة بالحصار الذي فرضه المسلمون وطلبوا صلح مقابل أن يدفعوا الجزية ولكن مسلمة رفض ، وقد أراد سلمة فتح المدينة عنوة فنصب عليها المجانيق الضخمة وأخذ فى مهاجمتها ولكنه لم يتمكن من فتحها نظراً لمناعة أسوارها ووجود النار الإغريقية .

وقد انقسم الأسطول العربي إلى قسمين : قسم مرابط على الشاطئ الأسيوي في ثغرى أتربيوس وانتيموس لقطع طريق الإمدادات الآتية من بحر إيجة والقسم الآخر اتجه إلى ساحل البسفور الأوربي الشمالي لقطع كل صلة للمدينة بثغور البحر الأسود وخصوصاً ثغر طرابذون

على أن التيار المائي الشديد المتدفق من البحر الأسود إلى بحر مرمرة ومهاجمة البيزنطين للأسطول العربي جعلت المسلمين يسحبون أسطولهم فقرر مسلمة أن يحاصر المدينة برأ ولكن المناخ كان سيئاً لدرجة أن الثلوج غطت الأرض لأكثر من مائة وفي الربيع وصلت نجدات برية

وبحرية من مصـر وتونس واستخدمت القوات العربية في تلك الفترة النفط فـى القتـال ولكـن العوامل الجغرافية وتحديداً الرياح العاصفة أتلفت كثير مـن السـفن وأغرقت الكثير من المقاتلين وجاء العام الثاني لحصـار القسطنطينية وكان ليو الأيسوري حاكم بيزنطة قد عمل علـى تحصيـن المدينـة ودخل الشتاء فظلت المناطق المحيطة بالمدينة لمدة أسابيع مغطـاة بالثلج والجليد ومات كثير من الجنود المسلمين ضحية سوء الأحـوال الجوية وتعرض المسلمون لهجوم البلغار ، وفـي الصيـف جـاءت الإمدادات والمؤن الغذائية والعسكرية واستكمل المسلمون غزواتـهم في آسيا الصـغرى غير أنها لقيت هجوماً شديداً من البيزنطيين).

ويذكر ابن خلدون أن المسلمون اضطروا في الحصـار إلى أكل الدواب والجلود وأصول الشجر والورق .

ولكن في الوقت الذي عجز فيه الجيش العربي عـن تطويـق الجبهة الشمالية للعاصمة وكذلك الجبهـة الجنوبيـة وقـد مـكـن البيزنطيين من الاتصـال بسواحل البحر الأسود التي أمدتها بحاجتـها

من الغلال والمواد الغذائية وفي أثناء ذلك توفى الخليفة سليمان بن عبد الملك فـي ١٠ صفر عام ٩٩هـ وتولى بعده الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي لـم يكن يميل إلى مواصلة سياسة الفتوح لما تكلفه من أرواح ونفقـات فكتب إلى مسلمة بن عبد الملك يأمره بفك الحصـار عن القسطنطينية في ١٥ أغسطس ٧١٨م ").

وقد كانت هذه الحملة من الحملات الحاسمة في العلاقات بيـن العرب وأوربا، فلم تر عاصمة الدولة البيزنطية بعدها جيشـاً عربيـاً أمام أسوارها إلا بعد أكثر من نصف قرن في عصر الخليفة العباسـى هارون الرشيد

وقد استمر حكم سليمان قرابة ثلاث سنوات ومات بدابق من أرض قنسرين على أثر أكلة أكلها وكان شره للطعام فاتخم فمرض فمات في ٢٠ صفر ٩٩ وكان الناس في عصره يسألون بعضهم البعض عن النكاح والطعام وكان عمره حين وفاته تسع وثلاثون عاماً ويذكر ابن أبي الدم أنه عندما ثقل فيه المرض كتب كتاباً مضمونه :

" هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز أني قد وليتك الخلافة من بعدى ومن بعدك ليزيد بن عبد الملك فاسمعوا له وأطيعوا ولا تختلفوا ".

وقد نهج سليمان بن عبد الملك سياسة تختلف عن سياسة الوليد وعبد الملك حيث اتسمت بالعدل ورفع الظلم عن الناس وكان يؤيده في ذلك عمر بن عبد العزيز - ابن عمه - فكتب له بولاية العهد ومتخطياً أخاه يزيد استجابة لرغبة أحد الفقهاء ويدعى / جلبر بن حيوة الذي يعد أقرب الناس إلى سليمان وعمر وكانت غاية سليمان أن تستمر سياستة هذه بتولى عمر بن العزيز الخلافة من بعده

٨ - عمر بن عبد العزيز

(٩٩-١٠١هـ)

توفى سليمان بن عبد الملك بدابق التابعة لقنسرين ببلاد الشام ، وكان قد أراد في فترة مرضه الأخير أن يعهد بالخلافة إلى ولده داود ولكن وصية كاتبه رجاء ابن حيوة قد جعلته يعدل عن هذه الفكرة لأنه أراد أن يكون خليفته متسماً بصفات تحول دون حدوث فتنة بين الناس لذا فقد تخطى

أولاده وأخيه يزيد بن عبد الملك وجعل ولاية العهد من بعده لعمر بن عبد العزيز حيث كتب بذلك ما نصه : بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من عبد الله سليمان أميرالمؤمنين لعمر بن عبد العزيز إنى قد وليتك الخلافة بعدى ومن بعدك يزيد بن عبد الملك فاسمعوا له وأطيعوا واتقوا الله ولا تختلفوا فيطمع فيكم ".

وعمر هو : عمر بن عبد العزيز ابن عبد العزيز بن مروان وألى مصر وقد ولد في عام ٦٣هـ وأمه : أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب وقد عاش عمر فترة طويلة من حياته في المدينة المنورة ثم انتقل إلى دمشق بعد وفاة أبيه فزوجه عمه عبد الملك من ابنته فاطمة .

وقد كان عمر في فترة شبابه يعيش حياة مترفة حيث يرتدى أفخر الثياب ويتطيب بأفخر الطيب ويأكل أشهى الطعام غير أنه زهد في الدنيا فتصوف ولبس الخشن في الثياب وترك كل مظاهر الترف والبذخ.

وقد عمل عمر في خلافة الوليد أميراً على المدينة المنورة وقد عزله الوليد إرضاء للحجاج بن يوسف الثقفي لوجود الخلاف بينهما في أن عمر كان يأوى إيه الهاربين من العراق في حين كان عمر ينتقد سياسة الحجاج وتعسفه وظلمه.

وعندما تولى عمر الخلافة في عام ٩٩ هـ سار سيرة العدل المساواة ورفع الظلم عن الناس فيذكر ابن قتيبة على سبيل المثال نه عندما تولى بدأ ببيع أموال سليمان بن عبد الملك - يعنى أملاكه ورباعه (الرباع (ربع) هو العضيل الذي ينتج في الربيع ، كما باع كسوته وجميع ما كان عليه فبلغ ذلك أربعة وعشرين ألف دينار ارسلها إلى بيت المال.

كذلك أمر أهل بيته وخاصة زوجته فاطمة أن ترد ما معها من وحلى وجواهر إلى بيت مال المسلمين

وتجدر الإشارة إلى أن عمر بن عبد العزيز كان يلقب بألقاب عدة : مثل : خامس الخلفاء الراشدين وأشج بني أمية لأنه صغير ضربته دابة فشجت رأسه.

ويعتبر هو أول من أمر بجمع الأحاديث وتدوينها وقد رفض عند تولية الخلافة أن يحاط بالحرس.

وقد قام عمر بعدة أعمال على المستويات الداخلية والخارجية منها :

(1) مصالحة العلويين :-

كان بنو أمية يسبون أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه حتى ولى عمر بن عبد العزيز الخلافةفترك ذلك وكتب إلى جميع عماله على الأقاليم والولايات بترك ذلك كذلك أحسن عمر لبنى هاشم بعد أن أساء سليمان إليهم ودس السم لأبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية بن على بن أبي طالب

(٢) كسب الشعوب البلاد المفتوحة إلى الإسلام :

عمد عمر بن عبد العزيز إلى كسب شعوب البلاد المفتوحة عن طريق الأمر إلى عماله بالسهر على مصالحهم ومحاسبتهم أشر الحساب وإعادة أراضي كثيرة إلى أصحابها من أهل الذمة بعد أن ضمت إلى أملاك الدولة الأموية كما أعيدت كثير من الكنائس والأديرة إلى أصحابها واحتفظ لهم بأوقافها ورد لأهل نجران الذين نقلهم عمر بن الخطاب إلى البصرة والكوفة ما طلبوه من أموالهم.

(٣) رد المظالم :

يذكر ابن سعد أن عمر بن عبد العزيز أول من نـدب نفسـه للنظر في المظالم وجلس لها في مركز الخلافة وأمر بها في جميـع الولايات كما أنه رد المظالم من زمن معاوية بن أبي سفيان إلـى أن است خلف

(٤) تنظيم السجون :

يعتبر عمر بن عبد العزيز أول من قام بتنظيم السجون فـأوجد ديوانا خاصا بها ومن أهم الاجراءات التي اتبعها في هذا المجــال : فصل الحبس بين الرجال والنساء وبين أهل الجرائم ومن حبس فـى دين وقد أمر ألا يقيد أحد في حبسه وكتب لكافة المسجونين بالكسـاء

والأرزاق فكما يذكر ابن سعد كانت هناك كسوة في الشتاء وكسـوة في الصيف وأرزاق تجرى عليهم كل شهر.

. عمل عمر بن عبد العزيز على حل مشكلة الضرائـب التـى فرضت على غير المسلمين من أهل الذمة وغيرهم وإعادتها على مـا كانت عليه أيام الخليفة عمر بن الخطاب فقد كان عمر بن الخطاب قد فرض على سكان البلاد المفتوحة الجزية على رءوس الرجال ووضع الخراج على الأرض وترك عليها أصحابها الأصليين مـن الفلاحيـن والدهاقين لاستغلالها لأنهم أعلم بفنون الزراعة من العرب ولانشغال العرب بمهمة نشر الدين الإسلامي والفتوحات في شتى الاتجاهات وقد كانت سياسة عمر الفاروق هـى إعفـاء الداخليـن فـى الإسلام من ضريبة الجزية والخراج مما شجع دافعي الضرائب علـى اعتناق الإسلام ولكن الأمويون بعد ذلـك اعتبروا هـذا تقليصـى وتنقيصـى من موارد بيت المال كذلك حدث نقص في الأيدي العاملـة بهجرتها إلى المدن فوضعوا نظاماً يعد سياسة خاصة بهم حيث أعفوا من أسلم من الجزية مع استمرار فرض ضريبة الخراج ومنع هجـرة أهل القرى إلى

المدن لدرجة أن الحجاج بن يوسف الثقفي كان يقوم بوسم اسم القرية على يد المولى حتى لا يخرج منها وإعادته غليها إن وجد في مكان آخر.

(٥) تنظيم الضرائب

وأرغم الحجاج المسلمين الجدد على دفع الجزية وفرض الخراج على الأرض التي أسلم أهلها كما كانت الحال قبل دخولهم الإسلام لسد النقص بسبب ما استنفذته الدولة من أموال من الحروب ونقص موارد بيت المال من الجزية لازدياد عدد الداخلين في الدين

الإسلامي . وعندما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة حاول التشبه بسياسة الفاروق فأزال الجزية عن المسلم سواء عربياً أو مولى

وساوى بين العرب والموالي في الرزق والكسوة والعطاء ومنع بيع أراضي الخراج لأنها ملكا لكافة المسلمين وليست ملكا خاصاً لصاحبها سواء المسلم أو غير المسلم يدفع عنها ضريبة الخراج باعتباره مستأجراً كما يحق له أن يهاجر من ارضه ويذهب إلى المدن وبذلك حل عمر مشكلة المسلمين الجدد ولكنه أبقى الخراج على الأرض فأبقى لبيت المال مورداً ثابتاً.

*** خروج شوذب الخارجي :**

في عام ١٠٠هـ خرج شوذب أو بسطام من بني يشكر مع ثمانين رجلا ضد الدولة الأموية في الكوفة ، فأرسل إليهم عمر أمير الكوفة على رأس جيش فهزم فأرسل عمر مسلمة بن عبد الملك بجيش من أهل الشام وفي الوقت نفسه أرسل عمر إلى شوذب يسأله عن سبب ثورته ووقف جيش مسلمة بإزاء الخوارج دون حرب

وأرسل بسطام رجلين يتناقشان مع عمر ليرى أيهما أحق بالأمر فانتهى النقاش إلى اعتراف الرجلين بخلافة عمر بن عبد العزيز) ومن أهم أعمال عمر بن عبد العزيز أنه أمر بعمل الخانات

على طريق خراسان وأمر بأن يستقبل العابرون ويضيفوا يوماً وليلـة وأن يهتم بدوابهم ومن كان مريضاً من هؤلاء العـابرين فليمكـث يومين وليلتين وأن يعطى لعابري السبيل الأموال التي تعينهم علـى بلوغ بلادهم .

كذلك أمر عامله على الكوفة أن يسـاعد مـن يريـد القيـام بفريضة الحج ويعطيه مائة درهم علاوة علـى عنايتـه بـالمرضى وأصحاب العاهات.

وعلى المستوى الخارجي قام عمر بن عبد العزيـز بإعطـاء الأوامر إلى مسلمة بن عبد الملك الذي كان يحـاصر القسطنطينية بالرجوع بجيشه وذلك عند توليه الخلافـة وأرسـل إليـهم الخيـول والطعام وأمر بألا يتقدم المسلمون إلى أبعد مما وصلوا إليه في بـلاد خراسان إذ كان يرى أن الفتوحات لم تعد فتوحاً وغزوات في سـبيل الله وإنما كان المراد منها هو الغنيمة والأموال .

وقد توفي عمر بن عبد العزيز بدير سمعان بنواحي دمشق في السادس من رجب عام ١٠١هـ وأوصى أن يجعل في كفته شئ مـن شعر رسول الله وقد اشترى مكان قبره من بعض أهل الذمة بثلاثـة دنانير

وقد رثاه الكثير من الشعراء المشهورين فـى عصـره مثـل فرزدق وجرير وكان جرير هو الشاعر الوحيد الذي قربه عمر دون شعراء الآخرين لما عهده فيه من عفه وحسن الدين

٩ - يزيد بن عبد الملك

(١٠١ – ١٠٥هـ / ٧١٩ – ٧٢٣م)

هو يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، يكنى أبا خـالد وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، وقد تولى بعد وفاة عمر بن عبـد العزيز الذي لم يرغب في توليه الخلافة مثلما أراد أخاه سليمان بـن عبد الملك وذلك لما اشتهر به يزيد من مجون وخلاعة.

ولكن عمر بن عبد العزيز كان يرى ضـرورة توليـه الحكم بن عبد العزيز . رسائله التي تصت على أنه :

وإبقاء الخلافة في البيت الأموى ورغم وصية عمر ليزيد بالمحافظـة على شئون الخلافة إلا أنه سار على نهج خلاف سياسة سلفه - عمر

فقد أرسل إلى ولاته في كافة الأمصار يـأمرهم بـأن ينبـذوا سياسة عمر وخاصة فيما يتعلق بجباية الخراج والضرائـب وكـتـب

إذا أتاكم كتابي هذا فدعوا ما كنتم تعرفون من عهده وأعيـدوا الناس إلى طبقتهم الأولى أخصبوا أم أجدبوا أحبوا أم كرهوا حيـوا أم ماتوا ".

وقد كان ليزيد بن عبد الملـك دور كبـير فـى إذكـاء روح التعصب بين اليمانية والمضرية حيث استعان بالمضرية فقام بتوليـة عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس الفهري المدينة المنورة وولـى عمر بن هبيرة الغزاري العراق وولى يزيد بن أبـى مسلـم شمـال إفريقيا.

وفي المقابل قام بتقليص الأرزاق والأعطيات التي كان يأخذهـا اليمانية إلى درجة أنها كانت نصف ما كان يعطـ للمضريـة مـن أعطيات.

وكان من نتيجة هذه السياسة أن أندلعت ثورة من قبل اليمنيـة بزعامة يزيد بن المهلب وذلك في عام ١٠١هـ . فقد اتجه يزيد إلى البصرة حيث تواجد إخوته وأقربائه وبايعـه الناس هناك ضد

الخلافة كما ناصرته بلاد فارس وكرمان ثم اتجه بجيوشه إلى واسط فاستولى عليها ثم سار إلى الكوفة حيث انضم إليه أهلها ، وبلغ عدد من انضم إلى ثورته مائة وعشرون ألفا.

وعليه قام الخليفة يزيد بن عبد الملك بإرسال أخيه مسلمة بن عبد الملك وابن أخيه العباس بن الوليد بجيش كبير من أهل الشـــــام فالتقى الجيشان قرب الكوفة وانهزم العراقيون في البداية ثم قتل يزيد بن المهلب ومعه عشرة من إخوته وأرسلت رؤوسهم إلى يزيد بن عبد الملك

أما آل المهلب من النساء والأطفال فقد هربوا في السفن وأبحروا إلى كرمان ومنها اتجهوا إلى الشرق فتصدت لهم قوة أموية فقتل كثير منهم وسبقت النساء إلى الخليفة الذي أرسلهن إلى العباس بن الوليد الذي أراد بيعهم ولكن الجراح بن عبدالله الحكمي اشتراهن وخلى سبيلهن ").

أما الأسرى الذين وقعوا بيد مسلمة بن عبد الملك بعد فشل ثورة آل المهلب فقد أمر يزيد بن عبد الملك بقتلهم جميعاً وكان عددهم ما بين عشرين وثلاثين الفا وبذلك تم القضاء على فتنة آل المهلب.

وقد عرف عن يزيد بن عبد الملك ولعه بالغناء وبالجواري والشراب وكان مغرما بجاريتين هما : حبابة وسلامة القيس ، وقد اشترى حبابة بأربعة آلاف دينار وقد ماتت حبابة إثر شرقة من أكل حبه رمان أو حبة عنب،وقد ظل جثمانها دون أن يدفن ثلاثة أيام حيث حزن عليها يزيد حزنا شديدا ورفض أن يدفنها ولكن الناس أعابوا عليه ذلك.

(١٠) هشام بن عبد الملك

(١٠٥-١٢٥هـ) (٧٢٣-٧٤٣م)

بويع لهشام بن عبد الملك في اليوم الذي توفي فيه أخوه يزيد وذلك في عام ١٠٥هـ بالرصافة ، وكان هشام يتصف بسمات منها: البخل الشديد ، كما كان حازماً واسع العقل حسن الإدارة والتدبير حتى أن المسعودي يذكر أن أمهر خلفاء بني أمية في السياسة وحكم الأمور ثلاثة : معاوية وعبد الملك وهشام وذكر أن بـه قد انتـهى عصر خلفاء بني أمية المهرة وقد حاول هشام أن يقضى على النتائج السيئة لسياسة سلفه يزيد الذي أوغر صدور العرب اليمنية وشعوب البلاد المفتوحة وفـي محاولاته هذه استحق أن يلقبه الخليفة العباس - أبو جعفر المنصـور - رجل بني أمية . وقد اتسم عصر هشام بثورة أغلبية الولايات علـى الخلافـة ثار زيد بن علي زين العابدين بن الحسين في الكوفة عام ١٢٢هـ

فقد عاد العراق إلى الفتنة خاصة من قبل الشيعة الذيـن كانوا قد قبلوا الخضوع للأمويين منذ أن خمدت فتنة المختار ، فقد٧٤٠م ، وعندما تصدى له والى الكوفة تفرق عنه أتباعه ولم يبـق معه إلا مائتي رجل فقاتل زيد ومن معه حتى قتلوا عن آخرهم . وقام يوسف الثقفي والى الكوفة بإخراج جثة زيد المدفونة وقام بصلبـها وحرقها وحملت رأسه إلى كافة الأمصار الإسلامية) . وقد نتج على مقتله أن تفرق أتباعه والذين عرفوا فيما بعد باسم الزيدية ويذكر ابن خلدون أن خروج زيد بـن علـى علـى الخلافـة الأموية كان بسبب دعوته إلى الكتاب والسنة وإلى جـهاد الظـالمين والدفاع عن الضعفاء وإعطاء المحرومين ").

وفي بلاد ما وراء النـهر :

ساءت حالة الموالي بسبب سوء معاملة الولاة لهم ، ففي عام ١١٠هـ / ٧٢٨م ، فقد استمر عمال الخلافة الأموية في أخـذ الخراج على من أسلم لأن فيه قوة للمسلمين ، كما فرضت الجزيـة مما

جعل أهالى ما وراء النهر يثورون ويرتدون عن الإسلام ، لذا ظهر رجل عربي من قبيلة الأزد بخراسان يدعى الحارث بن سريج الذي خرج على الخلافة الأموية في عام ١١٦هـ لرفع الظلم عن المضطهدين ودعا إلى كتاب الله وسنة رسوله ، فانضم إليه كثير من أهالي نهرى جيجون وسيجون .

ولما أرسل هشام نحوه القواد دخل معهم في معارك كثيرة ثم هرب الحارث إلى بلاد الترك وقاتل معهم واستمر في مناهضة الخلافة إلى أن قتل هشام في عام ١٢٨هـ ولم يخفف من غضبالموالي على الخلافة إلا بعد أن قام هشام بتغيير الوالي على خراسان وتولية نصر بن سيار الذي اتبع سياسة اللين مع الموالي ووضع الجزية عمن أسلم وعفا عمن ارتد عن الإسلام ").

وفي الهند :

بعدما أقبل الناس على الإسلام في خلافة عمر بن عبد العزيز وتسموا بأسماء عربية ، ارتدوا عن الإسلام في زمن خلافة هشام بن عبد الملك وذلك سوءحكم الولاة ، وقد قام عامل الأمويين على الهند بقتال ملوك الهند مما أدى إلى ارتدادهم عن الإسلام ومن وقتها لم

يستطع العرب تثبيت أقدامهم في تلك البلاد فضاعت سيطرتهم عليها واضطر المسلمون إلى الخروج من بلاد الهند.

وفي مصر :

قامت الثورات أيضا ضد الخلافة الأموية لنفس الأسباب المالية والإدارية حيث أساء عمال الأمويين معاملة المصريين ، فقد

زاد الخراج في عهد هشام على يد واليه على مصر - عبيد الله بن الحجاب – على اعتبار أن مصر فتحت عنوة كما أن الخليفة الأموى

استقطع بعض أراضي المصريين وأعطاها لبعض القبائل العربية للاستقرار فيها .

لذلك ثار القبط ثورتهم الأولى في عام ١٠٧ هـــــ واستمرت حتى عام ١٢١ هـ بحيث شملت الدلتا والصعيد ورغم قوة المصريين أمام عمال هشام إلا أنه استطاع أن يرسل إليهم قائدا قويا هو حنظلة بن صفوان تمكن من القضاء على ثوراتهم في عام ١٢٢هـ بقسوة شديدة أدت إلى مقتل كثير من القبط ".

*** ثورات الخوارج :**

انضوى خوارج المغرب : إباضية وصفرية تحت لواء ميسرة المدغرى أو ميسرة الحقير في ثورة قامت في عام ١٢١هـ .

وينتمى ميسرة إلى قبيلة مطغرة من البربر وكان يشتغل بالسقاية في سوق القيروان ولكن المؤرخين يقولون أنه امتهن هذه المهنة بقصد التستر والتمويه على الخصوم والحقيقة أنه كان سيد قومه وشيخ قبيلته

وقد قام ميسرة بدور كبير في نشر المذهب الصفرى بين قبيلته وقد ذهب ميسرة إلى مقر الخلافة الأموية على رأس وفد ليشكو للخليفة هشام بن عبد الملك من ظلم عماله وتعسفهم مع أهالي المغرب وخاصة حرمانهم من غنائم الحروب ونهبهم لأموال البربر وسبى بناتهم ، ولكن اللقاء لم يتم فأيقن ميسرة وأتباعه أن الخلافة لها يد طولي مع عمالها وأنها موافقة على سياستهم المالية والإدارية المجحفة تجاه البربر .

وعليه فعند عودة ميسرة وأتباعه من الشام بايعه الناس بالإمامة والثورة ضد الأمويين وزحف مع الخوارج الصفرية إلى طنجة وقتل عاملها من قبل الأمويين وتمت له السيطرة على المغرب الأقصى واقتطاعه من نفوذ القيروان وقد بادر عبيد الله بن الحجاب - عامل إفريقية - إلى مواجهة خطر الصفرية فأرسل جنده بقيادة خالد بن أبي حبيب الفهرى ليحول دون وصول ميسرة إلى القيروان ، وعبر خالد بجيشه وادي شلف - وهو نهر قريب من تاهرت - ودخل الطرفان في قتال

عنيف يتضح من نتيجته أن ميسرة قد هزم بدليل انسحابه إلى الغرب مما جعل الصفرية يولون واحدا آخر غيره وهو خالد بن حميد الزناتي

وبتولية خالد بن حميد للخوارج الصفرية فقد لجأ إلى حيلة حربية جديدة تجاه جيوش الأمويين وهى أن يقسم جيشه إلى قسمين: يقوم القسم الأول بمواجهة جيش خالد الفهري أما القسم الآخر فيقوم بحركة التفاف من خلفه ليعوق اتصاله بأي مدد أموى ويمنعه من التقهقر والهرب ، وبذلك وقع جيش الأمويين في كمين البربر، كما يذكر ابن الأثير وكان نتيجة المعركة أن قضى البربر على الجيش الأموى وقتل في هذه المعركة كبار رجال العرب وقوادهم وأبطالهم فسميت هذه المعركة بمعركة الأشراف

وأسفرت هذه المعركة عن تمرد العرب بالقيروان على واليها وتنحيته عن الولاية وقد غضب الخليفة الأموى لما حل بالعرب فى موقعة الأشراف وعبر عن غضبه بقوله :

" والله لأغضبن لهم غضبة عربية ولأبعثن لهم جيشا أوله عندهم وآخره عندي ثم لا تركت حصن بربري إلا جعلت إلى جانب خيمة قيسى أو يمنى " .

لذا أرسل الخليفة جيشا ضخما بقيادة كلثوم بن عياض القشيري إلى المغرب وجعله على ولاية افريقية ، وبلغ جيش كلثوم ثلاثين ألفا من أهل الشام ومصر - عشرة آلاف من بنى أمية وعشرون ألفا من بيوتات العرب فضلا عمن انض إليهم من المقطوعة وجند إفريقية وعددهم أربعين ألفا

وبالرغم من ذلك كله ، كانت عوامل الضعف في جيش كلثوم تنذر بالفشل والهزيمة فقد افتقر الجيش إلى النظام والتآلف بين عناصره من قيسية ويمنية ومقطوعة وكانت قيادة الجيش للقيسية ، لذا كان للخصومات القبلية دورها في تصدع الجيش العربي قبل لقائه بالثوار الخوارج من الصفرية

حتى أن الصراع نشب بين كلثوم حبيب بن أبي عبيدة شيخ اليمنية بالمغرب ولم يتم التصالح بينهما حتى يستطيعا مواجهة الثورة الصفرية التي قام بها البربر بقيادة خالد بن حميد الزناتي عند وادي نهر سبو في موضع يقال له بقدورة .

ونتيجة للنزاع داخل الجيش العربي دخل الطرفان في معركة انهزم فيها العرب وهي موقعة بقدورة عام ١٢٣هـ ا هـ/٧٤١م حيث أسفرت المعركة عن قتل ثلث العرب وهزيمة ثلثهم وأسر ثلثهم ".

وبذلك تم للخوارج الصفرية السيطرة على بلاد المغرب الأقصى استهدفوا بعد ذلك التوجه إلى المغربين الأوسط والأدنى .

وفي هذا الوقت تم اسناد قيادة الجيش العربي إلى حنظلة . صفوان – والى القيروان – وكان عدده ثلاثين ألف مقاتل وذلك فى بن عام ١٢٤هـ

وحاول حنظله أن يستميل القبائل البربرية المتحالفة مع الثوار غير أنه فشل ووصل الأمر في المواجهة إلى حد محاصرة مدينة القيروان من قبل الخوارج فلجأ حنظلة إلى حفر خندق حول القيروان وقام بتنظيم جيشه ونجح في استمالة أهل القيروان وتمكن من هزيمة الخوارج في موقعتي القرن والأصنام فكان هذين الانتصارين بمثابة رد اعتبار للخلافة الأموية بعد الهزيمة في موقعة الأشراف وبقدورة .

وقد حال هذا النصر أن تقع إفريقية في يد الصفرية كما أكد نفوذ الخلافة في المغرب الأوسط

.

لكن النفوذ الأموي في بلاد المغرب ما لبث أن تداعي بضعف الخلافة إثر وفاة هشام في عام ١٢٥ هـ حيث تغلب عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة على إفريقية عام ١٢٧هـ الذي أرغم حنظلة بن صفوان على ترك إفريقية فاضطرت الخلافة الأموية إلى التسليم بولايته على إفريقية والمغرب.

كذلك انقسم الأندلس بسبب المنازعات الداخلية وأصبح أهله يولون أغلب ولاتهم بأنفسهم وكان النزاع بين العرب اليمنية والقيسية استمرارا لهذا النزاع القائم والموجود في المشرق واضطرب الأندلس فما كان من أهله إلا أن أرسلوا إلى حنظلة بن صفوان يطلبون منه أن يرسل إليهم واليا يجمعهم ويأخذ بيعتهم له ولأمير المؤمنين ولاسيما أن فتن البربر كانت قد انتهت ، فأرسل إليهم أبا الخطار هشام بن ضرار الكلبي الذي وصل إلى الأندلسي في عام ١٢٥ هـ فتم توحيد كلمة المسلمين في الأندلسي.

(١١) الوليد بن يزيد بن عبد الملك

١٢٥ - ١٢٦هـ

بويع بالخلافة عام ١٢٥هـ وعمره أربع وثلاثون عاما وكان أبوه يزيد قد بايع لأخيه هشام لأن ابنه الوليد كان صغيرا وقد حاول هشام تنحيته عن الخلافة وساعده في ذلك سلوك الوليد الذي شغف باللهو والمجون وحب القيان والغناء والشراب فقد كان يقال له الخليع بن الفاسق.

وقد عرف عنه شغفه بجمع الخيل واقتنائها وإقامة السباقات وكان أول عمل قام به الوليد أنه ضيق على أولاد هشام وأحصى أموالهم وأخذ عمال هشام وحشمه وعاملهم بقسوة ثأرا لكرامته حيث كان هشام في زمن خلافته كثيرا ما يحتقره ويستهزبه ويشهر به كما سار على سياسة والده – يزيد ابن عبد الملك .في ميله إلى القيسية وإبعاد اليمنية.

غير أنه من ناحية أخرى كان يرعى أحوال العامة ، فقد أعطى للمرضى من أهل الشام العطايا والكساء بما يفوق احتياجـهم ولا يجعلهم يسألون الناس.

وقد قتله اليمنية في عام ١٢٦هـ حيث حملت رأسه إلى يزيد ونصبت على رمح وطيف بها في شوارع دمشق وتعتبر هذه أول ثورة يمانية على خليفة أموى . وقد تم مقتلة بمدينة بخراء وهي قرية من قرى دمشق وكان ضده الوليد بن يزيد لأنه ضرب سليمان ابن عمه هشام مائة سوط وحلقه وغربه في أرض الشام وغيرها من أفعال نكراء في حق أبناء عمه ألبت عليه الناس فقتلوه.

(١٢) يزيد بن الوليد بن عبد الملك

(١٢٦هـ) (الناقص)

أبو خالد). بويع له بالخلافة بعد مقتل الوليد وأمه هي : شاه فريد بنت فيروز بن يزدجر والثالث سباها قتيبة بن مسلم البـــاهلي بخراسان وبعث بها إلى الحجاج الذي أرسلها إلى الوليد بن عبد الملك وأنجب منها يزيد ولم تلد غيره ويعتبر يزيد بن الوليد أول من ولي الأمر وأمه أم ولد أي أنها غير عربية . وقد كانت كنيته وقد كان أسمرا طويلا صغير الرأس ، وسمى الناقص لأنه قام الأمويين إذ لم يحدث أن ثار أحد من أفراد البيت الأموى على أي خليفة من خلفائهم ، وعند مقتل الوليد خطب يزيد في الناس حيث ذمه وبرر قتله للوليد غضبا الله ولدينه وقد كان يزيد ذا دين وورع ، وقد وعد الناس بالعدل في العطاء والأرزاق وأخرج من كان محبوسا من بني أمية زمن خلافة الوليد . وقد حظي يزيد بتقدير بعض

بينقص الزيادة التي كان الوليد قد زادها في أعطيات الناس ورد العطاء كما كان عليه زمن خلافة هشام بن عبد الملك وكانت ثورته على الوليد أول حدث من نوعه في خلافة

- وقد اعتمد يزيد الناقص على اليمنية وقام بإبعاد القيسية وكان ساخطا عليهم وازداد الشقاق بين القيسية واليمنية في خراسان حيث قام بحبس نصر بن سيار – وهو قيسي - والذي امتنع عن بيعة الخليفة وكان نصر قد قام بحبس الكرماني زعيم اليمنية غير أنه استطاع الهرب فساد الصراع بين العصبتين فعمت الفوضى وزادت الفتن .

وفي عهد يزيد تم القضاء على ثورة الحارث بن سريج الذي كان ثائرا منذ خلافة هشام وظل اثنى عشر سنة في بلاد الترك ، فاستطاع أن يحصل على الأمان من الخليفة ويرحل إلى خراسان وأعيد إليه ما أخذ من أموال وولده ").

كما قامت الثورات في بلاد الشام وحمص وفلسطين وشـــال إفريقية ولكن يزيد استطاع أن يرسل قوات أجبرتهم على مبايعته ، فيما عدا شمال إفريقية الذي ثار بها عبد الرحمن بن حبيب ضد الخلافة وظل كذلك حتى زمن خلافة أبي جعفر المنصور العباسى حيث قتله البربر في عام ١٣٧هـ أي أنه واليا لإفريقية عشر سنوات.

وقد توفي يزيد بن الوليد عام ١٢٦ هـ بمرض الطاعون وكانت ولايته ستة أشهر فقط وقام بالأمر بعده أخوه إبراهيم فبايعه الناس بدمشق أربعة أشهر ثم خلع وهرب بعد خلعه وساد فى تلك الأيام الضعف في جسد الدولة الأموية وقد توفى إبراهيم فى عام ١٣٢هـ.

(١٤) مروان بن محمد

(١٢٧ – ١٣٢هـ)

هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم وسمى الجعدى نسبة إلى معلمه ولقب بالحمار لصبره على قتال أعداء الدولة. وقد كان شيخا كبيرا ، تولى بلاد الجزيرة وأرمينية في عصرى هشام والوليد بن يزيد ولما قتل الوليد بن يزيد التف حوله المضرية وحرضوه على الثأر له من اليمنية ويزيد الناقصي فاستعد مروان بجنوده من تميم وقيس وكنانة وسائر قبائل مضر وسار نحو مدينة دمشق كما انضم إليه في الطريق أهل حمص الناقمين على يزيد الناقصى فالتقى مروان بسليمان بن هشام بن عبد الملك وهو على رأس جيش كبير أرسله إبراهيم بن الوليد الذي خلف يزيد الناقصي فدارت بينهما معركة هائلة انتصر فيها مروان من قتله الوليد بن يزيد وهرب سليمان بن هشام إلى دمشق فنهب وقتل مع مجموعة من أعوانه ثم هرب من دمشق ومعه القبائل اليمنية ، فدخل مروان دمشق وتغيب إبراهيم بن الوليد وثار موالي الوليد بن يزيد فنبشوا قبر يزيد الناقصى وصلبوه على باب الجابية من أبواب دمشق فأعلن مروان بن محمد خلافته وبايعه اس في عام ١٢٧ هـ ثم عاد إلى حران مركزه في الجزيرة وأتاه إبراهيم بن الوليد وسليمان بن هشام فأمنهما حيث خلع إبراهيم نفسه من الخلافة ").

وقد واجهت مروان بن محمد العديد من الاخطار مثل الصراع بين القيسية واليمنية والثورات العلوية والخارجية وكما ظهرت

الدعوة العباسية إيذانا بسقوط دولة بني أمية . فقد اشتد الصراع بين القيسية واليمنية في خلافة مروان بن عددا كبيرا منهم وهدم سور المدينة. كما ثار أهل فلسطين فقضى مروان على ثورتهم إلا أن القبائل اليمنية لم تستسلم فالتفت حول سليمان بن هشام فحاربه مروان وانتصر عليه في معركة خساف فسار سليمان بن هشام بعد هزيمته هذه إلى حمص فتحصن بها فلحق به مروان وحاصرها مدة عشرة أشهر ثم تم له فتحها أما سليمان بن هشام فقد هرب إلى تدمر ومنها إلى العراق وانضم إلى الضحاك ابن قيسى الخارجي وثار الخوارج في عام ١٢٧هـ بزعامة الضحاك بن قيس.

محمد الذي اعتمد على القيسية وثار أهل حمصى على مروان بعد بيعته بثلاثة أشهر بتحريض من قبائل كلب البوادي والحواضر فحاصرهم مروان وقتل

الشيباني في الجزيرة في أرض الموصل فسار منها إلى العراق فى ألف رجل وتوجه إلى الكوفة ثم لحق به ثلاثة آلاف من أهل الجزيوة

على نفوذ البيزنطيين على

والموصل وقد استطاع السيطرة على الكوفة بسبب النزاع بين المضرية واليمنية ، ثم خرج منها متجها إلى واسط فتمكن الضحاك من السيطرة على العراق ومد نفوذه حتى أطراف الجزيرة في

الموصل وطرد عامل مروان عليها . وقد اتجه مروان بن محمد للقضاء على الضحاك الخارجي الذي وصل إلى الجزيرة والتقى الطرفان في معركة كفر توثا من أرض الموصل فانتصر مروان عليه وقتله وانضم الخوارج بعد مقتل الضحاك إلى شيبان الحروري وكان معهم سليمان بن هشام ولكن مروان بن محمد استطاع التصدي لهم بعد معارك دائمة استمرت نحو عشرة أشهر حيث هرب شيبان وقتل في عمان أما سليمان بن هشام فقد هرب إلى السند وبقى هناك إلى أن ولى

العباسيون الخلافة فقربه العباس السفاح ثم قتله مع عدد من أفراد البيت الأموى "). وفي خراسان التي استقرت بها قبـائل متعـددة مـن يمنيـة

ومضرية دب النزاع بينهما منذ خلافة يزيد بن عبد الملك الذي ضرب اليمنية في شخصي يزيد بن المهلب ثم ازداد الشقاق والخلاف بينهما زمن خلافة هشام بن عبد الملك الذي عمل على حفظ التـوازن بيـن الفريقين المتخاصمين ولكنه من ناحية أخرى زاد في شقة الخـلاف باتباعه سياسة إبدال الولاة مرة من قبيلة مضر ومرة من قبيلة يمـنفكان الوالي يقرب أتباعه فدب النزاع والشقاق بين العصبيتين

وكان وقتها زعيم المضرية هو نصر بن سيار وزعيم اليمنيـة هو جديع بن على الأزدي الذي عرف بالكرماني لأنه ولد بكرمان. وظهرت المشادات والنزاعات المسلحة بين الطرفيـن حيـث نشب القتال بين الكرماني ونصر بن سيار فخرج الحيان يقتتلان فـى مرو عاصمة خراسان وحفر كل منهما خندقا فسمـى ذلـك المكـان بالخندقين وظلوا على هذا الحال - عشرين شـهرا - حتـى ظـهور الدعوة العباسية

ولم تكن هذه هي الثورات التي قامت في عصر مـروان بـن محمد ولكن قامت ثورات أخرى في الحجاز وهـى ثـورة خارجيـة بزعامة حمزة الخارجي استطاع مروان القضاء عليها بتوجيهه جيشا إلى الحجاز فقتل حمزة وأخمدت هذه الثورة .

كما قامت ثورة في مصر بسبب تغيير الـولاه وثـار القبـط واضطربت الأحوال الداخلية في مصر . وألقى الصراع بين اليمنية والقيسية في بلاد الشرق بظلالـه على أرض الأندلس فكان هناك صراعـا يمنيـا قيسـيـا فـي بـلاد الأندلس.

كل هذه العوامل هيأت لسقوط الدولة الأموية التي استمرت ما يزيد على تسعين عاما قامت بمجهودات بارزة في تاريخ الإسلام من مجهودات في الفتوح أو الإدارة كان له انعكاساته الحضارية على كافة المستويات الاجتماعية والثقافية والعمرانية والاقتصادية وختم بها تاريخ الدولة العربية .

* الفتوحات في عصر بني أمية

توقفت الفتوح في أيام الخليفة الرابع على ، الذي كان هدفاً للدسائس والمكائد ، وكادت الدولة العربية ، تنهار بسببها ، وقتل علي بعد خلافة دامت خمس سنوات ، فختم بوفاته دور الخلفاء الراشدين الذين كانوا من أصحاب الرسول ، ورايات المسلمين تخفق على الشام ومصر والنوبة وإفريقية والعراق وفارس وإرمينيا وأذربيجان وجرجان وطبرستان والأهواز وغيرها

انتقلت الخلافة بعد علي إلى بني أمية ، فبدأ عهدهم بمعاوية بن أبي سفيان ٤١ هـ ، حيث أرسل الخليفة الجديد جيوشه إلى شمالي إفريقية التي جعل منها حكومة منفصلة ، ولم يقف زحفها غير المحيط الأطلنطي ، وجاب البحر المتوسط أسطول مؤلف من ألف ومئتي سفينة ، فاستولى على جزر قبرص ورودس وكريت ، وأغار على صقلية ، وحوصرت القسطنطينية سبع سنين بغير جدوى ، وعبر نهر جيجون ، ورفع قواد

الخليفة راية الإسلام حتى سمرقند

وبعد وفاة معاوية سنة (٦٠ هـ - ٦٨٠م) ، استمر خلفاء بنو أمية استكمال الفتوحات فلغت جيوشهم حدود الصين من الشرق ، والمحيط

الأطلنطي من الغرب ، وجاز العرب مضيق جبل طارق في سنة (٩٢ هـ ٧١٢م) في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك ، ودخلوا إسبانيا ، وتمكنوا من انتزاعها من مملكة القوط النصرانية ، وأقاموا فيها حيث

خضعت لسلطان العرب نحو ثمانية قرون ، وتوغلت جيوش بني أمية في أوروبا فيما وراء إسبانيا ، فقطعوا جبال البيرينيه ، ودخلوا فرنسا ،

وتوغلوا فيها إلى نهر الرون سنة ١١٤هـ ، ارتعد الفرنجة لذلك الزحف فوقعت بين الفريقين معركة بلاط الشهداء في سهل يقع شـــمالي بواتييه دامت ثمانية أيام في خضم حرب دموية لم يذكر العرب لها إلا إشارات مقتصرة ، ولكن الفرنجة يولونها المقام الأول في حروبهم ، وكان ذلك ٧٣٢م) في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك ، انتهت هذه الحروب بتقهقر

بقيادة شارل مارتل قائد الإفرنج جد الإمبراطور شارلمان ، فذكر الإفرنجة أن حروباً هائلة وقعت بين العرب وبين شارل مارتل سنة (١١٤هـ

العرب إلى أربونة ، واستشهد قائدهم عبد الرحمن الغافقي ومن معه كما يذكر ابن الأثير.

وعندما توفي هشام كانت الدولة العربية قد وصلت إلى أوجها ، ففي أوروبا كان المسلمون قد توغلوا في بلاد غالية حتى أربونة وشبه جزيرة يبريا بكاملها ، باستثناء بعض الشعاب التي كانت معقلا لرجال العصابات أيدي المسلمين ، وفي البحر الأبيض المتوسط كان ا لأمويون يسيطرون على جزر كريت وقبرص ورودس وصقلية وكوصرة وسركوسطة سردانبة وكثير من جزر الأرخبيل اليوناني ، أما في إفريقية فكان سلطان ولة الأموية يمتد من جبل طارق حتى خليج السويس ، وفي أسيا من حراء سيناء إلى هضاب المغول .

تمكن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بعد أن انتشرت ألوية السلام في ربوع بلاده من إعادة النظر في متابعة الفتوح التي تمت في عهد من سبقه من الخلفاء ، فاتسعت رقعة دياره في المشرق والمغرب ،

وقد اشتهر في عهد الوليد ثلاثة من القواد العظام كان لهم أثر كبير فى هذه الفتوح ، وهم : قتيبة بن مسلم الباهلي ، ومحمد بن القاسم الثقفي وموسي بن نصير .

أما قتيبة بن مسلم فقد ولاه الحجاج بن يوسف خراسان ٨٦هـ ،

فخرج إلى بلخ وكانت أول جهة قصدها ، فتلقاه دهاقينها وعظماؤها وساروا معه ، ولما عبر نهر جيجون قابله ملك الصغانيات وأهدى إليه كثيراً من الهدايا وسلم إليه بلاده وفي سنة ٨٧هـ غزا قتيبة بيكند : بلدة بين بخاري وجيجون حيث

أغار على الصغد وقاتلهم قتالا شديداً ، فانهزموا وتفرقوا ، ثم طلبوا من قتيبة الصلح فصالحهم ، غير أن أهل بيكند انتهزوا فرصة غياب قتيبة وغدروا بعالمه وقتلوه ، فرجع إليهم ، وفتح المدينة عنوة ، و مغانم كثيرة ، ثم عاد إلى مرو .

وفي ربيع سنة ٨٨هـ استخلف قتيبة على مرو أخاه بشار بن مسلم ، وواصل فتوحاته ، فكان النصر حليفة بلاد كرمينية . وفي سنة ٩٠هـ قاتل المسلمون الترك حتى رودهم إلى مواقعهم

وتم لقتيبة فتح بخاري وألزم قتيبة أهالي بخارى بعد أن فتحها لأول مرة أن يمدوه بقوة إضافية من الجيوش المحلية تتراوح عادة بين عشرة آلاف و ٢٠٠٠٠رجل يقومون بالخدمة مع الجيوش العربية

وفي سنة ٩٣هـ قرر قتيبة مد حدود الدولة العربية فى أواسط آسيا، فعبر نهر جيجون ، حيث التقى بجيش مؤلف من عشرين ألف مقاتل من خوارزم وبخارى وكش ونسف ، ثم سار في العام

الثاني إلى فرغانة حيث استأنف منها السير حتى بلغ خجندة ، ثم انصرف إلى كاشان حاضرة فرغانة ففتحها ، وعاد إلى مرو ، وفي أثناء إقامته بها أتاه كتاب الوليد بن عبد الملك ، وقد ورد فيه : " قد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجدك واجتهادك في جهاد أعداء المسلمين ، وأمير المؤمنين رافعك وصانع بك الذي يجب لك ، فأتم مغازيك وانتظر ثواب ربك ، ولا تغيب عن أمير المؤمنين كتبك ، حتى كأني أنظر إلى بلائك والثغر الذي أنت فيه .

٦- محاولة فتح بلاد الصين

وفي عهد الوليد بن عبد الملك مضى القائد العربي فتيبة بن مسلم لا يكتفي بما فتحه من بلاد ما وراء النهر ، بل يمضي قدماً في سنة ٩٦هـ

إلى حدود الصين على رأس جيش كثيف ، فلما عبر النهر استعمل رجلاً على النهر ليمنع من يرجع إلا بجواز منه ، وبينما هو في طريقه إليها جاءه نبأ وفاة الوليد بن عبد الملك ، فلم يثنه ذلك عن مواصلة الغزو ، بلى تابع سيرة حتى قرب من الصين ، فأرسل إلى ملكها وفداً برئاسة هبيرة بن المشمرج الكلابي ، وبعد أن دار بينه وبينهم عدة مراسلات قال ملك الصين موجها كلامه إليهم : انصرفوا إلى صاحبكم ، فقولوا له أن ينصرف ، كأني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه ، وإلا أبعث عليكم من نهلككم ويهلكه . فقال له هبيرة : كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون ؟ وكيف يكون حريصاً من خلف الدنيا قادرا عليها وغزاك ؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل فإنا لنا أجالاً ، إذا حضرت فأكرمها القتل، فلسنا نكرهه ولا نخافه . فأجابه ملك الصين : فما الذي يرضي صاحبك ؟ فقال هبيرة : إنه قد حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم ، ويختم ملوككم ، ويعطى الجزية . فقال الملك : فإننا نخرجه من يمينه ، نبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فيطؤه ، ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم ، ونبعث إليه بجزية برضاها ، ثم دعا بصحاف من

ذهب فيها تراب ، وأرسل ملك الصين إلى قتيبة صحاف من ذهب فيها تراب وأرسل بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم ، ثم أجاز الوفد فساروا حتى قدموا على قتيبة ، فقبل الجزية ، وختم الغلمان وردهم ووطئ التراب ، ثم عاد إلى مرو . تذكر التواريخ الصينية أن هشام بن عبد الملك أرسل سفيراً يدعى سليمان إلى الأمبراطور هزوان تسنج ، وقد اكتسبت هذه العلاقات

قامت السياسية التي ، بين الدولتين العربية والصينية أهمية جديدة في أواخر عهد هذا الإمبراطور حين طرده أحد الغاصبين من عرشه ، فتنحي عنه لابنه سوتسنج ، فطلب هذا الأخير النجدة من الخليفة العباسي أبي جعف المنصور ، فأرسل إليه قوة من الجيوش العربية التي ساعدته على استبداد ملكه ، ولم ترجع هذه القوة العربية إلى بلادها بل تزوجت من أهلها واستقرت في الصين.

- ٧- فتح بلاد السند

ترجع حملات المسلمين على بلاد الهند إلى عهد بعيد ، فقد أرسلوا أولى حملاتهم بعد أن انتقل الرسول (ص) إلى جوار ربه بخمس عشرة سنة ، ومن ثم أخذ سيل العرب يتدفق على هذه البلاد من ناحية الشمال الغربي ، واستمر ذلك إلى القرن الثامن عشر الميلادي ، واستقر بعضهم فيها ، وكونوا مماليك كان لها أثر كبير في تقدم الحضارة الإسلامية.

يقول البلاذري : ولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه عثمان بن أبي العاص الثقفي البحرين وعمان سنة ١٥ ، فوجه أخاه الحكم إلى البحرين ، ومضى إلى عمان فأقطع جيشاً إلى تانة ، فلما رجع الجيش كتب إلى عمر يعلمه ذلك ، فكتب إليه عمر : يا أخا ثقيف ، حملت دودا على عود ، وإني أحلف بالله أن لو أصيبوا لأخذت من قومك مثلهم . ،ا

ووجه عثمان بن أبي العاص الحكم أيضاً إلى بروص ، ووجه المغيرة بن أبي العاص إلى خور الديبل على الساحل الغربي لبلاد الهند ، ويعرف الآن باسم كراتشي ، فلقي العدو فظفر به .

فلما ولى عثمان بن عفان الخلافة ، ولى عبد الله بن عامر العراق ، وأمره أن يوجه إلى الهند رجلا يستطلع أخبارها ويصفها له ، فوجه حكيم بن جبلة العبدي ، ولما رجع وصفها له ولم يغز هذه البلاد أحد حتى سنة ٣٩هـ ، حين وجه على بن أبي

طالب إليها حملة بقيادة الحارث بن مرة ، فغنم كثيراً من الغنائم والأسرى ، ثم قتل سنة ٤٢ هـ بأرض القيقان من بلاد السند مما يلي خراسان . وفي عهد معاوية بن أبي سفيان غزا المهلب بن أبي المهلب بن أبي صفرة بلاد السند في سنة ٤٤ هـ ، وامتدت الفتوح إلى الأراضي الواقعة بين كابل والملتان ، ثم امتدت هذه الفتوح في هذه البلاد فشملت القوقان والقيقان والديبل

ولما ولي الوليد بن عبد الملك الخلافة ، عهد الحجاج بن سوف الثقفي إلى محمد بن القاسم في غزو بلاد الهند ، فسار إليها في سنة ٨٩هـ ، وحاصر ثغر الديبل وفتحه عنوة ، وبنى به مسجدا ، ثم سار إلى بيرون فاستقبله أهلها استقبالاً حسناً وأدخلوه المدينة .

واصل محمد بن القاسم فتوحاته فتوجه في هذه البلاد حتى بلغ نهر السند ، وكان يعرف إذ ذاك باسم نهر مهران ، وهنا التقى ببداهر ملك السند ، وكان هو وجنده يقاتلون على ظهور الفيلة ، فاقتتلوا قتالا شديداً انتهى بقتل بداهر وهزيمة أصحابه . وبذلك استطاع محمد بن القاسم أن يمد فتوحاته في كافة أرجاء بلاد السند ، ثم تابع هذه الفتوح حتى وصل إلى الملتان ودخلها ، ولكن مؤن المسلمين نفذت وكادوا يهلكون جوعاً ، حتى اضطروا إلى أكل الدواب ، وقتل محمد بن القاسم سدنة البد ، وهو مكان عبادته ويشبه كنائس النصارى وعطشاً .

ولما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة ، كتب إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام ، ووعد بأن يقرهم على ما بأيديهم ، وأن يصون لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما عليهم ، وقد كانت بلغتهم سيرته ومذهبه ، فأسلم مكسشة بن بداهر والملوك ، وتسموا بأسماء العرب ، وغزا عمرو بن مسلم ا

وفي عهد هشام بن عبد الملك خرج المسلمون عن بلاد الهند ، ثم ولي الحكم بن عوانة الكلبي ، وقد ارتد أهل الهند إلا أهل قصة فلم ير المسلمون ملجأ يلجؤون إليه ، فبنى من وراء البحيرة مما يلي الهند مدينة سماها المحفوظة ، وجعلها مأوى لهم.